أغراض الشعر في عصر النبوة

كان الشعر الجاهلي يدور في فلك أغراض تتعلق بالحياة العامة في العصر الجاهلي، وهي: الحماسة، (وذلك لكثرة الغزوات، والجهاد في سبيل الله) و المديح والافتخار والرثاء، والهجاء (أو الذم)، والاعتذار (أو الاستعطاف)، والعتاب (أو التأنيب أو اللوم)، والغزل، والوصف.

وبعض هذه الموضوعات يدخل في بعض فنجد الفخر مع المديح، فيفتخر بنفسه وبالممدوح وبصلته به والمديح والفخر يدخلان في الحماسة، ونجد الاعتذار مع المديح، فالمعتذر يعتذر بمدحه، واللوم والعتاب والتوبيخ والتأنيب نجدهم معًا في عمال واحد.

والوصف يدخل في الغزل والمدح والفخر ويأتي كثيرا في مقدمة القصائد الجاهلية وتكاد قصائد الجاهلية لا تخلو من وصف ، فشاعر الجاهلية كثير التأمل لصفاء قريحته، واتساع الأجواء من حوله وإحساسه بالطبيعة من حوله واحتكاكه المباشر بها بخلاف شاعر المدينة الذي يقبع في حجرة أو مكان مغلق هربا من الناس، ليخلوا إلي خياله،ويفسح لقريحته أن تفيض ويستنطق لسانه، ولكن شاعر الجاهلية كان خياله فياضاً ينطلق في فضاء مد بصره، ويتواصل مع الفلك بعينه، ويجاسر البيئة بجسده، فيشعر بكل شيء شعورًا صادقًا.

وقد شغل الوصف مساحة كبير من مقدمات القصائد الجاهلية، فالشعر يسترسل في وصف الحبيبة والناقة، والصحراء ومعالمها والليل ونجومه وقمره. ويصفون كل شيء وقعت عليه أعينهم وصفًا دقيقًا، وقد برعوا فيه براعة فائقة، ويصفونه غالبا بعد ذكر المحبوب والتغزل فيه أو التشبيب، فيستغرقهم وصف الصحراء إن كانوا في سفر أو هجرة، أو فراق حبيب. وقد وصف طرفة بن العبد ناقته وصفًا دقيقًا في معلقته، فلم يترك منها شيئًا إلا وصفه، ورسمه رسمًا دقيقًا، ويستطيع من لم يرها أن يتخيلها كما هي دون مشقة[1]، و يصحب الوصف تشبيهات قد تأخذ الشاعر عن الموصوف الحقيقي، فيصف المشبه به ثم يعود بعد أبيات إلى المشبة، فيتتبع معالمه، ويعدد المشبه به، فقد وصف امرؤ القيس فرسه وصفًا دقيقًا وشبهه وعدد المشبهة به فقال[2]:

له أيطَلاَ ظَبْيٍ وسَاقَا نَعَامةٍ وإرخاءُ سِرْحَانٍ وتقريبُ تَتَفُلِ

---

(1) المعلقات العشر ص٩٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠٠.

(2) المعلقات العشر ص٨٨.

وقد يدخل المديح في الرثاء، فالمادح يذكر فضائل الميت، ويبكيه بها فهو الشجاع المقدام الجسور.

وبعض الأدباء رأوا أن المدح والرثاء شيئا واحدًا غير أن الأول يمدح به الحي، والثاني يمدح به الميت، ورأى بعضهم أن المدائح النبوية خاصة قيلت في حياة النبيﷺ وبعد مماته؛ لأن النبيﷺ قائم بيننا حي فينا، ولهذا توعد عمر رضي الله عنه رجلين من خارج المدينة رفعا صوتهما في مسجد رسول اللهﷺ ، وعفا عنهما؛ لأنهما ليسا من أهل المدينة، وأجمع العلماء على حرمة رفع الصوت في مسجد رسول اللهﷺ مطلقًا إلا بالآذان والقرآن والخطبة عملاً بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[الحجرات: ١].

وقد قيل أكثر المدائح بعد وفاة الرسولﷺ، وما يقال من مدح بعد الوفاة يسمى رثاء بيد أنه في الرسولﷺ يسمى مدحًا، فالرسولﷺ موصول الحياة بما قاله الله تعالى على لسانهﷺ وما أمره به من عمل وحكم وسلوك، فجعلوا خطابهﷺ خطاب الأحياء.

وقيل إن المديح بعد الموت يسمى رثاء؛ لأن القائل يتفجع فيه على الميت، ويتحزن عليه، ولهذا جاء في السيرة وبعض مصادر الأدب نقلاً عن السيرة: قال حسان يرثي النبي ﷺ: "لأنه قال قصيدته بعد وفاة الرسولﷺ يتحزن عليه ويتفجع، أو ليفرقوا بينما قاله من مدح فيه حيًّا وما قاله فيهﷺ بعد وفاته، بيد أن ما قاله غير حسان رضي الله عنه ممن ولد بعد النبوة كان مدحًا، فقد قالوا شعرهم حبًا فيه وتقربًا إلى الله ابتغاء الأجر، ورغبة في نشر محاسن الدين، وثناء على شمائل الرسولﷺ[1].

ويعد المديح والرثاء والحماسة، والهجاء أكثر موضوعات الشعر تناولاً في عصر النبوة، فقد أثرت الأحداث على الأدب وحددت مساره واتجاهاته، ووقع الغزل في بعض القصائد غير مقصود في مقدمات القصائد، لأن طبيعة هذه الفترة والأحداث التي وقعت بها لم تتح مجالاً واسعًا لأغراض الشعر الأخرى؛ لأنها فترة صراع تلاحقت فيها الأحداث، ووقعت فيها حروب وانشغل العرب بها بملاحقة أخبارها وانتظروا نتائجها ليعرفوا مصيرهم، فالأمر خطير وله أثره في الجزيرة كلها، وترقبت الصراع الدول التي تعيش على أطراف الجزيرة، وأدركت أنها ستكون جزءًا من الأحداث المقبلة.

---

(1) ارجع إلى المدائح النبوية في الشعر العربي الدكتور زكى مبارك، الهيئة العامة لقصور الثقافة ص١٤، ١٥.

وقد قام الشعر بدور إعلامي خطير في الصراع، وكان وقع القصائد يقع صداه في جميع قبائل العرب، ومنه عرفت العرب أخبار الصراع، وأدى الشعر دوره فيه، وأصبح للهجاء دور السيف في المعركة، فهو سلاح الحرب النفسية في الحروب، فقد أصاب من وقع بهم فزع وقلق وألم من قوع الهجاء فيهم، وكان عليهم كوقع النبل جملة واحدة، وقد شغل المديح والهجاء والفخر والرثاء والحماسة والتشبيب والوصف والعتاب مساحة عظيمة في عصر النبوة.

المديح

المديح ذكر محاسن إنسان (أو جماعة) وفضائله أو مناقبه ومآثره، وما له من مزايا ترفعه عن غيره يعرف بها.

وهو غرض قديم من أغراض الشعر، وكان الشاعر الجاهلي يمدح عصبية عشيرته وسيدها من قومه، أو يمدح طلبا للعطية والتكسب كأن يمدح سيدًا أو ملكًا، فيجازيه على مدحه، أو يمدح حبًا وولاء وإيمانًا منه بالممدوح كأن يمدح زعيمًا أو شخصية اجتماعية مؤثرة لها دورها في الحياة العامة أو صاحب فضل أو صنيع.

وقد كان عامة المدح في الجاهلية يقال عصبية وحمية أو طلبًا للعطاء بيد أن شعراء الإسلام كانوا يمدحون تطوعًا ابتغاء وجه الله تعالى وحبًا لنبيهﷺ وإيمانًا منهم بدعوته ورسالته في الحياة وإعجاباً به وبخلقه العظيم، وولاء لدينهم وإخلاصًا للدعوة ومساهمة في نشرها، فقد كانوا يجاهدون بقولهم ويقفون من وراء النبيﷺ يجاهدون عن دينهم وعن رسولهمﷺ.

وكان على رأس المادحين حسان بن ثابت رضي الله عنه الذي وقف شعره بعد إسلامه للدفاع عن النبيﷺ والإسلام. وكان المادح يمتدح مناقب القبيلة وسادتها، وحفظها الجوار، وإباءها، وعزتها وشجاعة أبنائها، وفتكهم، وكرمها وكثرة عددها. وكان الشعراء يمدحون مكرمات السادة نحو فك الأسير، وحفظ الجوار، والحكومة في الخصومات وكرم الأصل، وحسن الضيافة، والسخاء.

وقد تحول المدح قبيل الإسلام إلى وسيلة للتكسب وطلب العطاء، فقصد الشعراء الملوك والسادة يمدحونهم رغبة في هباتهم وجوائزهم، وظهر شعراء البلاط يمدحون البلاط الذي

يعيشون في كنفه، فقد اختص حسان ببلاط الغساسنة، فأغدقوا عليه عطاياهم، ومدح النابغة الذبياني المناذرة وعاش في كنفهم، وكان شاعر النعمان بن المنذر، وقد تحول إليه حسان ثم رحل عنه إلى الغساسنة، وكثر الشعراء في بلاط المناذرة لكثرة ما تحت أيديهم من قبائل العرب، فدعوا به إلى أنفسهم ومنهم طرفة بن العبد، والمثقب العبدي، المتلمس، والمسيب بن علس.. ومدح زهير بن أبي سلمى أشراف قومه وبعض سادة العرب.

وقد ترك حسان الغساسنة وعاش مع قومه الأوس بعد أن أسلموا ووهب شعره للإسلام ومدح النبيﷺ وأصبح شاعر الإسلام الأول الذي قاد المعارك الشعرية ضد شعراء المشركين، وكان مقدمًا في ذلك، ولم يكن يمدح طمعًا في العطاء بل حبًا لله ولرسولهﷺ.

وقد روت كتب السيرة بعض المدائح التي قيلت في النبيﷺ، وبعضها قاله بعض الجاهليين في النبيﷺ قبل الهجرة، وهي بخلاف المدائح التي قيلت بعد الهجرة، فالقصائد المكية التي قالها جاهليون كانت تمتدح فيهﷺ الأوصاف الحسية، فتصف فيه الحسن والجمال وصباحة الوجه والطلاقة وشُبِّهة بالغيث والشمس والبدر والصبح، وأشهر من مدحه من الجاهليين، عمه أبو طالب، فقد نسب إليه شعر ذكر فيه فضل رسول الله فيهم ومكانه منهم، ليشد لهم رأيهم وليحدبوا معه على أمره فقال[1]:

إذا اجتمعتْ يومًا قريشُ لمفْخَرٍ ... فعْبدُ مَنَافٍ سرُّهَا وَصميمُها[2]

فإن حُصِّلَتْ أشرافُ عبد مَنَافها ... ففي هاشمٍ أشرافُها وقَديمُها

وإن فَخَرَتْ يومًا فإنَّ محمدًا ... هو المصطفَى من سرِّها وكريمُها

تدَعَتْ قريشٌ غَثُّها وَسمينُها ... عَلَينَا فَلَمْ تظفرْ وطَاشَتْ حُلُومُها[3]

وذكرت السيرة قصيدة طويلة لأبي طالب يتعوذ فيها بحرم مكة وبمكانه منها، وقد تودد فيها إلى أشراف قومه خشية أن يؤذيه هو وقومه دهماء العرب، وقد قال فيها:

وأبيضٌ يستسقي الغمام بوجهه ... ثِمَالَ اليتَامَي عصمةً للأرامل

يلوذُ به الهُلاَّكُ من آل هاشمٍ ... فَهُمْ عنْده في رَحَمْةٍ وفَواضل

وأعلن أبو طالب في قصيدته أنه يؤيد محمدًاﷺ ويناصره في كل حال فهو ليس بكذاب

---

(1) السيرة جـ١/٢٨٢.

(2) سرها وصميمها، خالصها وكريمها. يقال فلان سر قومه: من خيارهم، وأشرفهم.

(3) غثها وسمينها: أصل الغث اللحم الضعيف، فاستعاره لمن ليس نسبه هنالك. السمين: مقابل الغث واستعاره، وأراد أنها اجتمعت كلها، طاشت حلومها: ذهبت عقولها.

ومن أصحاب الأباطيل، ولم يأت بمذمة يعيّر بها فتكون سبة له ولقومه.

وروى أنه ﷺ لما استسقى للناس بعد أن أقحطوا وشكوا ذلك إليه، فصعد رسول الله ﷺ المنبر، فاستسقى لهم، فما لبث أن جاء المطر فأتاه أهل الضواحي يشكون منه الغرق، فقال رسول الله ﷺ: "اللهم حوالينا ولا علينا"[1] فانجاب السحاب عن المدينة، فصار كالإكليل، فقال رسول الله ﷺ: "لو أدرك أبو طالب هذا ليوم لسرّه، فقال له بعض أصحابه كأنك يارسول الله أردت لقوله:

وأبيض يستسقي الغمام بوجهه ثِمَال اليتامى عِصْمة للأرامل

قال: أجل"[2]. وروى سالم عن أبيه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال عندما استسقى النبي ﷺ للناس: "ربما ذكرتُ قول الشاعر وأنا أنظر إلى وجه النبي ﷺ يستسقي، فما ينزل حتى يجيش كل ميزاب[3]:

وأبيض يستسقي الغمامُ بوجهه ثِمال اليتامى عصمة للأرامل

وهو قول أبو طالب. وقد سمع عبد الله بن دينار ابن عمر رضي الله عنهما يتمثل بشعر أبي طالب[4]، وذلك لما فيه من مدح، وقد شاهد المطر نزل بدعائه ﷺ، فتحقق مديح أبي طالب. وقال أبو طالب في النبي ﷺ:

وشق له من اسمه ليُجلّه فذو العرش محمود، وهذا محمّد

والمحمَّد الذي حمد مرة بعد مرة كالممدَّح، قال الأعشى:

إليك أبيت اللعن كان وجيفها إلى الماجد القرم الجواد المحمّد

وذلك في مدح الملك، أي: الذي حمد مرة بعدة، أو الذي تكاملت فيه الخصال المحمودة[5]. وكان الكفار يعدلون عن تسميته بهذا الاسم لما فيه من مدح وثناء، ويعرّضون به فيسمونه مذمّمًا. روى أبو هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: "ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم؟ يشتمون مذمّماً، ويلعنون مذمَّماً،

---

(1) ارجع إلى السيرة جـ١/٢٩٧ وهذه القصيدة أكثر من ثمانين بيتًا.

(2) ارجع إلى السيرة جـ١/٢٢٨

(3) صحيح البخاري كتاب الاستسقاء، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا.

(4) نفسه. والثمال: ملجأ، مطعم، مغيث، معين، كاف، عصمة الأرمل: يمنعهم مما يضرهم، والأرامل جمع أرملة، الفقيرة التي لا زوج لها.

(5) فتح الباري جـ٦/٦٢١

وأنا محمد"[1]. ولم يحمل النبيﷺ شيئًا مما قالوه في مذمَّم على نفسه، فهو محمد وليس مذممًاﷺ. ومدح العباس بن عبد المطلب النبيﷺ بأبيات أولها[2]:

من قبلها طبتَ في الظلال وفي مستودَع حيث يخصف الوَرَقُ

كان المدح في الجاهلية يصف الجانب الحسي، فيمدح جمال الوجه الوضاءة والصباحة والحسن والبهاء، وأنه أبلج الوجه، حسن الخلق، ليس بجسده عيب، طويل القامة ويصف الشاعر شعره، ووجهه، وذراعيه، وشعره، وعنقه، ولحيته، وحاجبيه، وصوته ومنطقه، فالعرب كانت تعتد بالقوة الجسمانية وطول القامة، وعظم البنية، وحسن الهيئة وجمال المنظر، وكان لهذه الصفات هيبة في النفس.

وكان النبيﷺ معتدلاً في الخلق، فلم يكن بائن الطول ولا قصيرًا، حسن الوجه، وسيمًا، كث اللحية، أزج (دقيق شعر الحاجبين)، يعلوه البهاء، حلو المنطق، عظيم القدر والهيبة وقورًا، حسن المنطق، طلقًا، فصيحًا. قال حسان يمدح رسول اللهﷺ[3]، فوصف خَلْقَه:

وأحسَنُ منك لم ترَ قط عيني وأجملُ منك لم تَلِد النساءُ

خُلِقْتَ مُبَرَّأً من كل عيبٍ كأنك قد خُلِقْتَ كما تشاءُ

وجمال الشكل له أثره في الناس، فهم يقبلون على الرجل الحسن وضيء الوجه معتدل القامة، مكتمل الخلقة. وكان الصحابة رضوان الله عليهم يحبون النظر إليه، وكان يعجبهم ما يرونه فيه من صباحة الوجه وإشراقه وتهلله، وقد وصفت عائشة رضي الله عنها رسول الله ﷺ فقالت: كان والله كما قال فيه حسان:

متى يَبْدُ في الدّاجي البهيمِ جبينُهُ يَلُحْ مِثلَ مصباحِ الدُّجى المتوَقِّدِ[4]

فمن كان أو يكون كأحمدٍ نظامٌ لِحَقٍّ، أو نَكالٌ لمُلحِدِ[5]

وجبينه كالمصباح المنير في ليل حالك السواد. وأنعم الله تعالى على نبيهﷺ من بعد اكتمال الخَلْق باكتمال الخُلُق، فهوﷺ على خلق عظيم، ليكون مؤهلاً لحمل دعوة الحق، فلا يجد الناس مطعنا في خَلْقِه أو خُلُقِه ، فبرأه الله تعالى من كل عيب ، ليكون قدوة للناس

---

(1) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء الرسول ﷺ.

(2) معجم الشعراء ص١٠٢

(3) الديوان ص١٩ – ط/ دار الجيل – بيروت.

(4) الداجي: المظلم، البهيم: الأسود، دليل بهيم: لا ضوء فيه إلى الصباح، الدجى: سواد الليل وظلمته.

(5) النكال: العقاب، أو النازلة.

وسراجًا منيرًا وهاديًا يهتدون به في حياتهم:

قال حسان رضي الله عنه يمدح النبيﷺ:

أَغَرُّ عليه للنبوة خاتـــــــــمٌ ... مـــن الله مشهـــودٌ يلوحُ ويشهدُ[1]

وضمَّ الإلهُ اسم النبي إلى اسمـــه ... إذا قال فـــي الخمس المؤذنُ أشهدُ[2]

وشق له من اسمه ليُجِلَّـــــهُ ... فذو العرش محمـــودٌ، وهذا محمّدُ[3]

نبيٌّ أتانا بعد يأس وفتـــــــرة ... من الرسل، والأوثان في الأرض تعبدُ[4]

فأمسى سراجًا مستنيرًا وهاديـــاً ... يلوح كما لاحَ الصَّقيل المُهنَّـــدُ[5]

وأنذرنا نارًا وبشَّرَ جنـــــــةً ... وَعلّمنا الإسلام فاللهَ نحمَـــــدُ

وأنتَ إله الخَلْق ربِّي وخالقـــي ... بذلك ما عمرت في الناس أشهـــدُ

تعاليتَ ربَّ الناس عن قَوْل مَن دَعا ... سوَاك إلهًا، أنت أعلى وأمجـــدُ

لك الخلق والنعماءُ، والأمر كلـــه ... فإيَّاك نستهدي ، وإياك نعبـــد[6]

وقد تأثر حسان رضي الله عنه في مدحه بالقرآن الكريم ، مثل : "نبي أتانا بعد يأس وفترة من الرسل" وهو من مقتبس من قوله تعالى: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ**﴾ [المائدة:١٩]. و"فأمسى سراجًا منيرًا وهاديًا" وقد اقتبسه من قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً**﴾ [الأحزاب:٤٦].

وقوله: "وأنذرنا نارًا، وبشر جنة"، و"فالله نحمد"، وقوله: "فإياك نستهدي وإياك نعبد". وقد استحدثت معاني قرآنية جديدة ووقعت في شعره نحو، النبوة، النبي، خاتم النبوة، المؤذن، الشهادة، ذي العرش، محمود، محمد، الرسل، الأوثان، العبادة، الإسلام، الهدى، الهادي، البشير، والسراج المنير، الجنة، النار،الحمد لله.

ومن تشبيهاته التقليدية التي شبه بها الجاهليون قوله: "يلوح كما لاح الصقيل والمهند" فشبه نور النبيﷺ بصفحة السيف اللامعة أو أضحى سراجًا منيرا وهاديا كنور السيف الصقيل، والعرب تشبه حسن الوجه بالشمس والبدر والصبح، وحد السيف في اللمعان والبهاء.

وقال حسن يمدح النبيﷺ:

---

(1) أغر:كريم الأفعال واضحها، خاتم النبوة: قيل إنه شامة خضراء محتفرة في اللحم،وقيل إنه رسول اللهﷺ.

(2) إشارة إلى أن محمد خاتم الأنبياء – يقول المؤذن في كل صلاة من الصلوات الخمس – أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله.

(3) ذو العرش محمود : بيان .

(4) الفترة: ما بين رسولين.

(5) فأمسى سراجًا مستنيرًا: أي السراج الذي يستضاء به.

(6) إياك نستهدي: أي نطلب الهداية.

والله ربّي لا نفـــارق ماجدًا عفَّ الخليقـــة ماجدَ الأجدادِ

مُتكرِّمًا يدعــو إلى رب العُلى بذلَ النصيحة رافع الأعماد[1]

مثل الهلال مباركًا، ذا رحمةٍ سمح الخليقة، طيب الأعوادِ[2]

إن تتركـــوه فإن ربي قادرٌ أمســـى يعود بفضله العوّاد[3]

والله ربي لا نفـــارق أمره ما كان عيشٌ يرتجـــى لمعاد

لا نبتغـــي ربًّا سواه ناصرًا حتى نوافي ضحـــوة الميعاد

لقد تناولت المدائح النبوية الوصف الخُلُقي في النبيﷺ فمدحت عفته وكـرم خلقـه، وعفوه، ورحمته، وسماحته.

ووصفت خَلْقه، فهو وضيء الوجه مستبشر في وجهه نور يستضاء به، فوجهه مثـل حد السيف في اللمعان لشدة ما ينبعث منه من ضوء أو ما يعكسه من ضوء الشمس وهـو مثل الهلال مبارك، ومثل الغيث في العطاء والكرم، وهو من أصل طيـب عريـق، ماجـد الأجداد.

ويزعم بعض النقاد أن حسانًا رضي الله عنه مدح النبيﷺ بما بمدح بـه الجـاهليين، وهذا الرأي فيه نظر؛ لأن مدائح الشعراء الذين عاشوا في الإسلام وطالت صحبتهم النبـي ﷺ وغلب على مدائحهم الطابع الروحي وتجافوا عن الوصف المادي، وما يصفوا به وجه النبيﷺ يراد منه ما كساه الله تعالى به من بهاء ووضاء، وأن نور الإيمان يـشرق مـن وجهه، وكانت مدائح الجاهلية تذكر القتل والتخريب والتنكيل وجوائز السادة للشعراء،

وليس هذا إلا طمعًا في مالهم وهباتهم، ولكن المدائح النبويـة تـذكر نبـوة النبـيﷺ وتعاليمه وهديه، وأنه قدوة وسراج منير للعالمين، ولا يعاب الشعر بمـا جـاء فيـه مـن تشبيهات الجاهليين، وألفاظهم، فالإسلام لم يهدم اللغة بل هدم مثالب الجاهلية ومعتقـداتها وأعرافها الفاسدة، وقد وظف القرآن الكريم اللغة نفسها فى خطاب الجـاهليين وعارضـهم بأسلوبهم وتشبيهاتهم وغلبهم فيها وأبطل ما هم عليه من جاهلية.

---

(1) بذل النصيحة: كريم النصيحة، رافع الأعماد: فلان رفيع العماد: أي شريف.

(2) طيب الأعواد: طيب الأصل والحسب والنسب.

(3) قادر: أي قادر على حفظه.

وهنالك مدائح أخرى لشعراء حديثي عهد بالإسلام، ليس لديهم وعي كاف به وحظهم منه قليل قالوا قصائدهم وهم يقبلون على الدخول في الإسلام، ومازال في خلده تراث الجاهلية الشعري، ولم يؤثر الإسلام فيه تأثيرًا بعيدًا، وهؤلاء ليسوا كحسان أو كعب أو ابن رواحة، فقد كانت لهم صحبة وجالسوا النبيﷺ وتربوا على يديه، وعاشوا في كلاءته الخلقية، ونهلوا من فيض علمه، وصنعهم على عينه.

وليس غريبًا أن نجد في قصائدهم شكل قصيدة الجاهلية، وبعض مضامينها ومعانيها ، وليس غريبًا أن نجد شخصية الرسولﷺ في شعرهم شخصية الزعيم المنتصر الذي أذل الرقاب وخضع له العرب، فهو السيد العظيم. بيد أنهم علموا ما اختصه الله تعالى به من النبوة والكتاب الذي أعجزهم وأغراهم بحفظه ومحاكاته ومشاكلة لفظه وأسلوبه، ومن هؤلاء النابغة الجعدى. وقد مدح النبيﷺ فقال[1]:

بلغنا السماءَ مجدنا وجدودَنا وإنا لنبغي فوق ذلك مظهرا

فقال النبيﷺ: "فأين المظهر يا أبا ليلى؟ فقال: الجنة. فقالﷺ: قل إن شاء الله. فقال: إن شاءَ الله. ثم قال:

ولا خيرَ في حلم إذا لم يكن بوارد تحمي صفوه أن يقدرا

ولا خير في جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

فقال النبيﷺ: "أجدت لا يفضض اللهُ فاك". فقيل مرت عليه مائة سنة أو أكثر وما انقض من فيه سنٌ، وقيل عاش مائة وعشرين سنة لم تسقط له سن، وكان أحسن الناس ثغرًا. وقد انتهى من المقدمة ثم مدح النبيﷺ قائلاً[2]:

أتيتُ رسول الله إذ جاء بالهدى ويتلوا كتاباً كالمجرة نيرًا

وجاهدت حتى ما أحس ومن معي سهيلاً إذ ما لاح ثمت غورًا

أقيم على التقوى وأرضى بفعله وكنت من النار المخوفة أوجرا

وقد مدح النبيﷺ العباسَ بن مرداس بن أبي عامر بن حارثة من بني سليم بن قيس عيلان، ويكنى أبا العباس، وهو من الشعراء المجودين، وقد شارك شعره في الأحداث التي وقعت بعد فتح مكة. قدم العباس على رسول اللهﷺ المدينة عندما هم بالمسير إلى مكة عام الفتح، فواعد الرسولﷺ أن يلقاه بمن معه من قومه بقديد، وقد طلب منه النبيﷺ أن

---

(1) ارجع إلى الأغاني جـ٤/١٢٩

(2) الأغاني جـ٤/١٣٠

يلقاه هو وقومه بقديد، فلما نزل رسول الله ﷺ قديدًا لقيه بها العباس في ألف من بني سليم[1].

وقال العباس في ذلك[2]:

بلغ عبادَ الله أن محمدًا ... رسول الله راشدًا أين يمما
دعا قومه واستنصر الله ربه ... فأصبح قد وافى الإله وأنعما
عشية واعدنا قديدًا محمدًا ... يؤم بنا أمرًا من الله محكما
حلفت يمينًا برة لمحمدٍ ... فأوفيته ألفًا من الخيل معلما
سرايا يراها الله وهو أميرها ... يؤم بها في الدين من كان أظلما
على الخيل مشدودًا عليها دروعنا ... وخيلاً كدفاع اللواتي عرمرما
أطعناك حتى أسلم الناس كلهم ... وحتى صبحنا الخيل أهل يلملما

وقال في أخرى يفخر فيها برسول الله ﷺ[3]:

بذي لجب رسول الله فيه ... كعارضة تعرض للصواب

يصف النبي ﷺ في جيشه الضخم العظيم، الذي ارتفعت أصوات أبطاله واختلطوا من كثرته ، كصفحة الخد التي تظهر في الحق ، فمحمد ﷺ يتصدى للمشركين، وهو ذو جلد ورأي جيد، وصرامة، وقدرة.

ومدح الأعشى[4] النبي ﷺ، فقد سمع بظهور النبي ﷺ وسُرَّ بما علمه عن الدين الذي يدعو إليه، فعزم أن يأتي النبي ﷺ ويسلم على يديه، فمر برجال من مشركي قريش، فردوه عن ذلك، وقيل له إنه كان قريبًا من مكة فلقي رجالاً منهم، وقيل إنه كان نازلاً على أبي سفيان بن حرب، فأخبره أنه يريد رسول الله ﷺ ليسلم، فقال له: يا أبا بصير، إنه يحرم الزنا، فقال الأعشى، والله إن ذلك لأمر مالي فيه أرَب، فقال يا أبا بصير، فإنه يحرم الخمر، فقال: أما هذه فوالله إن في النفس منها لعلالات، ولكني منصرف فأتروَّى منها عامي هذا، ثم آتيه فأسلم، فانصرف فمات في عامه ذلك قبل أن يلقى النبي ﷺ ويسلم.

---

(1) الأغاني جـ١٣/٦٢،٦٣ وقد مكان في الطريق بين مكة والمدينة.

(2) الأغاني ١٣/٦٣، يلملم: مكان.

(3) الأغاني جـ١٣/٦٦،اللجب:ارتفاع أصوات الأبطال واختلاطها:أو صهيل الخيل، وذو لجب:الجيش العظيم.

(4) الأعشى: ميمون بن قيس بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن بكر بن وائل.

وقد اختلف العلماء في زمن هذه الرواية فهي تروى بمكة، وقد جاء في القصيدة أنه يريد يثرب، وقد ذكر ابن هشام أنها وقعت بمكة، واعترض بعض العلماء عليه، وقالوا إن الخمر حُرِّمت في المدينة بعد بدر في سورة "المائدة"، وأرى أن هذا حُمِل على ما كان النبي ﷺ يفعله، فقد كان عفَّاً ولا يشرب الخمر، وقد يكون ذلك من عند المتكلم؛ ليرده عن النبي ﷺ فذكر للأعشى ما يحبه فحرمه.

وقد مدح النبيﷺ بقصيدة بلغت أربعة وعشرين بيتًا، وقد وقع تقديم وتأخير في الأبيات في بعض الروايات وما ذكرناه برواية ابن إسحاق[1].

وقد يكون تحريم الخمر والزنا من قول الرجل الذي لقيه ليصرف الأعشى عنه، فذكر له بعضًا مما يحبه من أمور الجاهلية، وجاء في رواية غير رواية ابن هشام أن الأعشى لقي عامر بن الطفيل في بلاد قيس، وهو مقبل إلى رسول اللهﷺ فذكر له عامر أنه يحرم الخمر فرجع، وهذا أولى بالصواب؛ لأنه ذكر صراحة أنه يريد يثرب وتحريم الخمر كان بعد بدر في سورة "المائدة" وهي من آخر ما نزل[2].

وقد شك بعض المحدثين في صح نسبة هذه القصيدة إليه لما تضمنته من معانٍ إسلامية، وشكوا كذلك في قصائد أخرى تحدث فيها عن النصرانية، وأقاموا شكهم على أن نفسية الأعشى خلاف ما جاء في هذه القصائد من الإيمان والصلاح، وقد جاء في هذه القصيدة بعض آداب الإسلام وجاء في بعض قصائده الأخرى بعض مبادئ المسيحية، وهذا يخالف نهجه الخلقي في الحياة.، وأرى أن هذا ليس كافياً للطعن في هذه القصائد؛ لأن المسيحية كانت بالعراق والشام واليمن والحبشة، وقد كان ينزل بهذه البلاد ويتصل بمن فيها من النصارى، وما جاء في قصيدته التي مدح فيها النبيﷺ كان لا يخفى على أحد ممن سمع بدعوة النبيﷺ، فقد أصبح حديث العرب، وهو ماجعله يقبل عليه، ونحن بحاجة إلى أدلة أخرى للطعن فيها[3]. وقد قال قصيدته التي مدح فيها النبيﷺ قبل أن يلقاه وقد سمع به، وعلم من دينه ما علم وقد بدأها بمقدمة شكا فيها عينه من الرمد، وقد بات ليله يتألم مثل الملدوغ الذي مُنِعَ النوم، ليس ذلك من عشق النساء، ولا من نسيان الحبيب، فقد

---

(1) السيرة جـ١/٤١١ ، ٤١٢ .

(2) ارجع إلى: الروض الأنف جـ٢/١٢٦.

(3) ارجع إلى الشعر الجاهلي ص٣٤٢ وقد شك الدكتور شوقي ضيف في هذه القصيدة وغيرها من قصائده التي تناول فيها شيئًا من النصرانية، ولكني أرى أن خلق العبث، والمجون لا تمنعان الشاعر أن يقول شعرًا يذكر فيه الدين، وقد فعل ذلك غير شاعر في الإسلام.

ترك ذلك، ولكن الذي فعل به ذلك صُنع الدهر به، وما فقده من شبابه وماله ورفاقه فلله هذا الدهر (يشكوه إلى الله تعالى)، يقول:

ألَمْ تغتمضْ عيناكَ ليلةَ أرمَدَا ... وبِتَّ كما باتَ السليمُ مُسَهَّدا[1]

وما ذاك من عشق النساء وإنما ... تناسيتُ قبل اليوم خُلةً مَهْدَدَا[2]

ولكن أرى الدهر الذي هو خائنٌ ... إذا أَصْلَحَتْ كفَّاى عَادَ فأفسدا[3]

كُهُولاً وشباناً فقدت وثروةً ... فلله هذا الدهر كيف تَرَدَّدا

ثم ذكر بعضًا من شبابه، وحبه المال الذي طلبه منذ أن كان صبيًا ثم شابًا ثم كهلاً ثم شيخاً، وكان لا يكف عن السفر والتنقل في الجزيرة بين "النُّجَير" (موضع في حضرموت) وصَرْخَد (موضع الجزيرة) وكان يجوب هذه البلاد الواسعة بإبل بيض سريعة، يباري بعضها بعضا في السرعة.

قال[4]:

ومازلت أبغي المالَ مُذْ أنا يافعٌ ... وليدًا وكَهْلاً حينَ شِبْتَ وأمردا

وأبتذلُ العيسَ المراقيلَ تغتلي ... مَسَافةَ ما بينَ النُّجيرِ فَصَرْخدًا

وانتهى من هذه المقدمة التي جعلها مدخلاً لموضوع قصيدته، ودخل في الموضوع ممهدًا له بسؤال السائل عن مقصده ووجهته في السفر، فأخبره أنه يريد يثرب، وجعل الحديث عن ناقته.

وقد ذكر محمد بن إسحاق أنه توجه إلى مكة ليلقى رسول اللهﷺ بها[5]، وجاء في القصيدة أنه أراد يثرب، فأوقع ذلك في خلاف، وأرى أنه مر بمكة أو كان بمكة وأراد

---

(1) الأرمد: الذي يشتكي عينيه من الرمد، السليم: الملدوغ، وقيل له سليم تيمنًا بشفائه مثل قولك للمريض: صحيح أو بخير أو بعافية. وقولك تخبر بوفاة شخص: تعيش أنت! ويروى: وعادك ما عاد السليم المُسهدا

(2) الخُلَّة: الصداقة، ويرى فيه "صحبة" وهي بمعناه، ومهدد اسم امرأة كان يخاللها.

(3) يروى: كفاه.

(4) اليافع: الذي قارب زمن الاحتلام. العيس: اسم جنس، وهي الإبل البيض يخالطها حمرة. المراقيل: من الإرقال، وهو السرعة في السير. تغتلي: يزيد بعضها على بعض في السير. النجير: مكان بحضرموت من اليمن. صرخد: مكان في الجزيرة.

(5) السيرة النبوية جـ٣/٤١٣ والروض الأنف جـ٢/١٣٧

المدينة، فلما علم المشركون منه قصده صرفوه عنه، وترك الحديث عن مقصده وتكلم عن ناقته، فوصف ناقته وصفًا دقيقًا، فهي ناقة سريعة تجد في السير، فلا تنبعث في المشي ولا تعتقل فيه فتكسل، وإذا مشت في الهاجر (وقت القائلة) تلوت وخلطت في مشيها غير مستقيمة، وهي ترجع عن سيرها مثل حرباء الظهيرة، يريد أنه لا تهاب الهاجرة، ولا تتأثر بها وهي نشيطة قوية، وقد أقسم على نفسه ألا يشفق عليها من تعب حتى يلقى بها محمدًا. وترك الناقة وتحول إلى مديح النبيﷺ الكريم المعطاء صاحب الفضل فهو نبي يدعو إلى الحق والفضيلة وذكره قد ملأ البلاد فبلغ الأغوار والمرتفعات، ويعطي بسخاء ولا يمنع عطاءه أبدًا.

وذكر وصايا النبيﷺ، وهي: التزود بالتقوى والعمل الصالح والعمل للآخرة،فإنك إن عرفته يقينًا ندمت على ألا تكون مثله، فتعمل لآخرتك، وتعلم أن الموت يرصدك ومصيبك.

ألا أيُّهذا السائلي أين يَمَّمَت ... فإنَّ لها في أهل يثربَ مَوْعِدَا[1]

فإن تسْألي عَنِّي فيارُبَّ سائل ... حَفِيّ عن الأعْشَى به حيث أصعْدا[2]

أجدَّت برِجْلَيْها النَّجَاءَ وراجعت ... يداها خِفافًا ليِّنًا غير أحْرَدَا[3]

وفيها إذا ما هجَّرَت عجرفيّةٌ ... إذا خِلْتَ حِرْباءَ الظهيرة أصيدا[4]

وآليتُ لا آوي لها من كلالة ... ولا من حفى حتى تُلاقِي محمدا[5]

متى ما تُنَاخِي عند باب ابن هاشم ... تُرَاحِي وتُلْقي من فواضله نَدَى[6]

نبي يرى ما لا ترون وذكرُه ... أغار لعمري في البلاد وأنجدَا[7]

له صدقات ما تغِبُّ ونائل ... وليس عطاءُ اليوم مانعهُ غدا[1]

---

(1) يممت: قصدت، يثرب: المدينة المنورة، وكانت تسمى يثرب قبل الهجرة، وقد جاء في رواية ابن إسحاق أنه قدم مكة ليلقى النبي ﷺ فيها، وأرى أنه قد يكون قد مر برجال من مشركي مكة، فأثنوه عن الذهاب إلى النبيﷺبالمدينة، وجاء عن غيره أنه لقي عامر بن الطفيل قبيل وفاة النبي ﷺ، فقال له ذلك.

(2) خفي: مبالغ في السؤال. أصعد: ذهب.

(3) الخناف: تلوي يديها في السير من النشاط أو تميل. أجرد: مرض يصيب اليد.

(4) هجرت:مشت في الهاجرة، وهي وقت القائلة. العجرفية: تخليط في غير استقامة.

(5) لا أوي: لا أشفق عليها ولا أرحمها وروي: لا أرثي وهي بمعناها. الكلالة: التعب.

(6) فواضل: جمع فاضلة. ندى: جود، ويروى تراحي: تريحي من الراحة، ،يروى في موضع ندى: يدا، وهي النعمة.

(7) أغار: بلغ الغور، وهو انخفاض من الغور. أنجد: بلغ النجد وهو ما ارتفع من الأرض.

أَجِدَّك لم تسمـــــــع وصاة محمدٍ نبيِّ الإله حيـــــث أوصى وأشهدا
إذا أنت لـــم ترحل بزادٍ من التُّقى ولاقيت بعد الموت مـــن قد تزوَّدا
ندمت علـــــى أن لا تكون كمثله فترصد للموت الذي كان أرْصَدا[٢]

وقد علم الأعشى بعض ما حرمه الإسلام علىالناس، فقد حرم أكل الميتة، وقد كان أكل الجاهلية يخدشونها بسهم، ويدعون أنها أحلت للطعام ويأكلونها، وحرم الـذبح للنـصب أو الذبح للأصنام وحرم ما ذبح لغير الله، فقد كان أهل الجاهلية يذبحون لأصـنامهم ويطلـون رءوس الأصنام بدم الذبيحة، ونهى عن عبادة الأوثان من دون الله وحرم الزنا وأمر بصلة الأرحام وفك الأسير، وأمر بالعبادة لله ووحده وأمر بعدم السخرية من الفقير، وعدم عبـادة المال. فاحذر أكل الميتات وما خدش منها بسهم، ولا ما ذبح للأصنام ولا تعبد الأصنام بـل اعبد الله تعالى، ولا تزني بحرة إلا أن تتزوجها أو تمتنع عن ذلك، وصـل رحمـك، وفـك الأسير، وسبح الله تعالى في العشي والضحى، ولا تحمد الشيطان بل أحمد الله تعـالى، ولا تسخر من ذي فاقة أضرت به، لا تحسبن أن المال يخلد صاحبه. وهذه المحرمـات التـي ذكرها بعض ما حرمه الله تعالى على المسلمين في بدء الدعوة، ولم يأت فيها ذكر التكاليف والصوم، والزكاة والجهاد وما ذكره مجمل ما ورد في السور المكية:

فإياك والميتـــــــاتِ لا تقربنَّهَا ولا تأخذ سهمًـــا حديدًا لتفصدَا[٣]

ولا النُّصُبَ المنصـــوبَ لا تَنْسُكنَّهُ ولا تعبد الأوثـــان والله فاعبـــدا[٤]
ولا تقربنَّ حُـــــــرَّة كان سرُّها عليك حرامًا فانكحـــــنَ أو تأبَّدَا[٥]

---

(1) تغب: من أغب. النائل: العطاء

(2) ترصد: تعد

(3) تفصد: كان أهل الجاهلية يفصدون الميتة بسهم ثم يأكلها أي: يخدشها به.

(4) النُّصُب: حجارة كانوا يذبحون لها مفردها نَصْب، النسك: الدم الذي كانوا يقدمونه لأصنامهم ويطلون رءوسها به، يرد ما ذبح للأصنام، الوثن: الصنم، ويروى ولا تعبد الشيطان.

(5) لا تقربن حرة: لا تزن بها، ويروى لا تقربن جارة. سرّ: نكاح، يريد جماعها. التأبد: التعزب وترك النساء، ولهذا قيل للوحوش أوابد، وقيل معناه: ترهب، ويقال للراهب متأبدًا.

وذا الرحـــــم القُرْبَى فلا تقطعنَّه لعاقبةٍ ولا الأسيـــــــــرَ المقيّدَا[1]

وسبِّحْ على حين العشيَّات والضحى ولا تحمد الشيطان واللَه فاحمدا[2]

ولا تسخرن من بائس ذي ضَرارة ولا تحسبنَّ المال للمـــــرء مُخْلِدَا[3]

لقد ترتبت الأبيات ترتيبًا تقليديًا صار فيه الشاعر على منهج غيره من الشعراء السابقين والمعاصرين.

فبدأ القصيدة بمقدمة ذكر فيها الحبيب، ولكنه لم يستطرد في أمره كثيرا، ولكنه دخل في الموضوع، فعبر عن مرحلة القلق النفسي التي كان يعيشها، وقد ملّ الحياة وضاق بما عاناه وندم على فعله وتحسر على عمره الضائع، وكان هذا القلق دافعًا له في البحث عن الحقيقة ليقطع قلقه وحيرته،وقد استعان على رحلته الشاقة ليؤمن بناقة اقتضب في وصفها فلم يسترسل في الحديث عنها ؛ مثل غيره من الشعراء الذين أفردوا قصائد لها ، وبعضهم يجعل لها النصيب الأكبر من القصيدة.

وقصيدة الأعشى أربعة وعشرون بيتًا في ديوانه، ونقصت بيتًا في رواية ابن إسحاق، فوصف ناقته في بيتين فقط، وهي تسير سيرًا معتدلاً حثيثًا، ثم وصف سيرها في وقت القائلة، وهي تتصدى الظروف القاسية فلا تثنيها عن السير.

وقد كانت الناقة وسيلة الانتقال ، ولها أهميتها في الصحراء ، وأثرها في الحياة ، فقد كانت ثروة أهل البادية تقاس بما لديهم من النوق، لأهميتها في الحياة البدوية.

وانطلق بعد وصف الناقة الموجز في الموضوع الرئيس، وهو مدح النبي ﷺ فوصف خلقه، ثم دعوته وشهرته في العرب، وكرمه وبعض وصاياهﷺ، واستغرقت هذه الموضوعات ستة أبيات. ثم أنهى القصيدة بالحديث عن نواهي الإسلام وما حرمه على الناس، وبلغ ذلك ستة أبيات أيضًا، وهو عدد أبيات المقدمة أيضًا، والمقدمة تمثل مرحلة انفجار الشاعر وما يجيش به صدره من الشعر وعبر عن ذلك في مقدمة تمثل مرحلة الحيرة والغضب والثورة والمعاناة، وتكاد تكون المعاناة في المقدمات قاسمًا مشتركاً بين

---

(1) روى صدر البيت: ولا السائل المحروم لا تتركنه.

(2) العشي قبل المغرب، والضحى: بعد طلوع الشمس حتى الظهر.

(3) البائس:الفقير. ذوضرارة : مضطر ، والضرورة ، والضرارة بمعنى واحد، وروي ذي ضراعة، الضراعة: الذل.

الشعراء كلهم يعانون ويتألمون وتتملكهم الحيرة ولا يهدءون إلا عند آخر بيت، فقد تخلص الشاعر من كثير من أحماله التي أثقلته فأمضى إلى النهاية مستريحًا آمنًا.

ولكن خفافيش الليل عباد الظلام أضلوه، فقد نفسوا عليه (حسدوه) أن أبصر النور في الدنيا، فسوَّف رؤية النور، فباغته الموت ليقضي آخرته في حالك الظلم!

وقد أثارت هذه القصيدة جدلاً بين المحدثين، فبعضهم يشك فيها ومن أبرزهم الدكتور شوقي ضيف، ويقيم شكه على ما جاء فيها من معاني بعض آيات القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾[البقرة:١٩٧] جاء في قوله: "إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى"، وقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾[المائدة:٣] جاء في قوله: "فإياك والميتات.." وقوله: "ذا النصب.."، وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾[آل عمران:٤١] جاء في قوله: "وصل على حين العشيات والضُّحى"،وقوله تعالى:﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾[المعارج:٢٤] صاغها في قوله: "ولا السائل المحروم لا تتركنه..".، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ﴾[الحجرات:١١] قال فيها: "ولا تسخرن من بائس..." ، وقوله تعالى : ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء:٣٢]، وقوله تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾[النور:٣٣] صاغها في قوله: "ولا تقربن جارة.."وهذا النوع من المعاني في الشعر يعرف بالاقتباس، والتضمين.

ويرى الدكتور زكي مبارك أن قصيدة الأعشى ليست في درجة قصائد المديح النبوية؛ لأنه – على ما يرى ــ لم يقل هذا الشعر، وهو صادق النية في مدح الرسولﷺ، وإنما كانت محاولة أراد بها التقرب من نبي الإسلام، وآية ذلك أنه انصرف حين صرفته قريش، ولو كان صادقًا ما تحول، فقد حدثوا (يريد رواة خبر الأعشى) أن قريشا رصدوه على طريقه حين بلغهم خبره وسألوه أين يريد؟ فأخبرهم أنه يريد محمدًا ليسلم، فأفهموه أنه ينهاه عن الزنا والقمار والربا والخمر، فقال: لقد تركني الزنا وما تركته، وأبدى زهادته في القمار رجاء أن يصيب من النبيﷺ عوضًا منه، وقال عن الربا: ما دنت ولا أدنت. وأبدى جزعه عند ذكر الخمر وقال: أوه! أرجع إلى صبابة قد بقيت لي في المهراس فأشربها.

فقال له أبو سفيان: هل لك في خير مما هممت به؟ قال: وما هو؟ قال: نحن الآن في هدنة فتأخذ مائة من الإبل، وترجع إلى بلدك سنتك هذه وتنظر ما يصير إليه أمرنا، فإن ظهرنا عليه كنت قد أخذت خلفًا، وإن ظهر علينا أتيته، فقال: ما أكره ذلك. فلما كان بقاع "منفوخة" (قرية باليمامة) رمى به بعيره.

وأرى أن ما وقع للأعشى وقع لغيره من بعض المشركين، فقد همَّ الوليد بن المغيرة أن يسلم بعد أن سمع من النبيﷺ ولكن بطانته من المشركين صدوه، ومات مشركًا. وقد بذل مشركو قريش عطاء كثيرًا ليصدوا الأعشى عن الإسلام ومازالوا به حتى رجع عن قصده، والرجل لم يسلم ولم يعرف مفهوم الإسلام ولم يتذوق الإيمان فنقول إنه غير صادق في مدحه، ولكنه مثل غيره سمع عن نبي ظهر من قريش يدعو لدين جديد ويحرم عليهم بعض أمور الجاهلية وما جاء في قصيدته عن الدين ليس إلا معارف عامة يعلمها عامة من سمع بالإسلام، وما شاب عليه في الجاهلية أقوى في نفسه – وهو شيخ – مما سيعرفه في الإسلام ويقوم عليه ويرعى حرمته. والروايات المتعددة تفيد أن الأعشى قصد المدينة بعد صلح الحديبية، فقد أوقع صلح الحديبية هدنة بين محمدﷺ وبين مشركي مكة. وما جاء في القصيدة من ذكر تحريم الخمر كان في هذه الفترة فقد حرمت الخمر في سورة المائدة، وهي مدنية (وهي من آخر ما نزل من القرآن الكريم). وقد جاء ذكر "يثرب" في القصيدة، وكانت تعرف بهذا الاسم بين مشركي العرب، وهو ما ينفي عنها الوضع في الإسلام في فترة لاحقة، فقد ذهب اسم يثرب، وعرفت بين المسلمين بمدينة الرسولﷺ.

واختلاف المعاصرين في شأنها، وعدم ورود نص قديم يشكك فيها ، يجعلني أرد رأي من شك فيها حتى يتبين دليل الشك يقينًا ، ولكن الشك قام على الظن وهو لا يغني شيئًا ، والمصادر القديمة اختلفت فقط في الرواية. وقد قيل إنها لم تكن عن عاطفة دينية قوية وإنما قيلت مثل غيرها من قصائد المديح الجاهلية رغبة في التكسب، ولك أن تشك في صدقه، وأن تشك في هويته الدينية، فالرجل قالها وهومشرك لم يلق الرسولﷺ بعد وقد مدحه بما سمعه عنه وعن دينه رغبة في رضاه والتقرب منه بيد أنه لو رآه وآمن لكان شأنه غير ذلك، وهذا الأمر مسلم به، وليس من الإنصاف أن نقضي في عواطف الناس ونواياهم، وهذا أمر لا يتكشف لنا. ولم يتورع بعض المحدثين عن أن يقولوا في شعر حسان مثل ما قالوه في الأعشى، فقد زعموا أن حسان قد مدح النبيﷺ بما مدح به الجاهليين، لأن شكل القصيدة هو الشكل الذي قامت عليه في الجاهلية ومدح النبيﷺ بما مدح به ملوك الجاهلية، و هذا افتراء واجتراء وتخرص على شاعر رائد في الإسلام،

وتزعم الشعراء في الدفاع عن الإسلام، فلم يكن سهلاً أن يهدم حسان شكل القصيدة الجاهلية، وهذا الشكل يمثل أصول هذا الفن، ولا شك أن حسان تأثر بالقرآن الكريم وتمثل بمعانيه، وكان أكثر وعيا من غيره بما يريده النبي ﷺ، فقد خلص شعره من أمور الجاهلية وهذبه وجعله في جوهر موضوع القصيدة، وكان يحترس لنفسه من سقطات القول وهزله، وأعجب الرسولﷺ منه ذلك ويحثه عليه، ودعا له وأخبره أن جبريل عليه السلام يؤيده عليهم، وقد أحدث حسانﷺ تغيراً فى معانى الشعر، فقد تأثر بأسلوب القرآن الكريم ومعانيه وألفاظه، فتجاوز الوصف الحسى إلى الوصف المعنوى، فمدح محاسن الأخلاق والفضائل والآداب النبوية.

وكان يبدأ قصيدته أحيانًا بمقدمة غزلية أو بكائية ثم يتركها ساخراً، ويستخف شأنها ولا يقف أمامها طويلاً فيتركها إلى موضوع القصيدة، فقد أوجز في المقدمة وتورع عما ينافي الإسلام في المقدمة الغزلية والخمرية، وسوف نذكره لك في موضعه إن شاء الله. ناهيك عما قام به حسان رضي الله عنه من تطوير في الألفاظ ودلالاتها واقتباساته من القرآن الكريم وتأثره به، فقد وظف بعض أجزاء الآيات ومعانيها في شعره، وهذا لم يقع في شعر الأعشى إلا في قصيدته التي بين يديك، فلم تكن له صحبة في الإسلام، ولم يعرف عنه إلا ما سمعه[1].

وشكك بعض الأدباء في أشعار الأعشى التي ذكر فيها شيئًا عن النصرانية، فزعموا أنها وضعت عليه، وبعضهم نسب هذه القصائد إلى راويته يونس بن متى النصراني، فقالوا نحلها للأعشى، وكتب الأدب تذكرأن الأعشى كان نصرانيا، وذكر عنه راويته يونس بن متى أنه كان ينزل كل سنة نجران، ويسمع من أساقفتها، فكل شيء في شعره في النصرانية، أخذه منهم[2].

وقد ردوا عليه كثيرًا من شعره الديني، فزعموا فيه الوضع والانتحال، وحجتهم أن خلق الأعشى كانت علي غير ما جاء في هذا الشعر، وليس هذا بدليل فالقرآن الكريم ذكر أنهم يقولون ما لا يفعلون، وأنهم في كل وادٍ يهيمون، وأخبار الشعراء تؤكد ذلك، فكثير منهم صحت عنه أشعار في الخلاعة والمجون والفحش، وصحت عنهم أخرى في الصلاح

---

(1) شكك بعض الباحثين في قصائده النصرانية، لأن راويته في الإسلام كان نصرانيًا فزعموا أنه زاد ذلك في ديوانه، وهو يونس بن متى .

(2) الأغاني جـ١٠/١٣٦

والتقوى والإيمان. فهم يقولون ما لا يفعلون تكسبا وإغراء وادعاء، وقد يكون عجزًا، فيرضى نفسه بخياله ويترك له العنان فيفعل في الخيال ما أعجزه عنه الواقع، وفي ذلك أخبار كثيرة تؤكد كذب الشعراء﴿أَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾[الشعراء:٢٢٦].

ولقد تعرض النبيﷺ لطعنات المشركين في الخارج والمنافقين واليهود في الداخل، وقد سلمه الله تعالى منها، ومن ذلك ما تحدث به بعض المنافقين من حديث الإفك، فقد اتهموا السيدة عائشة رضي الله عنها في صفوان بن المعطل رضي الله عنه وكان المقصود من ذلك النبيﷺ. وقد برأها الله تعالى في سورة "النور". وكان حسان رضي الله عنه من الذين خاضوا في حديث الإفك الذي تحدث به بعض المنافقين في حق عائشة رضي الله عنها وقد تبرأ حسان من ذلك. وقد كان صفوانﷺ صالحاً عفاً، وقتل بعد ذلك شهيدًا، فقال حسان يعتذر مما قاله فيها:

حصَانٌ رزانٌ ما تزنُّ بريبةٍ ... وتُصْبح غرثَى من لحوم الغوافل[1]

حليلَةُ خيرِ الناسِ دينًا ومنصبًا ... نبيِّ الهدى، والمكرُمات الفَواضِل[2]

عقيلةُ حيٍّ من لُؤيّ بن غالبٍ ... كرام المساعي، مجدُها غير زائل[3]

مهذَّبةٌ قد طيب الله خِيمهَا ... وطهرها من كل سوءٍ وباطلٍ[4]

فإن كنت قد قلت الذي قد زعمْتُمُ ... فلا رفعتْ سوْطي إلى أناملي[5]

وإن الذي قد قيل ليس بلائطٍ ... بها الدّهر بل قولُ امرئ بي ماحلِ[6]

فكيف وودي ما حييت ونُصْرَتي ... لآل نبيّ الله زين المَحَافِل[7]

له رَتَبٌ على الناس كلِهمْ ... تقاصر عنه سورة المتطاوِل[8]

---

(1) حصان رزان: عفيفة ذات الثبات والوقار، تزن:تتهم، غرثى: جائعة، الغوافل: مفردها غافلة: أي أنها لا ترتع في أعراض الناس. الديوان ٣٠٣.

(2) الحليلة: الزوجة.

(3) العقيلة الكريمة، والمساعي: جمع مسعاة وهو ما يسعى فيه من طلب المجد والكرم.

(4) الخيم: الأصل

(5) الأنامل: الأطراف من الأصابع. وقد يقصد الأصابع كلها.

(6) لائط: لازق. الماحل هنا المشاء بالنميم، يقال محل به إلى السلطان أي وشى به ورفع إليه كذبًا.

(7) لآل النبي: لأنصاره وأهله وأتباعه.

(8) الرتب: ما أشرف من الأرض، استعارة للمجد الشرف. سورة: وثبة.

رأيْتكِ وليغفرْ لـــــــــك الله، حُرّةً من المحصناتِ غيــر ذات غَوائلِ[1]

ولما بلغ قولــه: وتصبح غرثي من لحوم الغوافل. قال عائشة: لكنك ياحسان ما تصبح غرثان من لحومهن[2]. لقد تجاوز حسان فى مدحه المدح الحسى الذى يقوم على المنفعة، ولم يصف الجسد، بل مدح محاسن الأخلاق، فأتى بمعانى جديدة ومنها: العفــة والرزانــة والهدى والرشاد والتقوى، والترفع عن الرزيلة والخوض فى أعراض الناس، والترفع عن المفاسد والشرور، واستخدم المفردات القرآنية نحو: حصان، محصنات، الهــدى، الطهــر، السوء، الباطل، المغفرة.

وكان عبد الله بن أبي بن سلول يقود جبهة النفاق والمعارضة في المدينة ، ويتربص بالنبي ﷺ ويكيد له، ويدس عليه من يشكك في أمره، ويوهنه.

وهو الذي أذى رسول اللهﷺ في أهله، فاتهم السيدة عائشة في صفوان بــن المعطــل رضي الله عنه، وكان برًا صالحًا، وقد شكا رسول اللهﷺ أذاه إلى قومــه الأنــصار، وقــد تحدث بقوله بعض الناس ومنهم حسان بن ثابت ﷺ، ومِسطحُ بن أثاثة وحَمْنة بنت جحش في ناس آخرين[3]. وقد برأها الله تعــالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لاَ تَحْسَبُوهُ شَراً لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[النور:١١]. وقد عفت عنه السيدة عائشة رضــي الله عن حسان، فكان يدخل عليها، وأنشدها قصيدته التي بين يديك. روى مسروق أنه قال: دخلت على عائشة وعندها حسان بن ثابت ينشدها شعرا يشبب بأبيات له فقال:

حَصَان رَزَان مـــا تزنُّ بريبة وتصبح غرثى من لُحُوم الغوافل

فقالت له عائشة: لكنك لست كذلك. قال مسروق فقلت لها: لم تأذنين له يــدخل عليــك، وقد قال الله تعــالى: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ فقالت: فــأي عــذاب أشد من العَمَى! إنه كان ينافح أو يهاجي عن رسول اللهﷺ، وفي رواية: "كان يــذب عــن رسول اللهﷺ"[4].

---

(1) الغوائل: المفاسد والشرور. الديوان ص٣٠٣ .

(2) رواه مسلم في مناقب حسان ﷺ.

(3) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حديث الإفك، وفتح الباري جـ٧/٤٩٦

(4) رواه البخاري في كتاب المغازي، باب حديث الإفك. ورواه مسلم في كتاب الفضائل، باب فــضائل حــسان بن ثابت. يشبب:تغزل، حصان: محصنة عفيفة، رزان: كاملة العقل، ورجل رزين، ما تزن:ما تتهم،من =

وروى البخاري عن عروة بن الزبير: كانت عائشة تكره أن يسب عندها حسان، وكانت تقول: إنه الذي قال[1]:

فإن أبي ووالده وعِرْضي لعرض محمد منكم وقاءُ

وهي قصيدة طويلة قالها حسان قبيل فتح مكة.

يقول حسان بن ثابت في السيدة عائشة رضي الله عنها إنها محصنة عفيفة وكاملة العقل، وما تتهم بفاحشة وتعف نفسها عن الغيبة والنميمة ولا تغتاب أحدًا، فهي جائعة فلا تشبع من أكل لحوم المؤمنات الغوافل اللائي يظنن بأنفسهن خيرًا، ولم يذكر شيئاً حسياً فى وصفها، ولم يطلب عطاءً، وقد تأثر بالقرآن الكريم، فضمن شعره ألفاظه ومعانيه، ونلاحظ فى بيته الذى ذكرناه فى مدح عائشةﷺ ومعنى عجز البيت في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ**﴾[الحجرات:١٢]. وقد أراد حسان أن يقول إنها عفيفة اللسان، ولا ترتع في أعراض الناس. وقد جاء في صحيح مسلم أنها قالت له: "لكنك لست كذلك"[2] أي لم تتورع عن أكل لحوم الناس عندما خضت في حديث الإفك، وقد تاب الله تعالى عليه. وانتقل حسان من مدح خلقها إلى مدح مكانها من رسول اللهﷺ فهي زوجته، وهو خير الناس دينًا ومكانًا، فهو النبيﷺ.

وهي من بيت كريم في قريش، ثم ذكر حسن خلقها وعفتها. واعتذر عما قيل عنه أنه خاض في عرضها، فدعى على نفسه بشل يده إن كان قال شيئًا من حديث الإفك وأنكر أن يكون قد قال شيئًا، وليس شيء مما قيل واقعًا بها، وما قيل فيّ ادعاء من مشاء بالنميمة.

وكيف أقول كذبًا في حليلة خير الناس، وودي لهم وولائي ونصرتي لآل النبي فله شرف يتطاول به على الناس، ولا يصل إليه من يتطلع إليه فأنت غفر الله تعالى لك حرة عفيفة، ليس بك سوء.

** ** ** **

= زنن: ظن، غرثى: جائعة، ورجل غرثان، يريد لا تغتاب الناس، فلا تشبع من لحومهم ولهذا فهي جائعة لامتناعها عن أكل لحوم غيرها من الغوافل.

(1) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حديث الإفك وفتح الباري جـ٧/٤٩٦

(2) صحيح مسلم،كتاب الفضائل فضائل حسان بن ثابت رضي الله عنه.

الاعتـــذار

الاعتذار أو الاستعطاف، الاستماحة وطلب العفو، وهو فن نشأ في العصر الجاهلي فـــي ظل المدح، وتتداخل فيه معاني الشكر، والشكوى، والندم، والحـــب، والـــولاء، والرجـــاء، والاستعطاف، والأمل. ويعد النابغة الذبياني صاحب أشهر قصائد الاعتذار، فقد وقع بعـــض قومه أسرى في أيدي الغساسنة بالشام، فأقبل عليهم يمدح ويتشفع فيهم، فكان ســـببًا فـــي غضب النعمان بن المنذر عليه فهم أعداءه، والنابغة شاعره الخـــاص المفـــضل، فأســـرع النابغة بالاعتذار إليه، وقال فيه أروع قصائد الاعتذار، وأشهر اعتذارات قصيدته التي قـــال فيها[1]:

أُنبئت أن أبا قابوس أوعدني ولا قرار على زأرٍ من الأسد

وقصيدته التي يقول فيها:

أتاني – أبيت اللعن – أنك لمتني وتلك التي أهتمُّ منها وأنصب

والمعتذر يلح في الاعتذار ويتذلل ويرجو، ويسترحم، ويعترف بذنبه ويقر بـــه ويأمـــل العفو ويثق في عفوه وسماحة خلقه، وأنه لن يرده، ولن يسلمه.

ويتميز هذا النوع بحسن الديباجة وقوة اللفظ ودقته وجمال الصور وابتكارها والتجديـــد فيها، ونجد للوشاة دور في الحدث، وهدف الشاعر يلقي عليهم المسئولية، ويجعلهم ســـببا في الخصام والهجر فهم الذين أوقعوا به وسعوا فيه وهو ضحيتهم. وازدهر هذا الفن فـــي الإسلام، وقيلت فيه قصائد مشهورة في الأدب العربي، وأصحاب هذه القصائد كانوا ممـــن ناصب الرسولﷺ العداء، فهجوه وتطاولوا علي المسلمين، والإسلام مستضعف، فنـــصره الله تعالى ومكن له، فأتوا إلى النبيﷺ معتذرين طالبين العفو، وألحوا في الطلب، وأخلصوا التوبة، فقبل الرسولﷺ منهم، فقد كان يقدم عفوه ورضاه على غضبه وعقابه. وعبـــروا عن صدق اعتذارهم بمدح صادق بلغوا فيه مرتقى عظيمًا، فصار مثلاً فريداً فـــي المـــدح، والصلة بين المديح والاعتذار قوية، فالأول دليل صدق على الثاني.

وتعد قصيدة كعب بن زهير أروع نموذج لهذا الفن في عصر النبوة وبعـــض الأدباء

---

(1) أبو قابوس لقب النعمان بن المنذر – ارجع إلي الأغاني جـ٧/١٥٤، ومن أشهر أبياته:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب

وقوله : فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

وهما من اعتذارته إلى النعمان.

يجعلونها مديحاً، وآخرون يجعلونها اعتذارًا، وقد جمعت بينهما، فقد اعتذر كعب رضي الله عنه عما أحدثه وقاله، ثم مدح.

اعتذار كعب بن زهير وقصيدته "بانت سعاد"

كعب بن زهير بن أبي سلمى شاعر ابن شاعر جاهلي مشهور عرف بالحكمة، وشقيق شاعر أيضًا هو بُجَير بن أبي سُلْمَى، وقد أرسل كعب بجيرًا ليستعلم نبأ النبيﷺ ويأتيه بخبره، فأسلم بجير عندما لقي النبيﷺ، فعلم كعب بإسلام أخيه، فغضب عليه وقال شعرًا أغضب النبيﷺ، فقيل: أهدر دمه، فأرسل إليه بجير يخبره بذلك وطلب منه القدوم إلى النبيﷺ والاعتذار إليه.

وقد أرسل إليه أخوه بعد منصرف النبيﷺ من غزو الطائف قافلاً إلى مكة يقول له إن رسول اللهﷺ قتل رجالاً بمكة ممن كان يهجوه ويؤذيه، وبقي من شعراء مشركي قريش عبد الله بن الزِّبَعْرَي ، وهبيرة بن أبي وهب، وقد هربا من مكة ، فإن كانت لك في نفسك حاجة فطِرْ إلى رسول اللهﷺ، فإنه لا يقتل أحدًا جاءه تائبًا، وحثه على الإسلام.

فكتب كعب إلى بُجَير يلومه على ما يدعوه إليه من القدوم إلى النبيﷺ والاعتذار والتوبة والدخول في الإسلام، وأنه لن يترك دين آبائه وأمهاته.

فأرسل إليه شعرًا جاء فيه (وهو برواية محمد بن إسحق)[1]:

ألا أبلغا عني بُجَيرًا رسالةً	فهل لك فيما قُلتَ ويحك هل لَكَا[2]
فبين لنا إن كنت لست بفاعلٍ	على أي شيء غير ذلك دلَّكا
على خلقٍ لم أُلْفِ يومًا أباً لهُ	عليه وما تُلْفي عليه أبًا لكا
فإن أنت لم تفعل فلست بآسفٍ	ولا قائلٍ إما عثرتَ لعاً لكا[3]

---

(1) ارجع إلى: شرح قصيدة كعب بن زهير في مدح سيدنا رسول الله ﷺ، جمال الدين محمد بن هشام الأنصاري، تحقيق الدكتور محمود حسن ط/ ١٤٠١هـ، ١٩٨٥م – الوكالة العامة للتوزيع. وكعب من الشعراء المخضرمين (في الجاهلية وأدرك الإسلام) – ارجع إلى الأغاني جـ١٥/١٤٠، وارجع إلى السيرة جـ٤/ ١٥٠ – ١٥٣. والقصيدة من البحر البسيط وهي عند بعض العلماء سبعة وخمسون بيتًا وعند بعضهم واحد وستون بيتًا. وقد اعتمدنا على رواية السيرة، ونقلنا شرح معاني الكلمات عن الأستاذ محيي الدين عبد الحميد .

(2) ويحك: كلمة تقال إشفاقًا وترحما لمن يحب أن لا يقع في الهلاك خشية عليه بخلاف ويلك.

(3) بأسف: أرد لست بنادم، وقوله "لعالك" هذه كلمة تقال للعاثر، يدعي له بها، ومعناها قم وانتعش، وروى: "سقاك بها المأمور "وجاء: " سقاك أبو بكر" – الأغاني جـ١٥/١٤٢، وعثرت: أخطأت في السير.

سقاك بها المأمــونُ كأسًا رويةً فأنهلك المأمونُ منهــا وعلَّكا[1]

ورواه ابن هشام على هذا النحو:

مَنْ مُبْلِغ عَنـّـــــي بُجيرًا رِسَالَةً فَهَلْ لَكَ فيما قُلْتُ بالخيفِ هَلْ لَكَا

شربْتَ مَعَ المأمــونِ كأسًا رويةً فأنهلك المأمونُ منهـــــا وعلَّكا

وخالفت أسباب الهــدى واتبعته على أي شيء وَيْبَ غيْــرَك دلَّكا

على خلقٍ لم تُلْــف أمًّا ولا أبًا عليه ولم تدرك عليـــه أخًا لكا

فإن أنتَ لم تفعل فلستُ بآسفٍ ولا قائلٍ إمـــــا عثرت لعاً لكا

وبعث بها إلى بُجير، فلما أتت بُجيرا كره أن يكتمها رسول اللهﷺ، فأنشده إياها، فقــال رسول اللهﷺ لما سمع "سقاك بها المأمون": "صدق وإنه لكذوبٌ، أنا المأمون" وذلك أنهــم كانوا يسمون رسول اللهﷺ المأمون والأمين، وروى: "سقيت بكأس عند آل محمد". ولمــا سمع "على خلقٍ لم تلف أما ولا أبا عليه" قال: "أجل لم يُلْفِ عليه أباه ولا أمه" فأرسل بجير إلى كعب ينصحه ثانية، ويدعوه إلى الإسلام، وترك أمر الجاهلية[2]:

من مبلغٌ كعبًا فهــل لك في التي تلومُ عليها باطلاً وهـــي أحزَمُ

إلى الله،لا العُزَّى ولا اللات وحْدَه فتنجو إذا كان النجـــــاء وتَسْلَمُ

لَدَى يوم لا ينجــو ولَيْسَ بمُفْلتٍ من الناسِ إلاَّ طاهرُ القَلْبِ مُسْلِمُ

فدينُ زهيرٍ وهــو لا شيء دينه ودينُ أبي سُلْمَى علـــيَّ مُحَرَّمُ

فلما بلغ كعبًا الكتاب ضاقت به الأرض ، وأشفق على نفسه ، وأرجف به من كان فــي حاضره من عدوه، فقالوا: هو مقتول، فلما لم يجد من شيء بدًّا، قال قصيدته التــي مــدح فيها رسول اللهﷺ وذكر فيها خوفه وإرجاف الوشاة به من عدوه، ثم خــرج حتــى قــدم المدينة، فنزل على رجل كانت بينه وبينه معرفة من جُهَيْنَةَ، فغدا به إلــى رســول اللهﷺ حين صلى الصبح، فصلى مع رسول اللهﷺ، ثم أشار له إلى رسول اللهﷺ فقال: هذا رسول الله فقم إليه فاستأمنه، فذُكِر أنه قام إلى رسول اللهﷺ حتى جلس إليه، فوضع يده في يده، وكان رسول اللهﷺ لا يعرفه، فقال: يارسول الله، إن كعب ابن زهير قد جاء ليستأمن منــك تائبًا مسلما، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به؟ فقال رسول اللهﷺ: "نعم". قال: أنا يارسول

---

(1) وأنهلك: سقاك النهل، وهو الشرب الأول، وعلك: سقاك العلل، والعلل: الشرب الثاني.

(2) شرح قصيدة كعب بن زهير ص٣٥، وديوان كعب بن زهير ص٤

الله كعب بن زهير. وروى عاصم بن عمر بن قتادة أنه وثب عليه رجل من الأنصار، فقال: يارسول الله، دعني وعدو الله أضرب عنقه، فقال رسول اللهﷺ:

"دعهُ عنك فإنه قد جاء تائبًا نازعًا عما كان عليه" قال: فغضب كعب على هذا الحي من الأنصار لما صنع به صاحبهم، وذلك أنه لم يتكلم في رجل من المهاجرين إلا بخير، فقال قصيدته التي قال حين قدم على رسول اللهﷺ:

بانتْ سُعَادُ فقلبي اليومَ مَتْبُولُ مُتَيَّمٌ إثرها لـم يُفْدَ مَكْبُولُ[1]

وروى أنه أقبل على النبيﷺ، وهو في المسجد، يحدث أصحابه، وهم حلقة ثم حلقة وهو ووسطهم، فيقبل على هؤلاء يحدثهم ثم على هؤلاء ثم على هؤلاء، فأقبل كعب، فتخطى الناس حتى جلس إلى رسول اللهﷺ، فقال: "يارسول الله، الأمان، قال: "ومن أنت؟ قال: كعب بن زهير، قال: أنت الذي يقول.. كيف قال يا أبا بكر، فأنشده حتى بلغ إلى قوله:

سقاك أبو بكر بكأس روية فأنهلك المأمونُ منها وعلّكا

فقال رسول اللهﷺ: "مأمون والله"، ثم أنشده قصيدته التي اعتذر فيها مدح النبيﷺ، وهي "بانت سعاد". وروي أنه لما بدأ ينشد لم يقبل النبيﷺ، لأنه بدأ قصيدته بالحديث عن سعاد، وما أصابه من حبها، وأطال في ذكرها فلما بلغ إلى قوله:

إن الرسول لسيف يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول
في فتية من قريش قال قائلهم ببطن مكة لما أسلموا زولوا
زالوا فما زال إنكاس ولا كُشُفٌ عند اللقاء ولا خُور معازيل

أشار رسول الله إلى أصحابه أن يسمعوا كعب بن زهير[2]. وقيل: إنهﷺ قال ذلك عندما قال:

لا يقع الطعن إلا في نحورهم وما بهم عن حياضِ الموت تهليل

وقيل: إنه لما وصل إلى قوله[3]:

---

(1) البين: الفراق، وبانت: ذهبت وفارقت، وسعاد: اسم امرأة، ومتبول: هالك، من التبل – بفتح فسكون – وهو الهلاك وطلب الثأر، وميتم: مبعد مذلل، ومنه سمو تيم اللات: أي عبدها، ويروى "متيم عندها لم يجز" ومعناه: ذهبت سعاد وفارقتني، وأصبح قلبي هالك فهو متعلق بها ومقيد بحبها – السيرة جـ٤/١٥٢، وشرح الديوان ص٤،٥ وشرح قصيدة كعب ص٣٤، ٣٥

(2) الأغاني جـ١٥/١٤٣

(3) شرح قصيدة كعب بن زهير في مدح سيدنا رسول الله ﷺ، تأليف جمال الدين محمد بن هشام. تحقيق الدكتور محمد حسن أبو ناجي – ط ١/١٤٠١هـ ١٩٨١م ص٣٧ وقد ذكر ذلك أبو بكر بن الأنباري.

إن الرسول لسيفٌ يستضاء به مهنَّدٌ مـن سُيُوفِ الله مسلولُ

رمى عليه النبي بُرْدَة (عباءة) كانت عليه[1]. وقيل إنه غضب من الأنصار عندما عرفوه فتواثبوا يقولون للنبيﷺ ائذن فيه. فقال: "وكيف وقد أتاني مسلمًا"، وقد كف عنه المهاجرون وسروا بإسلامه، فعرَّض بالأنصار في موضعين منها، ومدح المهاجرين. وقد فسر الأدباء بيتين في القصيدة على أنه عرض فيهما بالأنصار أولهما أنه ذكر مواعيد رجل يسمى عرقوب قيل أصله من الأوس وقيل نسبه من نسب الأنصار قال:

كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً وما مواعيـدها إلا الأباطيل

وبيته الثاني:

يمشي مشي الجمال الزهر بعضهم إذا عرَّد السـود التنابيلُ

يمدح المهاجرين، وعرض برجل من الأنصار قام إليه ليقتله فكفه النبيﷺ عنه، وقيل إنه ترك مدح الأنصار، فطلب منه النبيﷺ والمهاجرون أن يمدحهم، وقيل إن المهاجرين غضبوا وقالوا ما مدحنا من هجا الأنصار، وعوتب على ذلك[2]، فمدح الأنصار في قصدية أخرى أرجأناها إلى آخر "بانت سعاد" وأولها:

من سره كرم الحياة فلا يزل في مقنب من صالحي الأنصار

قال ابن هشام : وذُكر لي عن علي بن زيد بن جُدْعان أنه قال[3]: أنشد كعب بن زهير رسول الله ﷺ في المسجد: بانت سعاد فقلبي اليوم متبُول

وتسمى قصيدة "بنات سعاد"، وبعض العلماء يقول: "قصيدة كعب بن زهير في مدح سيدنا رسول اللهﷺ"[4]. وهي سبعة وخمسون بيتاً في رواية بن هشام في شرحه، وقد بلغت المقدمة منها سبعة وثلاثين بيتا، منها ثلاثة عشر في ذكر سعاد، ومنها عشرون في وصف الناقة، وأربعة في تخويف الوشاة كعبًا من القتل لما قاله، واعتذر إلى النبيﷺ في اثنا عشر بيتا، ومدح النبيﷺ ومن معه من قريش وغيرهم من المهاجرين في ثمانية

---

(1) جاء في بعض المصادر أن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه عرض عليه فيها عشرة آلاف درهم، فقال: ما كنت لأوثر بثوب رسول الله ﷺ أحدًا، فلما مات كعب بعث معاوية رضي الله عنه إلى ورثته بعشرين ألف درهم، فأخذها منهم، وكان الخلفاء يلبسونها من بعده في ولاية الخلافة.

(2) ارجع إلى الأغاني جـ١٥/١٤٤، والديوان ص٧٢٦

(3) السيرة جـ٤/١٦، وشرح الديوان ص٦، ٧

(4) شرح قصيدة كعب بن زهير في مدح سيدنا رسول الله ﷺ لابن هشام الأنصاري – ط دمشق.

أبيات، فالقصيدة يربطها مضمون واحد إلا المقدمة التي اتخذها الشاعر مدخلاً إلى الموضوع الرئيس، وهو الاعتذار الذي توَّجَه في آخر القصيدة بالمديح، وقد وصل الشاعر المقدمة بالموضوع، فقد أمست سعاد بأرض بعيدة صعبة، لا يصل إليها إلا ناقة عتيقة نجيبة، فانتقل من الحديث عن سعاد إلى وصف الناقة التي تحمله إليها، وربط بين الناقة وبين موضوع القصيدة الرئيسى، وهو الاعتذار الموشى بالمدح، فقد سعى الوشاة جانبي الناقة ليخبروه أن النبيﷺ سيقتله جزاء قوله، فطلب منهم أن يتركوا الناقة لسبيلها، فما قدره الله تعالى واقع به، والموت نهاية كل حيّ. وتعد المقدمة مدخلاً وتمهيدًا يهيئ المتلقي لموضوع القصيدة، وقد استرسل فيه كعب وبسط القول ليعطي المتلقي سعة من الوقت ليهدأ، ويتحول إليه، فقد دخل فلتة وأعلن عن نفسه، فأذهل الجُلاَّس، فبسط القول وسرد قصة حبه التي شقى بها، ويتودد بها إلى المتلقي، فقد ابتلى بهجر الحبيب، وبُعَد مقامه عنه، فلا يصل إليه إلا بمشقة على ناقة فتيَّة، واسترسل في وصف الناقة فوصفها وصفًا دقيقًا للمتلقي جعله يتأمل كل شيء فيها، فصرف المتلقي عن حالة الانفعال إلى حالة تأمل وإعجاب، فسرَّى عنهم بوصف الناقة. قال كعب بن زهير رضي الله عنه:

بانتْ سعادُ فقلبي اليوم مَتْبُولُ ... مُتيَّمٌ إثْرَها لم يُفْدَ مَكْبُولُ[1]

وما سُعادُ غداة البين إذ رحلُوا ... إلاَّ أغَنُّ غضيضُ الطرفِ مكحولُ[2]

هيفاءُ مقبلةً عَجْزَاءٌ مدبرَةً ... لا يُشْتَكَى قِصَرٌ منها ولا طولُ[3]

تجلُوا عوارض ذي ظَلْمٍ إذا ابتسمتْ ... كأنه مُنْهَلٌ بالرَّاح مَعْلُولُ[4]

شُجَّتْ بذي شَبَمٍ من ماء مَحْنِيَةٍ ... صافٍ بأبطحَ أضحى وهومَشْمُولُ[5]

---

(1) يقول: ذهبت سعاد حبيبتي وهلك قلبي من فراقها، فهو ذليل معبد من بعدها،ومكبل بحبها.

(2) الأغن: الصبي الصغير الذي في صوته غنة، والغنة:الصوت الذي يخرج من الخياشيم، ومعنى غضيض الطرف: فاتر الجفن، ويروى "غداة البين إذ برزت"

(3) الهيفاء: ضامرة البطن والخصر، والعجزاء: عظيمة العجيزة وهي الردف.

(4) تجلو: تصقل، والعوارض: الأسنان، و"ذي ظلم" هو الفهم، والظلم – بفتح فسكون – ماء الأسنان وبريقها، ومنهل: اسم مفعول من أنهله إذا سقاه نهلاً، والراح: اسم من أسماء الخمر، ومعلول: اسم مفعول، عله إذا سقاه عللاً.

(5) شجت: مزجت، وأراد بذي شبم الماء البارد، والشَبَم – بفتحتين – البرد، والمحنية: منتهى الوادي، ويقال: هو مانعطف منه،الأبطح:الموضع السهل،ومشمول:هبت عليه ريح الشمال،وهي عندهم ريح باردة إذا هبت.

تنفي الرياحُ القَذَى عنه وأفرَطَهُ من صَوْبِ غاديةٍ بيضٌ يَعَاليلُ[1]

يقول: فارقتني سعاد[2] وبعدت، فقلبي سقيم مضني هالك بحبها، فهو متيم بحبها ومستعبد به ذليل من بعد فراقها ، فقد صار أسير حبها ومقيداً ، يريد أنه فقد إرادته وصار أسيرها، فكأنه قد شد في كلبة سرج وهى حلقة في مؤخرة السرج، أو وضع فى رجله قيد.

ووصف سعاد فقال: كانت سعاد وقت رحيلها كالصبى الصغير في صوته غنة، وكانت فاترة النظر مكتحلة، فتركت التحديق واستيفاء النظر خجلاً، وكان ذلك خلقة بها، يريد كانت تغض بصرها فلا تمعن التحديق حياء، وهذا ما يزيد الرجل ولعاً بالمرأة.

وهذا يستحسن في خلق المرأة ، فالحياء شطر الجمال . وكان الكحل من زينة النساء تضعنه في العين . وهى طويلة القامة وليست بالقصيرة فيعاب قصرها ولا بمفرطة في الطول فتعاب به، ولها عجيزة عظيمة، وكان ذلك مستحسن عند الرجال.

فهى طويلة القامة وهى مقبلة، عظيمة العجيزة وهى مدبرة، وليست بالطويلة ولا القصير. وهي إن ابتسمت كشفت أسناناً مصقولة براقة بيضاء ذات ماء نقي (لعاب) صاف كأنه منهل، وهو الشرب الأول (وهو أكثر صفاء ونقاء) ، قد مزج بالخمر وعلله بها، وقد كانوا يخففون وطأة الخمر بالماء لثقلها وشدتها، وقد شرب أولاً ثم تعلل فشرب ثانية، والماء يشرب ثانية إن استحسن. وأصل ذلك أن الإبل إذا شربت في أول الورِد سمى ذلك نهلاً، فإذا رُدَّت إلى مشاربها سقيت الثانية، وتسمى "العَلَل" والأولى "النَهَل".

وهذه الخمر قد مزجت بماء بارد من منتهى الوادي صاف من منتهي أرض سهلة منخفضة بها رمل وحصى، هبت عليه ريح الشمال فكشفت عنه ما علا سطحه ونقته من النفايات. يريد: أنه ماء صاف نقي، تنفي الرياح ما وقع فيه الماء من تبن أو عود، وقد ملأ هذا الوادي مطر سحابة تمطر بالغدو أو بالليل ، وقد تسبب هطول المطر في رغوة بيضاء علت بالماء. أو هذا الماء صاف أزالت الرياح عنه ما به من عوالق وشوائب، وقد

---

(1) أراد بالقذى ما يقع في الماء من تبن أو عود أو غيره، وأفرطه: ملأه، وسارية: سحابة، تسري فتمطر بالليل، يعاليل: واحدها يعلول، والغدير: يريد به السيل، والحباب الأبطح، والغادية التي تمطر الغدو.

(2) سعاد امرأة يهواها حقيقة أو ادعاء، وقد كان مطلع القصيدة الجاهلية يتوج بافتتاحية غزلية أو بكائية يبكي فيها أمرًا مضى أو يذكر فيها حب امرأة وفراقها أو يرثى قتيلاً أو ميتاً أو خمرة يذكر فيها أثر الخمر، وظلت في الإسلام حتى ثار عليها بعض الشعراء (منهم أبو نواس) ، وقد اعتمدنا على شرح قصيدة كعب بن زهير لجمال الدين محمد بن هشام الأنصاري – وشرح الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد شعر سيرة ابن هشام حـ٤/١٥٣.

نزل هذا الماء سيولاً مرة بعد مرة من سحابة بيضاء تسري فتمطر بالليل فملأت مواضع الماء في الأبطح، وقال متحسراً عليها وشاكياً تنكرها لما وعدت به:

فيالها خُلَّةً لو أنها صدقتْ ... بوَعْدِها أوْ لو أن النصْحَ مقبولُ[1]

لكنها خُلَّةٌ قد سيطَ من دمها ... فَجْعٌ وَوَلْعٌ وإخلافٌ وتبديلُ[2]

فما تدومُ عَلَى حالٍ تكونُ بها ... كما تَلَوَّن في أثوابها الغُولُ[3]

وما تُمَسِّكُ بالعهد الذي زعمتْ ... إلا كما يُمْسِكُ الماءَ الغرابيلُ

فلا يُغَرَّنْك ما منتْ وما وَعَدتْ ... إن الأمانيَّ والأحلامَ تضليلُ

كانت مواعيدُ عُرْقُوبٍ لها مثلاً ... وما مواعيدُها إلاَّ الأباطيل[4]

أرجو وآمُلُ أن تدْنُو مودَّتُها ... وما إخَالُ لدينا منك تَنْويلُ[5]

وتحسر على صداقتها، وقال: ما أكرمها من صداقة ومودة (يتعجب)، لو أنها دامت وتمت على ما نريد، أو أنها قبلت نصيحتي، ولكنها أبت على فوقع الفراق، ولم تصدقني في وعدي الذي وعدت به، وهذا ما ينقصها أنها لم تصدق في وعدها.

ولكن مودتها لم تدم طويلا، وفجعت فيها بالكذب والإخلاف والتبديل، فإن هذه المرأة قد خُلط بدمها الإفجاع بالمكروه، والكذب في الخبر والإخلاف في الوعد، وتبديل خليل بآخر، وصار ذلك سجية لها، ولن يزول عنها ذلك، وهي مولعة بما هى عليه.

فليست لها حال واحدة تكون عليها، فهي تتلون في أثوابها مثل ساحرة الجن أو سَعَالي الجن (إناث الشياطين) فهي تتلون – فيما يزعمون – كل وقت، وتغول البلاد (تختلف إليها)

---

(1) ويروى: ويل أمها خلة، ويروى: أكرم بها خلة، وخلة للذكر والأنثى.

والخلة ههنا: الصديقة، يقال: هي خلتي، بمعنى صديقتي وصاحبتي، ويقال للرجل خلة أيضًا، قال شاعر الحماسة: ألا أبلغا خُلَّتي راشدًا ... وصِنوِي قديمًا إذا ما تَصِلْ

(2) سيط: تروى هذه الكلمة بالسين والشين، فأما من رواها بالسين فقد عنى أنه خلط بدمها ما يذكر بعد ذلك من الصفات، تقول: سطت الشيء أسوطه، إذا خلطته، وأما من رواها بالشين فقد أراد معنى غلي وارتفع وعلا، والولع – بفتح فسكون – الكذب.

(3) الغول: ساحرة الجن أو الواحدة من السعالي (إناس الشياطين)، وهو من خرافات الجاهلية.

(4) عرقوب: اسم رجل يضرب به المثل في خلف الوعد.

(5) إخال– بكسر الهمزة – فعل مضارع بمعنى الظن، وكسر همزة المضارعة في هذا الفعل خاصة لغة تميم من بين العرب وهو فصيح، وفتحها لغة أسد، ويروى:

أرجو وآمل أن يعجلن في أبدٍ ... وما لهن طوال الدهر تعجيل

وتهلك من تشاء، وهذا من متعقدات الجاهلية. ولا توفي بعهد وعدت به، فتخلف وعدها وتبدده، فهي في عهودها كالغرابيل لا تمسك الماء، فهي لا تتمسك بعهدها.فلا تنخدع بأمانيها ولا بوعودها فأمانيها وأحلامها معك خداع. وصار مواعيد عرقوب مثلاً لها بين الناس لشهرة اتصافها بالإخلاف.

وعرقوب: رجل يضرب به المثل في خلف الوعد، وقيل هو رجل من العمالقة، يسمى عرقوب بن صخر، وقيل هو من الأوس، وقد وعد أخًا له ثمرة نخلة، وقال: ائتني إذا طلع النخل، فلما أطلع قال: إذا أبلح، فلما أبلح قال: إذا أزهي، فلما أزهي، قال: إذا أرطب، فلما أرطب قال: إذا صار تمرًا، فلما كان تمرًا جذَّه من الليل ولم يُعْطه شيئًا، فضربوا به المثل من الإخلاف. فقالوا أخلف من عُرْقُوب.

ورأى بعض العلماء أنه من الأوس فذَكَرَه يعرض بالأنصار؛ لأنهم قاموا عليه عندما عرفوه يريدون قتله، ومن ذهب إلى هذا الوجه قال إن العماليق قد نزل جماعة منهم يثرب، ومنهم يثرب بن عبيد، وعرقوب منهم، وقد كان يرجو أن تحسن مودتها ويأمل ذلك منها، ما بقي من عمره، فقد كان يرجو أن تفي بما وعدت وما أظن أنها ستوده أو تدنوا مني، وجاء في رواية أخرى أنه عمم الحكم فجعلهن لا يصدقن طوال عمرهن.

ويسمى هذا في البديع الترجيع، فقد قرر أنها ستوده ثم عاد على ما قرره بالنقض، فهو يرجوا مودتها، ولكنه لن ينل منها شيئًا، فرجا شيئًا وظن خلافه.

وانتقل إلى الحديث عن الناقة التى تحمله إلى المكان الذى نزلت به سعاد، فوصف الناقة ومشقة الرحلة وقدرة الناقة على اجتياز هذه الظروف القاسية. فقال:

أَمْسَتْ سُعَادُ بأرضٍ لا يُبَلغُها ... إلاَّ العِتَاقُ النَّجيبَاتُ المراسيلُ[1]

ولن يُبلِّغَهَا إلا عُذافِرةٌ ... لها على الأَيْنِ إرْقَالٌ وتبْغيلُ[2]

من كلّ نضَّاخَةِ الذِّفْرَى إذا عَرِقَتْ ... عُرْضَتُها طامِسُ الأعْلاَمِ مجهولُ[3]

---

(1) المراسيل: السريعة، النجيبة: الكريمة، العتيق: الكريم أو حسن أو رائع.

(2) العذافِرة – بضم العين وبعد الألف فاء مكسورة –: الناقة الضخمة، والأين: الفتور والإعياء، والإرقال: مصدر أرقل، وهو ضرب من السير، ومثله التبغيل وهو مشي يشبه سير البغال لشدته.

(3) نضاخة: تروى هذه الكلمة بالحاء المهملة وبالخاء المعجمة، وهي التي يرشح عرقها، وبعض أهل اللغة يجعل النضخ بالمعجمة أكثر من النضح بالمهملة ورأى ابن جنى أن النضخ فوران الماء من أسفل مندفعاً عن قوة، قال تعالى: (فيهما عينان نضاختان) والذفرى – بكسر الذال وسكون الفاء – عظم في أصل الأذن، ويقال: هي نقرة خلف الأذن، وهي أول ما يعرق من البعير، وعرضتها: همتها، وهو من قولهم:=

ترمي الغيوب بعيني مُفْرَدٍ لهقٍ إذا توقَّدت الحـــزَّانُ والميـلُ[1]
ضَخْمٌ مُقَلَّدُهَا فَعْـــمٌ مُقَيَّدها في خَلْقِهَا عن بناتِ الفَحْلِ تفصيلُ[2]

وشكا فراقها فقال: لقد صارت بأرض بعيدة، فوصف أرضها بالبعد ولا يصل إليها إلا ناقة ماهرة فتية، وذكر ما يتصل بذلك من وصف الناقة.

ولن تستطيع الوصول إليها إلا نوق عتاق أو ما يبغلها شيء إلا نوق كريمات حسناوات ذوات سرعة وعدو. وهذه الأرض لا يبلغها إلا ناقة صلبة عظيمة سريعة العدو، من صفتها أنها إذا أعيت وكلت من السير سارت إرقالاً (ضرب من السير أو نوع الخبب)، وتبغيلاً (ضرب آخر من السير يشبه سير البغال لشدته)، فما ظنك بها إن لم تكلّ؟ وهى ناقة فوّارة العرق من النقرة التي خلف أذن الناقة، وهى أول ما يعرق منها إذا عرقت، وهى جلدة للسفر قوية تجتاز الطريق إذا طمست علامته، فهمتها طريق طامس الأعلام.

وإن هذه الناقة تقدر على السفر قوية عليه،وتطيقه، فتقطع الطريق المجهول وترمي ما ارتفع وانخفض بعينين مثل عيني ثور شديد أبيض إذا اشتدت الأرض الغليظة الصلبة أو اشتدت أعلام الطريق أو معالمه أو اشتدت عقد الرمل الضخمة؛ وإن هذه الناقة تشبه في وقت توقد الأرض عيون الثور الوحشي الفاقد لابنه في حدة النظر وحدة الجسم والنشاط. وهي ضخمة العنق، وممتلئ موضع التقييد منها، وهو من الرِّجل، وهي مفضلة من بين بنات الفحل، وقال مسترسلاً فى الوصف:

غَلْباءُ وجْنَاءُ عُلْـــكومٌ مذكَّرةٌ فـــي دفِّها سَعَةٌ قُدَّامها مِيلُ[1]

قولهم:= = بعير عرضة للسفر: أي جل عليه قوى، وطامس: متغير، والأعلام: العلامات التي تكون في الطرق يهتدي بها، وأراد أنه ليس بها علم.

(1) الغيوب: جمع غائب، مثل شاهد وشهود، وحاضر وحضور، ويرى في مكانه "النجاد:"وهو جمع نجد، وهو ما ارتفع وعلا وقوله "بعين مفرد" أراد بعيني مثل عيني ثور مفرد، وهو الذي انفرد في الصحراء، ولهق: هو شديد البياض، وهو فتح اللام، وهاؤه مكسورة أو مفتوحة، مثل: أبيض يقق ويقق، والحزان، جمع حزيز، وهو المكان الغليظ الصلب، والميل: جمع أميل أو ميلاء، ويقال: الميل هو العلم الذي يبنى على الطريق، ليعرف المسافر الطريق.

(2) المقلد مكان التقليد، وهو العنق، وفعم: أي ممتلئ، ومقيدها: موضع التقييد منها وأراد به الرجل.

وجِلْدُها مـــــن أَطُومٍ ما يؤيِّسُهُ ... طِلْحٌ بضَاحيةِ المَتْنيــنِ مَهْزُولُ[٢]

حَرْفٌ أخوهاَ أَبُوها مِــنْ مُهَجَّنَةٍ ... وعَمُّهَا خَالُها قـــودَاء شمليلُ[٣]

يمشي القُرَادُ عليهـــا ثم يُزْلِقُهُ ... منها لَبَانٌ وأقـــرابٌ زهاليلُ[٤]

عَيْرانةٌ قُذِفَتْ بالنَّحْضِ عن عُرُضٍ ... مرفقُها عن بنات الزَّورِ مفتولُ[٥]

كأنَّما فاتَ عَيْنَيْهَـــا ومَذْبَحهَا ... من خَطْمِهاَومن اللَّحَيينِ برطيلُ[٦]

تَمرٌّ مثلَ عَسيبِ النخل ذا خُصلٍ ... في غارزٍ لـــم تخوَّنه الأحاليلُ[٧]

---

(1) الغلباء: الغليظة الرقبة، والوجناء: عظيمة الوجنتين، والعلكوم:الشديدة، ومذكرة: يريد أنهـــا فـــي عظـــم خلقها تشبه الذكر من الأباعر، والدف – بفتح الدال وتشديد الفاء – الجنب، وقد أقـــام هنـــا الواحـــد عـــن المثنى، فهما جنبان، وقوله "قدامها ميل" وصف لها بطول العنق.

(2) يريد أن جلدها قوي شديد الملاسة لسمنها وضخامتها، فالقراد المهزول من الجو لا يثبت عليها ولا يلزق بها، والأطوم: هي الزرافة أو السلحفاة البرية، شبهها بإحداهما في الملاسة، ويؤيـــسه : يذلـــه ويـــؤثر فيه، والطلح – بكسر الطاء وسكون اللام – القراد، والضاحية: البارزة الظاهرة، وأراد بالمتنين ما اكتنـــف صلبها عن يمين وشمال من عصب ولحم، ومهزول: صفة الطلح.

(3) الحرف في الأصل حرف الجبل، وهو القطعة الخارجة منه وشبه الناقة به في الصلابة، أو الحـــرف هـــو حرف الخط وشبه به الناقة في الهزال والضمور، فهذه الكلمة تحتمل هـــذين المعنيـــين، وأبوهـــا أخوهـــا، وعمها خالها يريد بهذه العبارة أنها مداخلة النسب في الكرم، فلم يدخل في نسبها أجنبي، والهجنة – بضم فسكون – ههنا – غلظ الخلق كغلظ البراذين، والناقة مهجنة: أي كريمة، والهجين: الكريم من الإبل، ومعه هجائن، والقوداء: الطويلة الظهر والعنق، والشمليل – بكسر فسكون – السريعة.

(4) هذا البيت في معناه تأكيد لقوله فيما سبق "وجلدها من أطوم" واللبان – بفتح اللام – والأقراب: الخواصـــر واحدها قُرْب – بزنة قُفْل وجُمْل – وزهاليل: صفة لأقراب ولبان معا، وهـــو جمـــع زهلـــول، وهـــو بزنـــة عصفور، الأملس الناعم.

(5) عيرانة: يريد أنها تشبه العير في شدته ونشاطه، والعير: حمار الوحش، والنحض – بفـــتح فـــسكون – اللحم. وأراد من أنها قذفت به أنها ممتلئة الجسم منه، ويقال: امرأة نحيضة؛ إذا كانت عبلة ضخمة كثيـــرة اللحم، والعرض – بضم العين المهملة والراء – الجانب والناحية، الزور – بفـــتح فـــسكون – الـــصدر أو وسطه أو أعلاه، وبنات الزور: ماحوله وما يتصل به من الأضلاع، ومفتول: مدمج محكم.

(6) قال محمد محيي الدين: وقع هذا البيت متأخرًا في بعض النسخ عن البيتين التاليين له، وآثرنـــا ترتيـــب هذه النسخة لموافقتها لرواية ابن هشام الأنصاري في شرحه لهـــذه اللاميـــة، وفـــات: تقـــدم، ومـــذبحها: منحرها، وهو مكان المذبح، والخطم – بفتح فسكون – الأنف، واللحيان – بفتح فـــسكون – مثنـــى لحـــي، وهو الحنك، والبرطيل – بكسل فسكون – معول من حديد، وهو أيضاً حجر مستطيل؛ يصفها بكبر الرأس.

(7) عسيب النخل: جريده الذي لم ينبت عليه الخوص، فإن نبت عليه سمى سعفًا، الخصل – بـــضم ففـــتح – جمع خُصْلة – بضم فسكون – وهي اللفافة من الشعر، وأراد بمثـــل العـــسيب ذنبهـــا، والغـــرز: أراد بـــه ضرعها، وتخونه: تنتقصه، والأحاليل: جمع إحليل، وهو بزنة قنديل مخرج البول.

وهي غليظة الرقبة عظيمة الوجنتين تشبه في خلقها الذكر من الأباعر، وفي جانبي عنقها سعة، يصفها بطول العنق وغلظها. وجلدها قوي شديد الملاسة لسمنها وضخامتها، فلا يستطيع القراد المهزول من الجوع أن يثبت علي جانبيها ولا يلزق لملاستهما واكتناز اللحم بهما، والمتنان متنى ظهرها، وهما ما اكتنفا صلبها في الظهر. وهي مثل حرف الجبل في القوة والصلابة، أخوها يشبه أباها في الذكر وعمها يشبه خالها في ذلك أو هي من إبل كرام فبعهضا يحمل على بعض فليس في نسبها دخيل، وفحفظ نوعها، وهي من كرام الإبل عظيمة الخلق، وهي طويلة الظهر أو العنق، وخفيفة سريعة. ويمشي القراد على جلدها لاستوائه، فيزلق ولا يثبت لسمنها وملاسة جلدها، ويزلق من الصدر والخواصر لملاستهما، وقد شد الجلد عليها لسمنها. وهي تشبه العير (حمار الوحش) في شدة نشاطه كأنها قذفت به فنسبت إليه لامتلاء جانبيها ومرفقها من أعلاه مدمج محكم، أو أن مرفقها جافٍ عن صدرها. إنها تشبه العير لصلابتها، وامتلأت أعراضها لحمًا، فهي لم تجلب فهي تامة الخلق لم ينقصها الحلب، ومرفقها من عند الأضلع المقدمات من الزور مفتول. ووصفها بكبر الرأس وعظمه، فقال: كأنما تقدم معول من حديد عينيها ومنخرها من الموضع الذي يقع عليه الفطام والعظمين اللذين تنبت عليهما اللحية أو أن ما تقدم هذه الأماكن حجر مستطيل يكنى به عن عظم رأسها. وهي في سيرها تمر سهلة مثل مرور عسيب الجريد الذي لم ينبت عليه الخوص فى ضرع ليس به لبن، فضرع الناقة الممتلئ يعوقها عن الحركة، ولم يضعفها الحمل والولادة والحلب، وهذا الضرع لم تنتقصه الأحاليل (أي فتحات الضرع) يريد أنها لا تحلب، وذلك أقوى لها على السير، أو نفي الضعف عن الناقة بنفيه عن ضرعها، فالضرع قد لا يمسك ما فيه فيسقط مع الحركة، وقال:

قَنْواءُ في حُرَّتَيْهـــا للبَصيرِ بِهَا عِتْقٌ مُبينٌ في الخدَّين تَسْهِيلُ[1]

تخدِي عَلَى يَسَرَاتٍ وَهْيَ لاحقـــةٌ ذَوَابِلٍ مَسُّهـــنَّ الأرضَ تَحْلِيلُ[2]

---

(1) القنواء: المحدودية الأنف، والحرتان: الأذنان، ويروى بدل قنواء "وجناء" وهي صلبة الوجنة، ومعنى "في حرتيها للبصير بها عتق" أن من رأى أذنيها عرف عتقها وكرمها، وقد وقع هذا البيت متقدمًا على البيتين قبله مع أن البيت الذي أوله "تمر"متأخر عن البيت الذي أوله "كأنما فات..ألخ". وقد تقدم هذا البيت على ما قبله في بعض الروايات.

(2) تخدي: تسرع، وروى في مكانه "تهوي"، والمعنى واحد، واليسرات: قوائمها، يريد أنها تسح السير بها كلها، واللاحقة: الضامرة الخفيفة اللحم، وذوابل: جمع ذابل، وهو اليابس: وإذا كانت القوائم قليلة اللحم لم تكن رهلة ولا مسترخية، وذلك أنشط لها وأقوى لسيرها، وقوله: "مسهن الأرض، تحليل" إشارة إلى سرعة رفعها قوائمها، يعني أنها إنما تمس بقوائمها الأرض قليلاً كمن يتحلل من يمين.

سُمْرِ العُجَايات يَتْرُكْنَ الحصَا زِيَماً لم يَقَهِنَّ رُؤُسَ الأُكْـــمِ تَنْعِيلُ[1]
كأنَّ أوبَ ذِرَاعَيْـــــهَا إذا عَرِقَتْ وقد تلفَّعَ بالقُـــــور العساقيـلُ[2]

يومًا يظلُ بهِ الحِرْبَـاءُ مُصْطَـخِدًا كأنَّ ضاحِيهُ بالشَّمْـسَ مملـولُ[3]

وقَالَ للقوْمِ حَادِيهِـــمْ وقد جَـعَلَـتْ وُرْقُ الجنادِبِ يركُضْنَ الحَصَا قِيلُوا[4]

يقول: وفي أنفها احديداب ومن رأى أذنيها عرف عتقها وكرمها، وفي الخدين سـهولة وانبساط. وروي أن النبيﷺ لما سمع هذا البيت قال لأصحابه: "ما حرتاها؟ فقال بعـضهم: عيناها، وسكت بـعض، فقالﷺ : هما أذناها". ومعناه: إذا نظر البصير بالإبل إلـى أذنيها وسهولة خديها بان له كرمها.

وهى تسير"تخدي"(ضرب من السير سريع) على قوائمها جميعًا، بيد أنها تحسن الـسير بقوائمها كلها، وهي ضامرة خفيفة، فمس قوائمها الأرض سلسًا سهلاً، وهو إشـارة إلـى

---

(1) العجايات – بضم العين المهملة – ومثله العجاوات: جمع عجاية أو عجاوة، وهي لحمة متصلة بالعـصب المنحدر من ركبة البعير إلى الفرسن، وزيم – بكسر الزاي وفتح الياء – هو المتفرق، يريـد أنهـا لـشدة وطئها الأرض تفرق الحصى وراءها، والأكم – بضم الهمزة وسكون الكاف – محفف مـن الأكـم– بـضم الهمزة والكاف جميعًا – والأكم: جمع إكام – بزنة كتاب وكتب – والآكام: جمع أكم – بزنة جبل وجبـال – والأكم: جمع أكمة، وهي ما ترفع من الأرض.

(2) قال الأستاذ محمد محيى الدين: وقع هذا البيت في بعض النسخ متأخراً عن البيتين التـاليين لـه ههنـا، وآثرنا ترتيب هذه النسخة لما ذكرنا قريبا، والأوب: مصدر آب بمعنى رجع، وتلفع: التحف، والقور: جمـع قارة، هي الجبل الصغير، العساقيل: السراب، قال الجوهري: لم أسمع بواحده، يريد أن يشبه رجوع ذراعي ناقته في وقت الهاجرة، عند اشتداد الحر وانتشار السراب فوق صغار الجبال، بذراعي عيطـل، وسـيأتي بيان المشبه به في بيت آخر، وهو خبر كأن الواقع في صدر هذا البيت.

(3) الحرباء – بكسر فسكون – ضرب من العظاء، وهو حيوان بري له سنام كسنام الجمل يستقبل الشمس، ويدور معها حيث دارت ويتلون ألوانا، ويقال: هي أم حبيش، وقوله "مصطخدًا" أي مصطليًا بحر الـشمس، ويروى في مكانه"مرتبئًا" أي مرتفعاً، وضاحيه: ما برز منه للشمس وظهر، ومملول: محروق، أصله مـن الخبز المليل أو المملول، وهو المصنوع في الملة، وهو بفتح الميم وتشديد اللام الرماد الحار.

(4) الحادي: الذي يسوق الإبل، والورق: جمع أورق، وهو الأخضر إلى سواد، ويروى في مكانه "يقع"، وهـو جمع أبقع، والأبقع: الذي فيه ألوان، ومثله الأرقط، والجنادب: جمع جندب، وهو ذكر الجـراد، ويركـضن الحصى، يدفعنه، وقيلوا: فعل أمر من قال يقيل إذا استراح وقت القيلولة، وهو مقول القول الـذي فـي أول البيت.

سرعة رفعها قوائمها على الأرض، فهي تتحلل من قسمها بمس الأرض، إشارة إلى سرعة عدوها ولطف مسها الأرض وعلى أرجلها جلد أسود من الركبة إلى الظفر، وذلك من كثرة السير وما تلاقيه من الطريق، أو قوائمها سوداء من أثر السير، وهي تفري الحصا بأرجلها فتفرقه من شدة العدو.

يريد أنها تفرق الحصى بشدة، وطئها الأرض ولا تحفي في سيرها فتفتقر إلى النعل، فالخف لا يتأثر بالأرض. لم يق أرجلها التنعيل: رءوس الأكم، فأرجلها لا يحتجن أن ينعلن لأنهن غلاظ، وأرجلها سمر يتركن الحصى متفرقاً، ولا يحتجن نعالاً لقوتهن. ورجلاها الأماميتين ترمي الحصى خلفها من شدة السعي في وقت الهاجرة والحر الشديد، وقد عرقت ذراعاها الأماميتان، وهما تشدان في الأرض وتواجهان الحر الشديد مثل الحرباء القائم من الحر منتصبا، وقد اسود جانبه الذي يواجه الشمس.

وقيل: يريد أن يشبه ذراعي الناقة في شدته بالحرباء التي تمسك بجزع الشجرة وتقف في وجه الشمس تستقبلها، فتدور معها وتتلون ألوانًا بحر الشمس، ويضرب بها المثل في الحزامة، لأنه يلزم ساق الشجرة فلا يرسله إلا ويمسك ساقًا أخرى، فيقف الحرباء يتصدى الشمس وكأن ما برز للشمس وظهر منه محروق. ومعنى البيتين معًا لاتصالهما: أن الأماكن العالية تلفعت بالسراب في يوم يظل الحرباء فيه يستقبل الشمس وكأن ما بزر منه للشمس محترق من شدة الحر.

ويقول الحادي (سائق الإبل) لمن في القافلة ــ وطوال الجراد يدفعن الحصى من شدة الحر – استريحوا وقت القيلولة لمشقة السير في الحر. يريد أن ناقته لا تكف عن السير في الهاجرة والقيلولة. واستطرد فى ذكر مشقة الرحلة ومعاناة الناقة وقدرتها على مواجهة مشقة السفر، فقال:

شدَّ النهار ذراعاً عَيطْلَ نَصَـف ... قامتْ فجاوبها نُكْدُ مثاكيـــلُ[1]

نوَّاحةُ رخْوةُ الضَبْعَينَ ليس لها ... لمَّا نعى مكرَها الناعونَ معقولُ[2]

تَفْرِى اللبَانَ بكفيها ومدرعُهـا ... مُشَقَّقٌ عن تراقيها رَعَابيـــلُ[1]

---

(1) عيطل: الطويل، النصف: بين الذى بين الشابه والكهلة، نُكْد: جمع نكدى: وهى الناقة التى لا يعيش ولدها. والمثاكيل: جمع مثكال: التى فقدت ولدها.

(2) نواحة: كثيرة النواح، وهى التى تبكى ولدها، الضبعين: متنى الضَبْع: العضد، المعقول: العقل.

يقول: كانت تسعى، وقد ارتفع النهار واشتد حره، وهى لا تكف عن السير، وكأنها وهى تسرع لها ذراعان طويلان، فتمشى مثل الناقة التى بين الشابة والكهلة (يشبه ذراعيها بذراعى المرأة التى تلطم لما فقدت ولدها، وجاوبها نساء فقدن أولادهن، فزاد ذلك من شدة حزنها ولطمها)، يريد بذلك سرعة عدو الناقة. وهى المرأة كثيرة النواح وقد ظهر عضداها، وهى تنوح وتجاوبها النائحات على بكرها الذى فقدته، وقد فقدت عقلها لشدة حزنها على ولدها؛ فخمشت وجهها وشققت صدرها بأظافرها ودقته، يريد بذلك حال الناقة وهى مسرعة.

وتحول الشاعر من الحديث عن الناقة وماعانته فى رحلتها إلى مقصده الرئيسى، وهو الاعتذار، فترك سعاد والناقة ومشقة الرحلة، وتحول إلى معاناة أخرى، فقد ابتلى فى رفاقه الذين تنكروا له لسوء سوابقه وما قاله فى الإسلام، وهو مشرك، فقال:

تسعى الغُوَاة جنابَيْها وقولهمُ إنك يا ابن أبى سُلْمَى لمقتول[٢]
وقال كل صديق كنت آملـــــه لا ألهينَّك إنى عنك مشغول[٣]
فقلت: خلوا سبيلى لا أَبَا لكم فكل ما قدر الرحمن مفعولُ[٤]
كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلة حدباء محمول[٥]

دخل الشاعر إلى موضوع القصيدة الرئيسى، وهو الاعتذار، فذكر دور سعاية الوشاة وتخذيلهم إياه وشماتتهم به، وإلحاحهم عليه وتخويفهم إياه، وهم أول من استقبله، فلم يجدهم مرحبين بل وجدهم مخوفين ومخذلين وشامتين، فلم يعبأ بهم، وقد ذكر الوشاة، ليجد رد فعل حسن ولطف به ورفق، فذكر ذلك يستشفع به فى اعتذاره، فالشاعر العربى كان يشكو ذل الفقر وقسوة الحياة وإهمال الناس لينال هبات السادة، وكان يتوسل بما وقع عليه من ظلم ليجد معيناً ، وقد ذكر كعب مرارة الهجر ومشقة السفر وسوء مقابلة الوشاة، ليكونوا شفعاء فى اعتذاره.

---

(1) تفرى: تقطع، اللبان: الصدر، المدرع: قميصها، مشقق: شقوق كثيرة، التراقى: جمع ترقوة، عظام الصدر التى عليها القلادة، رعابيل: قطع.

(2) الغواة (وفى رواية: يسعى الوشاة): تسعى: أوشى به، والغواة: جمع غاوٍ، والوشاة: جمع واشٍ.

(3) لا ألهينك: لا أشغلك عما أنت فيه، أى: تعهد نفسك دون معونتى لك.

(4) لا أبا لك: دعاءه عليه، يراد به التوبيخ.

(5) حدباء: يراد به النعش الذى يحمل عليه الموتى.

وقد تخلى عنه الجميع، وتركه من كان يرجوا وساطته، وقال له لا أغنى عنك شيئاً، فاعتن بأمر نفسك وقم لحاجتك وحدك، فإنى فى شغل من أمرى، فلم يجد معيناً ولا مجيراً، وقد توصل إلى حقيقة من عيون الحكمة أن الموت نهاية كل حى، فلا يخشى عاقبة الأمر الذى أقدم عليه، فكل ما قدره الله تعالى يكون، ولا مفر من قدره، وهذا يؤكد حسن اعتقاده وسلامة عقله ورغبته فى الإيمان خلافاً لمن زعم أنه اعتذر خشية القتل، وهو إلمحاح من بعيد إلى استقطاب المشاعر والرغبة الشديدة فى الاعتذار، وصدَّر اعتذاره بما أخبر به من أن رسول الله ﷺ توعده بالقتل وقد قدم عليه معتذراً طمعاً فى عفوه.

قال:

نُبِّئْتُ أَنَّ رسول الله أَوْعَدَنـــــى ... والعَفْوُ عِنْدَ رسول الله مأمُـولُ[1]

مهلاً هداك الذى أعطاك نافلة الـ ... ـقرآنِ فيها مواعيظُ وتفصيـل[2]

لا تأخذنى بأقوال الوشاةِ ولـــم ... أذنب ولو كَثُرَتْ فىَّ الأقَاوِيـل[3]

لقد أقوم مقاماً لو يقوم بـــه ... يرى ويسمع ما قد أسمع الفيل[4]

لظل يرعد إلا أن يكون لـــه ... من الرسول بإذن الله تنويـل[5]

ما زلت أقتطعُ البيداء مُدَّرِعـاً ... جُنْحَ الظلام وثوبُ الليل مَسْدُول[6]

حتى وضعت يمينى ماأنازعهـا ... فى كفِّ ذى نَقَمات قيلُهُ القيـل[7]

فلهو أخوف عندى إذ أكلمـه ... وقيل إنك منسوب ومسئـول[8]

المعنى: أخبرت أن النبى ﷺ أوعدنى بشر لسوء فعلى، وبنى الفعل للمجهول فلم يعين المخبر، ليستعطف النبى ﷺ فعمى المخبر ليجد العفو، وقابل الوعد بالعفو عند الرسول ﷺ وذكر الرسول ﷺ للتعظيم، ولتقوية الرجاء، فالناس تعلم حسن خلقه وتقديمه العفو على العقاب، لما يتمتع به من سماحة ورحمة جبل عليها.

---

(1) يروى: أنبئت: أخبرت خبراً صادقاً، الإيعاد يكون بالشر وبالخير.

(2) مهلاً: اسم فعل بمعنى لا تعجل على أو أرفق بى، نافلة: عطية وهبه زائدة.

(3) الواشى: الذى يسعى بالوقيعة بين الناس، أو الذى يزوق الكلام.

(4) وروى: أرى وأسمع ما لو يسمع الفيل.

(5) روى: لظل ترعدُ من وجد بوادره. والبوادر: اللحم الذى بين العنق والكتف.

(6) روى: وثوب الليل مسبول. أى مسدل طويل مرخى.

(7) روى: حتى وضعت يمينى ماأنازعه: ونَقَمات مفردها نقمة وهو الغضب الشديد.

(8) روى: لذاك أهيب عندى إذ أحكمه.

فقال للنبىﷺ: لا تعجل علىّ وارفق بى، فقد أنزل الله تعالى عليك نوراً مبيناً مفصلاً تعظ به وترشد إلى الحق، وهذا البيت يستعطف فيه النبىﷺ، ويطلب الرفق به والأناة فى أمره، ويدعو الله تعالى له بالهدى الذى يقتضى الصبر عليه، واعترف بما فى القرآن الكريم من هدى ومواعظ وبيان للناس، وهذا دليل على صدق رغبته فى الإسلام واقتناعه به.

وسمى القرآن الكريم نافلة أى زيادة فى الفضل والإحسان، فقد أعطاه الله تعالى فضلاً عظيماً وزاده فضلاً بالقرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾[الأنعام:١٥٤] أى زيادة على العلم الذى أحسنه وأتقنه[1].

وفى القرآن الكريم تفصيل لكل شيء، فيبين للإنسان ما يحتاجه من أمرى المعاش والمعاد.

وتضرع كعب إليه فقال: لا تعاقبنى بما سعى به الناس إليك عنى أننى ذكرتك بسوء، فلا فلا تستبح دمى بأقوال من يزوّق الكلام ويزيد فيه قصداً للإفساد، ولم أرتكب ذنباً، ولم أفعل ما ادعوه، فلا تعتد بقولهم وإن كثرت فىّ الأقوال.

وقد صرت فى موقف صعب أمامك لما أنا فيه ضيق واتهام، فإنى فى موقف لا يقدر عليه من له قوة، فالفيل الذى عرف بالقوة لا يقدر على تحمله، فلو كان فى موقعى هذا لأصابه هلع شديد ورعده حتى يصفح رسول اللهﷺ ويرضى فيسكن.

وقد قطعت طريقاً صعباً طمعاً فى عفوه وقد جئت مبايعاً معاهداً عهداً لا إقالة، فقد وضعت يمينى فى يمينه وضع طاعة وهو أشده هيبة وتوقيراً فى قلبى وأنا أكلمه، وقد قيل لى إنك مسئول عما فعلت، وروى: "لذاك أهيب عندى إذ أكلمه"، وقد أعرب عن مقصده الحقيقى الذى مهد له بما سبق من الغزل والوصف والمدح، فقد ذكر أنه قطع الرحلة الطويلة إلى النبىﷺ وليس إلى سعاد، وأن الناقة الفتية القوية قطعت رحلتها الشاقة مسرعة دون توقف ليصل بها إلى النبىﷺ.

وانتقل من الاعتذار إلى مدح الرسولﷺ بالشجاعة فقال:

---

(1) ارجع إلى شرح قصيدة كعب ص ٢٧٣.

من ضَيغَم بضرَّاء الأرض مخدَرةُ فى بطن عَثَّرَ غِيلُ دونــه غِيلُ[1]

يغدُو فيُلْحمُ ضِرغَامَينِ عَيشُهُمــا لحْمُ من الناسِ مَعْفُورُ خراديلُ[2]

إذا يساور قِرْناً لا يَحلُّ لـــــــه أن يتركَ القِرن إلا وهو مَغْلُولُ[3]
منـــــه تظــلُّ سِبَاعُ الجــو نافِرةً ولا تَمَشَّـــى بواديــه الأرَاجيلُ[4]
ولا يــزال بواديـــــه أخُــو ثِقــةٍ مُضَرَّجُ البزِّ والدِّرسَانِ مَأكُــولُ[5]

يمدح النبىﷺ، فيقول فيه إنه أسد من أسود الأرض يعيش بوادى الأسود فى مأمن من حوله أشجار من دونها أشجار، يقبل أول اليوم فيطعم شبليه لحماً يريد أنه يقتل أعداءه، فيتركهم مجندلين فى التراب، بعد أن اشتفى منهم، وتظل سباع الأرض نافرة خائفة لا تهدأ ولا تأمن كره عليهم، ولايمشون بأرضه خشية منه، يصف النبىﷺ بأنه مثل الأسد الذى تخافه السباع، والأسود ساكنة من هيبته ولا يمشى أحد بواديه.

وهو بأرضه واثق بنفسه لا يخشى أحداً، وهو مخضب بالدماء وقد مزق عدوه وترك ثيابهم ممزقة، وهذا تشبيه بليغ، ثم مدح الرسولﷺ مدحاً خاصاً لم يسبق إليه شعراء الجاهلية ، فالرسول ﷺ نور يستضيء به الناس، ويرشدون به إلى الصواب والحق ، فقد أخرج الله تعالى به الناس من ظلمات الجاهلية إلى نور الإيمان. قال:

إن الرسول لنور يستضاء به مهنَّد من سيوف الله مسلول

يعد هذا البيت أشهر بيت فى قصيدة كعب، بل يعد من عيون الشعر ومن الأبيات السيارة، ويدخل فى روائع المدائح النادرة لما جمع فيه من إيجاز اللفظ وحسن التشبيه

---

(1) روى: من خادر من ليوث الأرض مسكنه: من بطن ... الضغيم: الأسد، الخادر: الداخل فى الخدر، وهو الأجمة التى يسكنها الأسد، وضراء الأرض: ما وراء الشجر، ومخدر الأسد، غابته التى يسكنها، وعثَّر: مكان تكثر به الأسود. والغيل: الأجمة.

(2) يغدو: يذهب أول النهار، يلحم: يطعم لحماً. الضرغام: الأسد، يريد بهما أسدين من أشباله. معفور: ممرغ فى العفر، الخراديل: القطع.

(3) يساور: يواثب، القرن: المثيل الذى يقاومه فى الشجاعة، مغلول: أثر فيه، ويروى: مجدول: مطرح فى الجدالة (الأرض).

(4) الجو: اسم موضع، أو البر الواسع، نافرة: خائفة هائجة، ويروى: ضامرة، والأراجيل: الجماعات من الرجال.

(5) الوادى: المكان الذى فيه، مضرج: مخضب بالدماء، البز: السلاح، الدرسان: الثوب الخرق البالى، وأخو ثقة: تعبير يدل على الثقة فى النفس والثبات.

وقوة المعنى، وهذا المعنى لم يسبق إليه فى الجاهلية بل يعد من ابتكار كعب، وجاءت فيه روايات منها: " إن الرسول لسيف يستضاء به "، وروى أن كعباً قال: مهند من سيوف الهند مسلول، فقال النبىﷺ موجهاً: "من سيوف الله". والله أعلم.

ومعناه إن الرسولﷺ إمام هدى ونور للعالمين، يرشد الناس إلى الحق، وهو سيف مسلول على أعداء الله فلا يرد سيفه فى غمده حتى يدين الناس بدين الله تعالى، وهذا السيف من أجود أنواع السيوف فهو مُهَنَّد أى هندى حاد قاطع، بتار شديد اللمعان، وروى: إن الرسول لسيف يستضاء به" يريد: يُهتدى به إلى الحق، والسيف الهندى شديد اللمعان لما يعكسه من الضوء، فشبه به النبىﷺ وهو تشبيه بليغ مؤكد، وهذا النبى العظيم فى صفوة من خيار قريش، نصروه وهاجروا معه وقاتلوا معه الكفار. قال:

فى عُصْبَة من قريشٍ قال قائلُهمْ ... ببطن مكة لما أسلموا: زولوا[1]

زالوا فمازال أنْكَاسٌ ولا كُشُفٌ ... عِندَ اللقاءِ ولا ميلُ مَعَازيلُ[2]

شُمُّ العَرَانين أبطالٌ لبُوسُهمُ ... من نَسْجِ داودَ فى الهيجا سرابيلُ[3]

بيضُ سَوَابِغُ قد شُكَّتْ لها حَلَقٌ ... كأنها حَلَقُ القَفْعَاءِ مَجْدُولُ[4]

ليسُوا مفَاريحَ إن نالتْ رِماحُهُم ... قَوْماً وليسوا مَجَازيعاً إذا نيلُوا[5]

---

(1) عصبة: جماعة، يريد المهاجرين، وروى"فى فتية" زولوا: تحولوا من مكان إلى آخر، يريد أن كفار مكة ضيقوا عليهم فهاجروا من مكة فراراً بدينهم.

(2) أنكاس: جمع نكس، وهو الرجل الضعيف، يريد: ليسوا بضعفاء. كشف: جمع أكشف: من لاترس معه فى الحرب، والميل: جمع أميل: لا يسقطون عن الخيل،ولا يهربون من لقاء العدو، والمعازيل: جمع معزال: من لا سلاح معه، فهو أعزل من السلاح. يريد أنهم فى عدة الحرب، فلا يضعفون ولا يجبنون، ولا يميلون عن لقاء العدو، وليس بمعازيل من السلاح.

(3) شم: جمع أشم، وهو الذى يشمخ بأنفه كبراً، والعرانين: جمع عرنين، وهو الأنف، أى هم أعزة أبطال، لبوسهم من نسج داود: كناية عن الدروع، وهو مشهور بصناعة الدروع وضرب به المثل فى ذلك، الهيجا: الحرب، وأصله الهيجاء، فقصره للضرورة الشعرية، والسرابيل: جمع سربال: وهو مايرتديه المحارب.

(4) بيض: جمع أبيض، سوابغ: جمع سابغ، أى كاسٍ طويل، يصف السرابيل بأنها بيض طويلة، شُكت: نسجت أو أدخل بعضها فى بعض، حَلَق: جمع حَلْقة، والقفاء: نبات منبسط متشابك يشبه حلق الدروع. ومجدول: محكم الصنعة، أو أدخل بعضه فى بعض بإحكام.

(5) مفاريح: مفردها مفراح، مجازيع: مفردها مجزاع، وهو مبالغة فى الفرح وشدة الجزع، نيلوا: أصابهم عدوهم. يريد أنهم لا يسرفون على أنفسهم فى الفرح بالنصر، ولا يجزعون من الهزيمة.

يَمْشُون مَشْىَ الجمالِ الزُّهْر يعصمُهمُ ضرْبٌ إذا عَرّد السُّودُ التَّنابيـــلُ[1]

لا يَقَعُ الطَّعْنُ إلا فى نُحُورِهـــــــمُ وَمَالهم عن حيَاضِ الموت تَهْلِيلُ[2]

المعنى: إن الرسولﷺ نور يهتدى به، يجاهد الكفار فى جماعة متماسكة قوية من قريش، وروى "فى فتية من قريش" وعصبة: جماعة من الناس مابين العشرة والأربعين، وقد ثبتوا معه على الإيمان، فاضطهدهم المشركون فهاجروا بدينهم، وثبتوا مع النبىﷺ فى دار الهجرة وجاهدوا معه، وهم أهل شجاعة وإقدام.

ولا يميلون عن لقاء العدو خشية وليسوا بعزّل من السلاح فلا يفرون، فهم أقوياء ذو سلاح وفرسان عند اللقاء، وهم أصحاب مجد وسيادة وكرم أبطال، وشجعان ويخوضون الحروب الضارية لا يخشون الطعان ودروعهم محكمة سابغة تحميهم، ومتسربلون بها جيدًا، وكأنها لإحكامها وقوتها من صنعة داود عليه السلام، ويضرب به المثل في إجادة صنع الدروع، قال تعالى: ﴿**وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ**﴾[الأنبياء:٨٠]، وهذه السرابيل المسدلة عليهم (الدروع) بيض مجلوة صافية طوال، شُكّت أدخل بعضها في بعض، وسُمّرت، وقد نسجت من حلق، أو حلق أدخلت في بعضها بعضًا، وجدلت كأنها مثل شجر القفاء، وهو شجر ينبسط على الأرض متشابك يشبه حلق الدروع.

وإذا ظفروا بعدوهم ، لم يظهر عليهم الفرح ، وإذا ظهر عليهم عدوهم لم يجزعوا فهم شجعان وأصحاب همم وأشداء صبر في الحرب ولا يعبأون بالخطوب، وليس ذلك منهم بأول فعل ولا هو بمستنكر، فهم صُبَرٌ وإذا نُكبوا لا يجزعون. وهم يمشون مشى الجمال البيض، يحميهم من أعدائهم ضرب شديد ويكفهم إذا هرب السود القصار وأعرضوا.

وقد شبههم بالجمال في المشي، وهو يريد امتداد قامتهم وعظم خلقهم، وأراد بـ"ضرب" نكرة للتهويل. وأراد بوصف "الزهر" أنهم بيض أي سادات لا عبيد وعرب لا أعراب، وقيل إنه أراد بالسود التنابيل الأنصار يعرض بهم، لأنهم أرادوا قتله، وعرّدوا:

---

(1) الزُهْر: جمع أزهر: أبيض، عرد: هرب من القتال وفر، السود التنابيل: السود القصار، يهجو الجبناء الذين لا يثبتون للعدو، ومفرد تنابل: تنبال: القصير.

(2) الطعن: الضرب بالحربة والخنجر، نحور: موضع الذبح فى العنق، حياض: جمع حوض، يريد ميدان الحرب، تهليل: فرار يرى أنهم لا ينهزمون فيقع الطعن فى ظهورهم، بل يقتلون وهم يقبلون على الموت، وروى أن النبى ﷺ أشار إلى من حوله عندما سمع هذا البيت أن اسمعوا، لإعجابه به.

هربوا وفرّوا وتركوا القتال منهزمين، والتنابيل واحدها تنبال وهو القصير. ولا يقتلون من ظهورهم ، فهم لا يولون الدبر بل يقطع الطعن في نحورهم، وهم يتقدمون إلى أعدائهم، ولا يتأخرون عن حياض الموت إذا تأخر غيرهم عنها ونكص. يريد أن يصفهم بالشجاعة والإقدام وأنهم لا ينهزمون ولا يخشون الموت، فلا يرون له بديلاً فهم طلاب الشهادة.

فلا يفرون ولا ينهزمون فيقع الطعن في أدبارهم بل هم يواجهون القتال ، فيقع الطعن في نحورهم، واختار النحر؛ لأنه موضع الطعن في الجمال.

وقد اختص المهاجرين بالمدح دون الأنصار لما ذكرناه سابقًا أنهم اشتدوا عليهم عندما عرفوه وهموا به، فحمل في نفسه فلم يذكرهم، وحمل الموضعين اللذين ذكرناهما على أنهما تعريض بالأنصار، وهو مذهب بعض الشارحين، ولهما وجه آخر من المعنى قد بيناه.

وبعد، فقد شاكلت هذه القصيدة قصائد الجاهلية في الشكل، فقد بدأ الشاعر بمقدمة بكائية شكا فيها فراق الحبيبة "سعاد" وإخلافها الوعد، ونزولها بأرض بعيدة وعرة ذات تضاريس غير مستوية، والسفر إليها شاق، ووصف الشاعر وسيلة المواصلات "الناقة"، وهي الوسيلة الوحيدة التي تصلح للسير في الصحراء القاسية وعرفت بسفينة الصحراء، وقد أطال الشاعر في وصف الناقة وعزَّر مكانتها، واستطرد في وصف صفاتها المتعددة وما يميزها، وانتهى من وصفه أنها فريدة النوع نسيج وحدها، وقد أكثر القول فيها والإعجاب بها، أكثر مما ذكر به الحبيبة التي وصف صفاتها الذميمة فقط، ولم يذكر شيئًا عن محاسنها، بل تغزل في الناقة فوصف رأسها وعنقها وذراعيها الأماميتين ثم الأرجل معًا، والجسم الذي وصفه بالاكتناز والملاسة والصلابة، ووصف سيرها وحركتها وشدتها، وحسن هيئتها، وهذا الوصف من الممكن أن يحمل على ما كان يصف به الحبيب حبيبته في تغزله بها، فكأن ناقة كعب امرأة طويلة القامة معتدلة غضة طويلة العنق فتية ذات سيقان طويلة مكتنزة، وهذا يشعرك أنه ترك التغزل في المرأة وجعل الناقة بديلاً لها حياء من النبيﷺ وصحبه ، وليساوق بين المقدمة وبين الاعتذار والمدح، فذكر جمال المرأة ووضعها وتعلقه بها لا يناسب غرض الشاعر الرئيس، وهو الاعتذار، وقد أسرف الشاعر في الحديث عن رحلة السفر المزعومة إلى الحبيبة والناقة التي ستحمله إليها، بيد أنه بعد هذه الرحلة الطويلة الشاقة التي أسرف في وصفها ليست إلا نسج الخيال، فالرجل ــ على ما فهم من ظروف إنتاج القصيدة ــ قالها وهو قادم في الطريق إلى النبيﷺ.

وهذا يشير من بعيد إلى أن المقدمة ليست هدفًا للشاعر بل تقليدًا شعريًا سار عليه سابقوه من الشعراء؛ فالشاعر على طول مقدمته لم يذكر لنا نتيجة هذه الرحلة الشاقة إلى

الحبيبة، وهي رحلة في الخيال البشري سبح فيه الشاعر وطوّف، وتحول تحولاً مفاجئًا في رحلة السفر؛ فقد فاجأنا بأنه وصل بهذه الناقة المتميزة إلى النبيﷺ، فسعاد ليست حقيقة بل رمزًا لما أخفق فيه من قبل، فقد انعكس إخفاق الشاعر وشعوره بالهزيمة على مقدمة القصيدة، فالأصدقاء تركوه وحيدًا وانشغلوا عنه، وشمت به بعضهم وخوفوه، وقد كان يحبهم ويثق فيهم، ويفي لهم بوعده، ولكنهم خذلوه مثل سعاد تمامًا التي أخلفت وكذبت، وسيطر عليه الحزن في المقدمة والألم، واستلذ رحلة الألم التي قطعها ليصل إلي اليقين، ولم يشتك الألم الذي عاناه، بل اشتكى حال الناقة وما داهمها من ظروف قاسية، يريد حال نفسه، فالناقة ليست وحدها التي واجهت الرحلة الشاقة فقد كان في صحبتها، ولم تك هذه الرحلة الشاقة للوصول إلى الحبيب المذكور، في أول القصيدة، بل إلى حبيب آخر أعز عليه وأكرم من تلك التي منت وأخلفت، ولعله كان يرمز للحبيبة إلى الحياة التى عاشها، ولعله كان يرمز للناقة إلى نفسه التى كابدت الصعاب وعاشت محنة الاغتراب والوحدة.

وقد عظم من شأن الناقة التي حملته في هذه الرحلة الشاقة، وامتدحها، لأنها وصلت به إلى الحقيقة التي كان يبحث عنها، فقد ضاقت به نفسه ولم يجد لنفسه نجاء في الأرض، فلن يفر من نهايته، وقد أيقن أن الإيمان هو الحقيقة التي بحث عنها في الصحراء الممتدة، وقد كان لديه عزم وإصرار؛ ليصل إليه، وقد رمز إلى ذلك في حديثه عن ضراوة الحر وشدته في القيلولة أوالهاجرة، وقسوة السير في الأرض الساخنة والحجارة، ورمز إليه بعدو الناقة وسرعتها ونفيها الرمال من خلفها لسرعتها وعجلتها لتصل إلى هدفها وعدم توقفها للراحة و في القيلولة عندما قيلت الحيوانات لتحتمي من الحر، لكنها سارعت الزمن لئلا يفوتها الهدف التي شقيت لأجله وكابدت في الوصول إليه، ولم تعبأ بالعثرات.

وتعرض الشاعر لمحنة قاسية فقد ابتلى برفاق خوفوه العقاب، وهؤلاء الرفاق سعوا بجانبي الناقة ، فهو لم ينزل عنها بعد ، وقد صدم بجفوة رفاقه الذين لم يحتفوا بقدومه ، بل خذلوه وخوفوه وانصرفوا عنه فصار وحيدًا، ولم يك هذا متوقعًا بعد هذه الرحلة الشاقة.

لكنه لم يعبأ بموقفهم حياله وصدهم إياه ، فانتفض(ثائرًا) دعوني ، ولم يلتفت إلى شيء مما قالوا ، فقد أصبح على يقين صادق بما هو عليه ، فقد آمن بقدر الرحمن "فكل ما قدرالرحمن مفعول" وإيمانه بالرحمن جعله يؤمن بقدره في النهاية التي سيلقاها، وهذا يقين المؤمن الصادق، واختار من صفات الله تعالى "الرحمن" طمعًا في رحمته بعد أن ضاقت به الأرض، وفقد الصديق. ودخل على رسول اللهﷺ، وهو المقصود من الرحلة التي أعد لها ناقة فتية حملته إليه، وأعلن اعترافه بأنه رسول، وخاطب الغائب تعظيمًا "هو" و"رسول

الله" ولم يقل "محمدًا" على ما خاطبه به مشركو العرب، وذكر عفوه ليستعطفه، وهو ما أرسل به إليه أخوه بجير رضى الله عنه. وتحول من حديث الغائب إلى الحاضر ملتفتًا إليه داعيًا له، فخاطبه:

مهلاً هداكَ الذي أعطاك نافلة الـ ـقرآن فيها مواعيظ وتفصيل

يطلبه من أن يتمهل عليه وألا يعجل به، ليعرض عليه أمره، فذكر من شأن الوشاة ما ذكر ، والوشاة لهم شخصية ذات حضور في الشعر ، فلهم دور في موضوع الاعتذار، وقد قال النابغة الذبياني معتذرًا :

لئن كنت قد بُلّغت عني خيانة لمبلغك الواشي أغشُّ وأكذبُ

وقال كعب :

لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم أذنب ولو كثرت عني الأقاويل

ثم ذكر له شدة ما يعانيه من شدة الموقف وثقله عليه، وأعلن بيعته، وأخذ على نفسه العهد وفاء له ثم مدحهﷺ ومدح أرومته، وشبهه بالأسد الذي يقيم في مكان منيع، وقد عز في أصحابه، وأشبع من حوله، وفاض طعامهم، وزاد حاجتهم إليه، وأصبحت الغلبة للنبيﷺ ولأصحابه، وهابته العرب وبادرت بمصالحته والدخول في طاعته. ثم التفت إلى بطانته الصالحة ورجاله الأفذاذ الذين خاض بهم المعارك، وليس لهم مطلب إلا الموت دونه، وهم رجال أشداء على الكفار رحماء بينهم.

وتجاهل كعب رضى الله عنه شطرًا عظيمًا من أصحابهﷺ، وهم الأنصار في منزلة بعد المهاجرين ولهم بلاؤهم في الإسلام، فقد نصروا الإسلام وبذلوا المال والنفس فيه، ويحبون من هاجر إليهم ويكرمونه، وقد تركهم كعب لشيء في نفسه، ولكن رسول اللهﷺ والمهاجرين أبوا أن يخصهم بمدح دون إخوانهم الأنصار، فألقى ما في نفسه حبًا لله ولرسولهﷺ ومدحهم.

واللغة التي استخدمها كعب هي نفسها لغة شعراء الجاهلية، ولكنه لم يستخدم لغة جبلية وعرة فيها تكلف وغرابة بل شابهت لغة الحضر، وفيها اختيار ودقة، وذلك في المقدمة، ولكنه في مديحه استخدم مفردات إسلامية ذات دلالة جديدة مثل: رسول الله، سيف الله، الإسلام.

وقد كان العرب يطلقون على المسلمين الصابئين من صبأ أي: ترك دينه ودان بآخر، وكان قوم غزاهم خالد بن الوليد، فلا يحسنون أن يقولوا أسلمنا، فيقولوا صبأنا، يريدون أسلمنا. ومثل العفو، القرآن، نافلة، وهي الزيادة عما أوجبه الله تعالى، واستخدمها كعب

بمعنى الزيادة في العطاء كرمًا وسخاءً عليهم أو زيادة في الفضل، والهدى، والموعظة، التفصيل (يريد : التبيين) "الذنب"، "إذن الله".

ولم يتأثر كعب في قصيدة بالقرآن الكريم إلا في الألفاظ التي ذكرناها، ولم يتأثر بأسلوبه تأثر حسان رضى الله عنه؛ لأنه حديث عهد بالإسلام، وليس لديه رصيد كاف من القرآن يتأثر به أسلوبًا ولفظًا ، وليس هناك مضامين إسلامية كثيرة لعدم علمه بها ، لكنه في قصائده التي تلتها تأثر بالقرآن الكريم وحديث النبيﷺ.

وقد وقع في القصيدة بعض التشبيهات غير المتكلفة، وكلها مقتبسة من البيئة ومنها : تشبيه ماء الأسنان (اللعاب) بماء الوادي فيه رمل وحصى صغار وذلك في الصفاء.

وشبه صوت سعاد بصوت الطفل الذي يلهج بغنة من طرف أنفه، وذلك لبعد المسافة فلم يميز كلامها، والغنة : أن يشرب الحرف صوت الخيشوم، وقد شبهها بالطفل في صوته وفتور طرفه.

وشبه اختلاف حال سعاد (يريد اضطراب مزاجها وشخصيتها) بتلون الغول، وكان العرب يهولون من أمر الغول، ويشبهون عدم الوفاء بالوعد والعهد وتبديد الوصل بالغرابيل التي لا تمسك الماء، وشبهها في الإخلاف بعرقوب، وهو رجل ضرب به المثل في الإخلاف، قال علقمة الأشجعي:[1]

وعدت وكان الخُلْفُ منك سجية مواعيد عرقوبٍ أخاه بيثربِ

وشبه رأس الناقة بالحجارة، التي لها طول أو بالمعول، وذلك في إشارته إلى عظم رأسها، وشبهها في السرعة بمرور عسيب النخل. وشبه جلد الحرباء الذي سودته الحرارة، بالجلد المحترق. وشبه حركة الناقة السريعة بيدي المرأة التي فقدت ولدها ومن حولها نساء يجاوبنها وهي تضرب وجهها وصدر بيدها وتخمش وجهها.

وشبه شدة الموقف عليه وتأثره به وهو أمام رسول اللهﷺ أنه أصبح في قوة إسماع الفيل لأثر القول في نفسه، وكانوا يتوهمون أن الفيل أسمع الأشياء، وأقواها، قال لبيد: [2]

لو يقوم الفيلُ أوفَيَّا لُه زلَّ عن مثل مقامي وزَحَل

توهم لبيد أيضًا أن فيَّال الفيل "مدربة" أشد الأشياء لما له من قدرة على سياسة الفيل، وتصريفه. وشبه رسول اللهﷺ بالأسد في الشجاعة، وذلك في مكمنه بين الأسد وبوادي

---

(1) شرح قصيدة كعب صـ١٥٩.

(2) شرح ديوان كعب صـ٢٠.

الأسد، وبيته من دونه بيت فهو آمن، وشبهه أيضًا بالسيف الهندي في القوة واللمعان لما في حد السيف من لمعان، وشبه الدروع بنبات القفعاء المجدول. وهو نبات له ورق وثمر، فشبه حلق الدروع وتداخلها في بعضها، بحلق القفعاء المتداخلة وهو نبات أرضي كأن حبه حلق الدروع، وقد جدلت أي أديرت وفتلت، ودخل بعضها في بعضه.

وشبه المهاجرين في مشيهم إلى العدو بالجمال الزهر(البيض)، وهم يرتدون الدورع، وروى: "مشى الجمال الجُرْب"؛ لأن الجمل الأجرب يطلي بالقطران، فشبههم والدروع عليهم بالجمال الجرب، وهذا بعيد والأولى أحسن. وجاءت الصور قليلة، ومنها أن جعل من صداقة سعاد دماء خلطت بالفجع والإخلاف والتبديل، وجعل اللبان (صدر الناقة) يزلق القراد، والقراد هو الفاعل، وجعل السراب يتلفع بالقور. والضرب يعصم المهاجرين من الموت، وقد فرّ عنهم السود القصار وتركوهم في مواجهة الموت. وهي تشبيهات وصور من البيئة التي عاش فيها الشاعر، وهي بيئة بدوية صحراوية، وليس فيها تكلف أو تعقيد.

وبعض المحدثين يرون أن كعبًا أنشأ قصيدته رجاء في النجاء من القتل، وليست عن عاطفة دينية، واستدلوا لذلك بما روى عن سبب قيلها وما وقع بين كعب وأخيه بجير رضى الله عنهما، وأنه غاضبه، فهم يرون أنها قيلت اعتذاراً، ومدح النبيﷺ؛ لأنه خشى عقابه، قال الدكتور مبارك : "وقد نظرت طويلاً في هذه القصيدة فلم أر غير ما قررت، [وهو ما ذكرناه سابقًا] فهي قصيدة جاهلية تغلب عليها قوة السبك، ولكنها تخلو من روح الدين، ولا غرابة في ذلك. فإن كعب بن زهير لم يمدح الرسول إلا لينجو من الموت، ومن كان في مثل حاله لا ينتظر منه صدق الثناء".[1]وأقول : كيف عرف أنه غير صادق، وأنه قالها خوفًا وليست عن عاطفة صادقة، والرجل آمن، وحسن إسلامه؟! وماذا كان ينتظر من رجل لا يعرف عن الإسلام إلا قليلاً ولم يسلم بعد ولما يدخل الإيمان في قلبه؟ وكيف لا يكون صادقًا في اعتذاره ومدحه، وقد بلغت هذه القصيدة من الشهرة ما بلغت، وتعد الأبيات التي مدح فيها رسول اللهﷺ من عيون المدح ودرره في التراث العربي؟!

وقد ناقض الدكتور مبارك نفسه، فقد قال : "والذين نقول به في هذه القصيدة لم يقل به أحد من المتقدمين، فقد اهتموا بها اهتمامًا عظيمًا، وعدوها من أجمل ما قيل في مدح الرسول، وعنى بها الشعراء فشطروها وخمسوها وعارضوها، وأولع بشرحها فريق من كبار الرجال". وذكر رجالاً فحولاً، وأشهرهم ابن هشام الأنصاري النحوي، والسيوطي،

---

(1) المدائح النبوية، زكي مبارك، صـ٢٤، ٢٥.

ومحمد حسن المرصفي، وممن عارضها من الشعراء ابن نباته المصري، ولم تزل الشعراء ينسجون على منوالها إعجابًا بها.

وقد اهتم بها المستشرقون حديثًا، فترجموها إلى لغتهم، ولها مكانة خاصة بين الصوفية فهي عندهم في درجة بردة البوصيري الذي تأثر بها أيضًا، وعكف عليها الدارسون حديثًا ونالت اهتمامًا عظيمًا منهم، وقد أغرتني ببحثها فأعطيتها من البحث والعناية ما لم أعطه غيرها، ولو لم يك لكعب غيرها فى مقدمة الشعراء الفحول، ولكفته وحدها، وقد عُرف كعب بها مثلما عرف سيبويه بكتابه، بيد أن الدكتور مبارك على ما ذكر من شهرتها وإعجاب رجال الأدب واللغة والنحو، والمتصوفة بها، فإنه قال فيها ما لم يقل به أحد، وليس قوله قائمًا على حجة بل اعتقاد شخصي وظن في عاطفة الشاعر وصدقه، وهو يذكر عنها أن الشعراء ولعوا بها، والباحثون والشرَّاح، وتوارث المسلمون احترامها.

وإجماع هؤلاء عليها لا يرضيه ، ولا يزيل عنه ظنه بالرجل الذي لم يطلع على ما في قلبه، وقال : "ولولا ما في ألفاظها من الوعورة لشاعت في البيئات الصوفية، وأصبحت من حملة الأوراد، وكان لها ما صار للبردة من السيرورة بين العوام والخواص".[1] والرجل لم يكن متصوفًا ولم ينشأ التصوف في عصره، فهو لاحق عليه، واللغة التي استخدمها الشاعر هي لغة الشاعر نفسه وهي لغة مدرسة زهير، وهي اللغة التي استخدمها شعراء عاشوا بين البادية والحضر، وليست غريبة كاللغة التي بدأ بها طرفة معلقته والتي وصف بها ناقته "لخولة أطلال ببرقة ثهمد"، وقد استخدم لغة بدوية تحتاج معجمًا لغويًا، وفيها من الوعورة ما فيها.

وقد عاب بعض الباحثين على كعب مطلع القصيدة الذي أطال فيه، ووصفه المطول للناقة، الذي يعد من الأشياء المحلية التي تتعلق بالبادية ولا يتذوقها إلا الأعراب، وأقول إن إطالة الشاعر في المقدمة كانت عرفًا أو تقليدًا. وهذه المقدمة تشبه غيرها من المقدمات التي توجت بها المعلقات وكثير من أشعار الجاهلية وظلت تقليدًا في الإسلام. وقد ذكرنا أسباب الإطالة فيها، وهذه المقدمة التي نقدها المحدثون نالت اهتمام رجال الأدب واللغة، ويتبين مما ذكره الدكتور زكي مبارك أنه كان يقارن بين مديح كعب والأعشى وحسان بمديح الصوفية الروحي الذي هاموا فيه، فأشبه الغزل، والمتغزل فيه رسول الله ﷺ، وهذه مقارنة غير عادلة، فليست هذه المدائح من هذا النوع ولم تظهر على عهدهم الصوفية،

---

(1) المدائح النبوية صـ٣٨.

وليسوا من رجالها، وهو اتجاه ظهر في الأدب متأثرًا بالإسلام والنصرانية واليهودية والفلسفة والثقافات الوافدة من فارس والهند واليونان، فالتصوف متعدد الروافد، وليس التقشف والزهد الذي كان عليه النبي ﷺ وأصحابه والتابعون من هذا النوع المذهبي، وإن كان التقشف والزهد من مناسك التصوف.

وليس لنا إلا أن نقول إن قصيدة كعب بن زهير رضى الله عنه من القصائد التي يفخر بها الشعر العربي، وتعد معلمًا بارزًا فيه، وتضاف إلى غيرها من الأعمال الأدبية الخالدة.

** ** ** **

الفخـــر

الفخر جنس من المدح ، ولكنه موجه إلى الذات ما يتصل بها وما تنسب إليه كالعشيرة والقبيلة والمدينة والعصبة التي ينتمي إليها ، ويفخر بماله أو لقومه من فضائل، وقد ظهر هذا الفن في العصر الجاهلي على أيدي شعراء القبائل التي لها عز ومجد وكثـرة العـدد ، والشعراء من ذوي السيادة والمجد.

كانت النُّعْرة القبلية أعلى الأصوات في الفخر ، فقد كان العرب يتعصبون لقبائلهم تعصباً مغالياً ، فجعلوا القبيلة في منزلة الأب والأم والإله ، فلم يعرفوا نسبا ولا منتسباً سـواها، وقد جسدت معلقة عمر بن كلثوم تطرف العرب في حب القبيلة.

وقد كانت الحمية القبلية سبباً في حروب كثيرة وعداوات ، وحالـت دون قيـام دولـة جامعة وأحبطت المحاولات التي قام بها بعض سادة العرب وملوكهم في إقامة دولـة ولـم تسكن العصبية القبلية إلا في عصر النبوة ، فقد جمع الله تعالى قبائل العرب المسلمة على النبي صلى الله عليه وسلم ، وجمعت بينهم إخوة الدين ، لكنها رفعت رأسها بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، فأسكنها أبو بكر رضي الله عنه ، ثم عادت في خلافة عثمان رضي الله عنه ، ومازالت تطل برأسها بين الدول العربية.

وتحول الفخر من الفخر بأمجاد القبيلة وحروبها وبطشها وظلمها إلى الفخـر بالإسـلام والجهاد فيه وحسن البلاء ، ونصرة النبي صلى الله عليه وسـلم والمهـاجرين ، والكـرم وحسن الخلق والشجاعة والإقدام قال حسان يفخر بقومه :

وكُنّا ملوكَ الناسِ ، قبلَ محمّـدٍ ... فلما أتى الإسلامُ، كان لنا الفضْلُ[1]

وأكْرَمَنا اللهُ الذي ليسَ غـيرُهُ ... إلهٌ بأيّامٍ مَضَتْ ما لها شَكْـلُ[2]

بنَصـرِ الإلهِ للنّبـيّ وَدينـه ... وَأكرَمَنا باسمٍ مَضَى ما لهُ مثـلُ[3]

أُولئكَ قوْمي خـيرُ قـومٍ بأسرِهمْ ... وليسَ على معرُوفهمْ أبداً قُفْـلُ[4]

---

(1) قوله كان لنا الفضل اذ آووا محمد وكانوا أنصاره وهذا فضل لا فضل بعده .

(2) قوله ما لها شكل أي ما لها مثل .

(3) وأكرمنا : أي لم يبخل علينا بمحبته .

(4) قوله وليس على معروفهم أبداً قفل يقول أن باب معروفهم مفتوح لكل عاف .

يَرُبّون بالمعرُوفَ معروف مَن مضَى فما عُدّ من خيرٍ ، فقوْمي له أَهْلُ[1]
إذا اختُبِطوا لم يُفحشوا في نديّهم وليسَ على سُؤَالِهِمْ عندَهُم بُخلُ [2]
وحاملُهم واف بكلّ حمالةٍ تَحَمَّلَ، لا غُرْمٌ عليه ولا خَذْلُ[3]
وجارُهمُ فيهمْ بعلياءَ بيْتُهُ له ما ثوَى فينا الكرامةُ البَذْلُ[4]
وَقائلُهُمْ بالحَقّ أوّلُ قائلٍ فحكمُهمُ عدلٌ ، وقوْلهمُ فصْلُ[5]
إذا حارَبوا، أوْ سالموا لم يُشبِّهوا فحرْبهمُ خوْفٌ ، وسلمهمُ سَهْلُ[6]
وَمنّا أمينُ المُسلمينَ حَيَاتَهُ ومَنْ غَسّلَتْهُ من جَنَابَتِه الرُّسْلُ[7]

كانت للأنصار مآثر في الجاهلية فاضلوا فيها الناس ووصلها حسان بمالهم من فضائل في الإسلام ، وافتخر برجلين من الأنصار هما سعد بن معاذ وحنظلة بن أبي عامرﷺ. وقال حسان مفتخرا بيوم بدر ومعيرا قريشاً[8] :

فينا الرسول وفينا الحق نتبعه حتى الممات ونصر غير محدود
مستعصمين بحبل غير منجذم مستحكم من حبال الله ممدود

وقد كان للأنصار دورهم في بدر وما بعدها ، فقد تكثر بهم المهاجرون، وقد أعلنوا قبل بدر أنهم يؤيدون الرسول صلى الله عليه وسلم ، وسيكون معه على عدوه، وسلموه مقادة أمرهم ، وبايعوه على الجهاد ، وخاضوا حرب بدر من أجل المهاجرين ، فلم تك لهم مواجهات مع قريش ، وقد سجل حسان رضي الله عنه الوقائع وما بها من أحداث ، وذكر بعض قتلى المشركين في بعضها وتأكيدا لقوله، وقد خص الأنصار بالنصر في المعركة ، وكأن الصراع كان بين قبيلتين ، فمازالت للقبلية أثر في نفسه ، فذكر الأوس والخزرج في بعض قصائده وقد ذكرهما ليجعلهما نموذجا يقتدى به في الإسلام ، فقد رفع منهما في شعر ونسب النصر لهما مرارا ليباهي بهما العرب ، ويخص من بين الأنصار عشيرته بني النجار، وهم أخوال النبي صلى الله عليه وسلم .

---

(1) يربون : ينمون . من مضى : من أسلافهم .
(2) اختبطوا : قصدوا . الندي : المجلس .
(3) الحمالة : ما يتحمله الإنسان من غرم في دية .
(4) العلياء : الموضع المرتفع وقوله ما ثوى فينا : أي مدة إقامته بيننا .
(5) يقولون الحق ويحكمون بالعدل .
(6) لم يشبهوا : أي لا يشبههم أحد .
(7) أمين المسلمين : سعد بن معاذ الأوسي . غسيل الملائكة : حنظلة بن أبي عامر الذي قتل في يوم أحد .
(8) الديوان ص ٥٥ .

وقال حسان رضي الله عنه في هزيمة قريش ببدر وضحاياها يفخر بقومه:

بنو الأوس الغطاريفْ وازرتها ... بنو النجار في الدين الصليبِ
فغادرنا أبـا جهـل صريعـاً ... وعتبة قد تركنـا بالحبـوبِ
وشيبـة قـد تركنا في رجـال ... ذوي نسب إذا نسبوا حسيبِ
يناديهـم رسـول الله لمـا ... قذفناهم كباكب فـي القليـبِ
ألم تجـدوا كلامـي كان حقـاً ... وأمـر الله يأخـذ بالقلـوبِ
فما نطقـوا ولو نطقوا لقالـوا ... صدقت وكنت ذا رأي مصيبِ

وقد منيت قريش بخسائر جسيمة صار للإسلام شأن بين العرب ، وظهر كقوة عسكرية جعلتهم يحفظون حرمة المسلمين ويتوددون إلى نبي الإسلام ويبادون إلى مصالحته. وكان للمصير الذي انتهى إليه كبار الملأ من قريش أثر في نفوس المشركين، فقد كـان القليـب (البئر) مصيرهم المفجع الذي تألموا منه كثيرا ، وقد أورثهم هذا شنآنا وغـلا ، فأعـدوا العدة لثأر من المسلمين ، فكان يوم أحد الذي أصيب فيه المسلمون ، ولكن لم تك مصيبتهم فيه كمصيبة المشركين يوم بدر .

لقد طور حسان رضي الله عنه الفخر في الإسلام؛ فحوله من الحمية القبليـة والـدعاء بدعواهم إلى الحمية الدينية والولاية في الإسلام والإخوة الدينية ، ولم يك ذكر القبيلة فـي شعر حسان من دعو الجاهلية أو عصبية بل كان من قبيل ذكر فضائلها في الدين وبلائها ، لتكون نموذجا يحتذى به ، وقد ترك حسان في فخره عداوات الجاهلية فلم يذكر شيئا فـي فخره مما كان لقومه على الأوس في الجاهلية أو على غيرهم ، فقد كانت هناك دماء بـين الأوس والخزرج- قبيلة حسان -قبيل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكـان لحـسان فيها شعر يهاجي فيه الأوس وشاعرها قيس بن الخطيم ، ولم يعير أحدا مـن المـسلمين بمذمه في جاهلية ولا إسلام.

وقد تطور عن الفخر المفاخرة، وهي أن يفاخر الشاعر بشعره شاعرا آخـر أو يفـاخر الخطيب خطيباً آخر، فيذكر ما لقومه وذلك في ملأ من شيعتهما .

وقد كان فن المفاخرة أو المنافرة شائعا في الجاهلية ، فقد كان بعـض سـادة القبائـل يتنازعون الرياسة فيها ، فيقضى بينهم حكم ، أو أن تقوم مخاصمة بين سيدين من العرب ، فيستدعي كل واحد منهم من يشايعه من الشعراء ، فيمدح الشاعر صاحبه وماله مـن فضل ويعرض بالآخر ، وذلك في حضرة العشيرة أو رجال منها ، فتنشأ الخصومات ، وقد تقوم الحروب وتدوم طويلا ، يستدعى الطرفان حكما "أو محكما"، وكانوا يبذلون فـي ذلـك عطايا وذبائح ، وقد يتحملها الحكم ليصلح بين الطرفين ، ويراعي في حكومته (قضائه) أن

يحقق التراضي بينهما والنصفة ، ولا ينصر أحدهما على الآخر؛ لئلا تقوم خصومة بينهما؛ فيقطع الخلاف بمدح كل سيد منهما بما فيه دون أن ينتقص من الآخر أو يفاضله عليه ويمدح الآخر بما فيه ، ويسوي بينهما في الفضائل، ويجعلهما كفرسي الرهان المتكافئين في السبق ويذبح الذبائح ويطعم الجمعين، ويعرف الحكم في أحياء العرب بصنيعه هذا ولا تنقض حكومته في القضايا.

وقد ارتضى وفد تميم بما قاله خطيب النبي صلى الله عليه وسلم وشاعره فقضوا بالفوز، واعترفوا بقوة حجة النبي صلى الله عليه وسلم وأسلموا[1].

وقد أتى وفد بني تميم ، وفاخروا النبي صلى الله عليه وسلم بمالهم من مجد في العرب ، ومن فيهم من الملوك ، وذكروا انتصاراتهم وشراستهم في القتال ، وما أصابوه من غيرهم وقتلاهم في العرب ، وفخروا بكرمهم وما يصنعونه بالأضياف وسنى القحط. وأنهم اصحاب السيادة وهم رؤساء الناس. وقد كان بنو تميم من أشراف العرب ، وأصحاب بأس شديد وشراسة في القتال ، وكانت العرب تهابهم لشجاعتهم وكثرتهم .

وكان في وفد تميم عُطَارد بن حاجب بن زُرَارة في جماعة من أشراف بني تميم منهم الأقرع بن حابس ، والزبرقان ، وعمرو بن الأهتم ، والحبحاب بن يزيد، فلما دخلوا المسجد نادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من وراء حجراته وكانت إلى جوار المسجد، فقالوا اخرج إلينا يا محمد ، فتأذّى منهم النبي صلى الله عليه وسلم، وهم الذين نزلت فيهم سورة الحجرات[2]. وقيل إن عددهم سبعون أو ثمانون رجلاً.

وروى أنهم رفعوا أصواتهم من وراء الحجرات ، ونادوا رسول الله مجردا من لقبه وقالوا: يا محمد، قد جئنا لنفاخرك، وقد جئنا بشاعرنا وخطيبنا، وقد تأذى من أصواتهم وسوء خطابهم، فخرج إليهم صلى الله عليه وسلم فجلس، فقام الأقرع بن حابس وكانت فيه فظاظة البداوة فقال : والله ــ إن مدحي لزين وإن ذمي لشين، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "ذلك الله"، فقالوا : إنا أكرم العرب ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أكرم منكم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن إبراهيم عليه السلام "، فهو نبي ابن بني ابن نبي ابن نبي ولم يذكر نفسه صلى الله عليه وسلم تواضعاً فهو أكرم النسب ، ولم يذكر نسبه وعلوه

---

(1) ارجع إلي: الحكم القبلي في العصر الجاهلي، الدكتور محمود عكاشة ، مكتبة الأنجلو المصرية، ط ٢٠٠٢م ص١٢٥.

(2) الحجرات : المراد بها مسكن رسول الله ﷺ ، وكانت إلي جوار المسجد ولها باب يؤدي إليه . وقد نزلت سورة الحجرات في وفد تميم.

على أهل زمانه[1].

فقالوا : يا محمد، جئناك نفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا ، قال : " قد أذنت لخطيبكم فليقل، وجلس النبي صلى الله عليه وسلم، وجلس الناس فقام عطارد بن حاجب ، فقال: الحمد لله الذي له علينا الفضلُ والمَنّ ، وهو أهله ، الذي جعلنا مُلوكا ووهب لنا أموالا عِظَامًا نفعل فيها المعروف ، وجعلنا أعزّ أهل المشرق ، وأكثر عَدَداً ، وأيْسَرَهُ عُدَّةً، فمن مثلنا في الناس ؟ ألسنا برؤس الناس وأُولى فضلهم ؟ فمن فَاخَرَنَا فلْيَعْدُدْ مثل ما عددنا، وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام ، ولكنَّا نحيا من الإكثار فيما أعطانا ، وإنا نعرف بذلك ، أقول هذه لأن تأتوا بمثل قولنا ، وأمر أفضل من أمرنا، ثم جلس[2].

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لثابت بن قيس بن الشماس (من بنى الحرث بن الخزرج): " قُمْ فَأجِبِ الرَّجُلَ في خُطْبَتِه"، فقام ثابت فقال: الحمد لله الذي السموات والأرض خَلْقه ، قَضَى فيهن أَمْرَهُ ، وَوَسِعَ كرسِّيهُ علمه ، ولم يك شيء قط إلا فضله ، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكا ، واصطفى من خير خلقه رسُولاً أكرمه نسباً ، وأصْدَقَهُ حديثا ، وأفضله حسبا ، فأنزل عليه كتابه ، وائتمنه على خلقه ، فكان خيرة الله من العالمين ، ثم دعا الناس إلى الإيمان به فآمن برسول الله المهاجرون من قومه وذوي رحمه ، أكرمُ الناس حَسَباً، وأحسن الناس وجوها ، وخيرُ الناس فَعَالاً ، ثم كان أول الخلق إجابه واستجاب لله حين دعاه رسول الله نحن ، فنحن أنصار الله ، ووزراء رسوله ؛ نقاتل الناس حتى يؤمنوا بالله، فمن آمن بالله ورسوله منع منا ماله ودمه ، ومن كفر جاهدناه في الله أبدا ، وكان قتله علينا يسيرا ، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي والمؤمنين والمؤمنات، والسلام عليكم. فقام الزِّبرقان بن بدر، فقال :

نَحْنُ الْكِرَامُ فَلاَ حَيٌّ يُعَادِلُنَا ... منَّا الْمُلُوكُ وَفِينَا تُنْصَبُ الْبِيَعُ[3]

وَكَمْ قَسَرْنَا مِنَ الأَحْيَاءِ كُلِّهِمُ ... عِنْدَ النِّهَابِ وَفَضْلُ الْعِزِّ يُتَّبَعُ

وَنَحْنُ نُطْعِمُ عِنْدَ الْقَحْطِ مُطْعَمَنَا ... مِنَ الشِّوَاءِ إِذَا لَم يُؤْنَسِ الْقَزَعُ[4]

بِمَا تَرَى النَّاسَ تَأْتِينَا سَرَاتُهُمُ ... مِنْ كُلِّ أَرْضٍ هُوِيًّا ثُمَّ نَصْطَنِعُ[5]

---

(1) ارجع إلي الأغاني جـ٤/٧، ٨.

(2) السيرة ، ٤ / ٢٢٤، والأغاني ٤/٨ .

(3) البيع : مواضع الصلوات والعبادات ، واحدتها بيعة ، ومنه قوله تعالى : (لهدمت صوامع وبيع) .

(4) القزع : سحاب رقيق يكون في الخريف ، واحدته قزعَة ، بفتح القاف والزاي فيهما .

(5) هويا : سراعا ، يريد : يقصدونهم للضيافة ، وسراة أعلى الشيء ويريد عِلية القوم جمعها: سروات.

فَنَنْحَرُ الْكُومَ عُبْطــاً فِي أَرُومَتِنَا ... لِلنَّازِلِينَ إِذَا مــا أُنْزِلُــوا شَبِعُوا[1]
فلا تَــرانَا إِلَى حَيّ نُفَاخِـــرُهُمْ ... إِلاَّ اسْتَقَادُوا فَكَانُوا الرَّأْسَ يُقْتَطَعُ
فَمَنْ يُفَاخِــرُنَا فِي ذَاكَ نَعْرِفُــهُ ... فَيَرْجِــعُ الْقَوْمُ والأَخْبَارُ تُسْتَمَــعُ
إِنــَّا أَبَيْنَا وَلاَ يــأْبَى لَنَا أَحَــدٌ ... إِنَّا كَذَلِكَ عِنْــدَ الْفَخْرِ نَرْتَفِــعُ[2]

وكان حسان رضي الله عنه غائباً ، فبعث إليه رسول الله ﷺ، قــال حــسان : جــائني رسوله، فأخبرني أنه إنما دعاني لأجيب شاعر بني تميم، فخرجت إلى رسول الله ﷺ، وأنا أقول[3]:

مَنَعْنَا رَسُولَ اللهِ إِذْ حَلَّ وَسْطَنَــــا ... عَلَى أَنْفِ رَاضٍ مِنْ مَعَدٍ وَرَاغِــمِ
مَنَعْنَاهُ لَمَّا حَــلَّ بَيْــنَ بُيُوتِنَــــا ... بِأَسْيَافِنَــا مِــنْ كُــلِّ بَاغٍ وَظَالِــمِ
بِبَيْتٍ حَرِيــدٍ عِــزُّهُ وَثَــــرَاؤُهُ ... بِجَابِيَةِ الجَوْلاَنِ وَسْطَ الأَعَاجِــمِ
هَلِ المَجْدُ إِلاَّ السُّؤْدَدُ الْعَوْدُ والنَّــ ... ـدَى وجَاهُ الْمُلُوكِ وَاحْتِمَالُ الْعَظَائِمِ ؟

قال حسان: فلما انتهيت إلى رسول الله ﷺ وقام شاعر القوم؛ فقال ما قال عرضت فــي قوله ، وقلت على نحو ما قال ، فلما فرغ الزبرقان قال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت :

" قم يا حسان فأجب الرجل فيما قال "

قال : فقام حسان؛ فقال :

إِنَّ الذَّوَائِبَ مِنْ فِهْرٍ وَإِخْوَتَهُــــمْ ... قَدْ بَيَّنُوا سُنَّةً للنَّاسِ تُتَّبَــــعُ[4]

---

(1) الكوم : جمع كوماء ، وهي الناقة العظيمة السنام ، وعبطاً : أي من غير علة ، تقول مات فلان عبطــة ، واعتبط فلان ــ بالبناء للمجهول ــ إذا مات شابا أو من غير علة ، والأرومة : الأصل .

(2) قال ابن هشام: يروى "منا الملوك وفينا تقسم الرَّبَعُ" ويروى "مِنْ كُلِّ أَرْضٍ هَوَانَا ثَمَّ مُتَّبَعُ" رواه لي بعض بني تميم،وأكثر أهل العلم بالشعر ينكرها للزبرقان .كان من عادتهم في الجاهليــة إذا غنمــوا أن يعطــوا الرئيس ربع الغنيمة، ويسمى المرباع، والربع أيضاً، وهذا كناية عن أنهــم الرؤســاء والــسادة. الــسيرة جـــ٤/٢٢٦ .

(3) ستأتي الأبيات كاملة .

(4) الذوائب : الأعالي ، واحدتها ذؤابة ، وأراد ههنا السادة .

يَرْضَى بِهِمْ كُلُّ مَنْ كَانَتْ سَرِيـــرَتُهُ ... تَقْوَى الإلهِ وكُلَّ الخَيْرَ يَصْطَنِــعُ[1]

قَوْمٌ إذَا حَارَبُوا ضَرُّوا عَدُوَّهُـــــمُ ... أوْ حَاوَلُوا النَّفْعَ فِي أشْيَاعِهِمْ نَفَعُوا

سَجِيةٌ تِلْكَ مِنْهُمْ غَيْرُ مُحدثَـــــــةٍ ... إنَّ الْخَلاَئِقَ فَاعْلَمْ شَرُّهَا الْبِـدَعُ[2]

إنْ كَانَ فِي النَّاسِ سَبَّاقُونَ بَعْدَهُـمُ ... فَكُلُّ سَبْقٍ لأَدْنَى سَبْقِهِمْ تَبَـــــعُ

لاَ يَرْفَــعُ النّــاسُ مَا أَوْهَت أَكُفُهُـمُ ... عِنْدَ الدِّفَاعِ وَلاَ يُوهُونَ مَا رَقَعُوا[3]

إنْ سَابَقُوا النَّاسَ يَوْماً فَازَ سَبْقُهُـمُ ... أَوْ وَازَنُوا أَهْلَ مَجْدٍ بِالنَّدَى مَتَعُوا[4]

أَعِفَّةٌ ذُكِرَتْ فِي الْوَحْـيِ عِفَّتُهُـــمْ ... لاَ يُطْبِعُونَ وَلاَ يُرْدِيهُمُ طَمَـــــعُ[5]

لاَ يَبْخَلُونَ عَلَى جَارٍ بِفَضْلِهِـــــمُ ... وَلاَ يَمَسُّهُمُ مِنْ مَطْمَعٍ طَبَـــــعُ[6]

إذَا نَصَبْنَا لَحيٍ لَمْ نَدِبَّ لَهُـــــمْ ... كَمَا يَدِبُّ إِلَى الْوَحْشِـــيَّةِ الذَّرَعُ[7]

نَسْمُو إِذَا الْحَرْبُ نَالَتْنَا مَخَالِبُهَـــا ... إِذَا الزَّعَانِفُ مِنْ أَظْفَارِهَا خَشَعُوا[8]

لاَ يَفْخَرُونَ إِذَا نَالُوا عَدُوَّهُـــــمُ ... وَإِنْ أُصِيبُوا فَلاَ خُورٌ وَلاَ هُلُـعُ[9]

كَأَنَّهُمْ فِي الْوَغَى وَالْمَوْتُ مُكْتَنِـــعٌ ... أُسْدٌ بِحَلْيَةَ فِي أَرْسَاغِهَا فَـدَعُ[10]

خُذْ مِنْهُمُ مَا أَتَى عَفْواً إِذَا غَضِبُـوا ... وَلاَ يَكُنْ هَمُّكَ الأَمْرَ الَّذِي مَنَعُوا[11]

فَإِنَّ فِي حَرْبِهِمْ فَاتْرُكْ عَداوَتَهُـــمْ ... شَرّاً يُخَاضُ عَلَيْهِ السُّمُّ وَالسَّـلَعُ[12]

---

(1) جاء في رواية : يرضى بها كل من كانت سريرته : تقوى الإله وبالأمر الذي شرعوا .

(2) السجية : الطبيعة والخليقة .

(3) أوهت : أضعفت وهدمت .

(4) متعوا : زادوا وظهروا عليهم ، تقول : متع النهار ، إذا ارتفع .

(5) لا يطبعون : أي لا يتدنسون .

(6) الطبع ــ بفتح الطاء المهملة والباء جميعاً ــ الدنس .

(7) نصبنا : أظهرنا لهم العداوة ولم نسرها في أنفسا ، والذرع ــ بفتحتين ــ ولد البقرة الوحشية .

(8) الزعانف : أطراف الناس وأتباعهم ، وخشعة : خضعوا وتذللوا .

(9) الخور : جمع أخور ، وهو الضعيف ، والهلع : جمع هلوع ، وهو الجبان الخائف .

(10) الموت مكتنع : دان قريب، تقول : اكتنع منه؛ إذا دنا، وحيلة : اسم موضع تنسب إليه الأسود ، قال أبو ذر: "يروى بالباء المنقوطة بواحدة من أسفل ، ويروى بالياء المنقوطة باثنتين من أسفل وهو الصواب، قال ياقوت: "حلْية ــ بالفتح ثم السكون وياء خفيفة وهاء: مأسدة بناحية اليمن، قال بعضهم :

كَأَنَّهُمُ يَخْشَوْنَ مِنْك مُدَرَّباً ... بِحَلْيَةَ مَشْبُوحَ الذِّرَاعَيْنِ مِهْزَعَا

وقيل: حيلة : وادبين أعيار وعليب ... وقيل : هو من أرض اليمن، وقيل : موضع بنواحي الطائف ، الأرساغ : جمع رسغ، وهو موضع مربط القيد، وفدع : اعوجاج إلي ناحية. السيرة ٢٨٨/٤.

(11) عفوا : أي من غير طلب ولا مشقة .

(12) السلع : نبات مسموم .

أَكْرَمْ بِقَوْمٍ رَسُولُ اللهِ شِيعَتُهُمْ إِذَا تَفَاوَتَتِ الأَهْوَاءُ وَالشِّيَعُ
أَهْدَى لَهُمْ مِدْحَتِي قَلْبٌ يُوَازِرُهُ فِيمَا أُحِبُّ لِسَانٌ حَائِكٌ صَنَعُ [1]
فَإِنَّهُمْ أَفْضَلُ الأَحْيَاءِ كُلِّهِمُ إِنْ جَدَّ بِالنَّاسِ جِدُّ الْقَوْلِ أَوْ شَمَعُوا[2]

مدح حسان رضي الله عنه النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه من مسلمي قومه؛ فهم أعالي بني فهر وإخوتهم الأنصار، وهؤلاء قد بينوا للناس أمورا عظيمة جديرة بالاتباع، فقد وضعوا منهجا يتبع في الحياة ، ويرضى به كل مؤمن وداعية خير، وهم شجعان إذا حاربوا أصابوا عدوهم وأضروا به ، وإن أرادوا النفع لحلفائهم نفعوهم.

وهذه الأعمال صفات فيهم وسجايا متمكنة منهم ، وليست ادعاء فشر الخلق ما يدعيه الإنسان في نفسه، وليس فيه يخادع به الناس. فإن كان في الناس سباقون بعدهم في هذه الخلائق فهم أئمة الناس في هذه الخلائق ، فهم أصحاب فضيلة وأصحاب الحرب وليس من ورائهما فضل. ولا يستطيع الناس أن يسدوا أو يصلحوا ما أضعفت أيديهم ، يريد أن الناس لا تقدر على دفعهم ولا يستطيعون أن يهدموا ما فعلوه وأصلحوه، وإن سابقوا الناس يوما سبقوهم ، وإن فاخروا الناس بمالهم من سجايا وكرم غلبوهم .

وقد مدحهم الله تعالى بالعفة ، فلا يتدنسون ولا يرغبون في معصية ، ويجتنبون الفواحش ما ظهر منها وما بطن. ولا يبخلون على جار بما عندهم ، ولا يمسهم سوء من أحد. وإذا أظهرنا لقوم العداوة لم نداهنهم أو نراوغهم بل أظهرناها لهم. ونحن نتطلع للحرب ونظهر لها ، إذا أطراف الناس وأتباعهم خضعوا وتذللوا خوفا، يريد يثبتون ولا يفرون ، إذا خاف الناس وذلّوا. ولا يشمتون بعدوهم إذا هزموه ، وإن أصيبوا لا يجزعون ويجبنون. كأنهم في الحرب أسد في وادي حلية مقيدة وقد ثارت بواديها تتطلب الفكاك ، وقد أحاط الموت بها يصف شراستهم وهم يواجهون الموت في المعارك بالأسد التي اجتمعت في واديها وقد هيجها قيدها. فخذ منهم ما منوا عليك به ولا تطلب منهم ما منعوك وهم غاضبون. ولا يواجههم بعداوة فإن حربهم شر شديد يقتل. فهم أكرم الناس برسول الله ﷺ ، وهم شيعة إذا ضلت الناس واختلفت. وأهدى لهم مديحي قلب مفتون بهم ويؤازره لسان مغوه يحسن ما يقوله ويحكمه. فهم أفضل أحياء العرب كلهم إذا افتخروا بجد أو بهزل .

وقد افتخر حسان ﷺ بمكارم الأخلاق وما من الله تعالى على المؤمنين من فضل وخلق

---

(1) صنع ــ بفتح الصاد والنون جميعاً ــ صانع ماهر يتقن ما يصنعه ويحسن عمله .

(2) شمعوا : هزلوا ، وأصل الشمع الطرب واللهو ، ومنه قولهم : جارية شموع؛ إذا كانت كثيرة الطرب.

وما يتمتع به المسلمون من شجاعة وإقدام وصبر في القتال وعفتهم وحسن خلقهم ولم يفخر بمظالم الجاهلية، بل هم سادة الناس بخلقهم، وأئمتهم بفعالهم ودعوتهم، وكل الناس تبع لهم في الخير، ولن يسبقهم إليه أحد أو يعلو عليهم .

وتعد هذه القصيدة أقوى قصائد المديح في شعر حسان ، فقد قارع بها شاعر تميم ومن معه ، فقد مدح الزبرقان بن بدر قومه وفخر بهم ، فذكر كرمهم وسيادتهم، وافتخر بغارات قومه ونهبهم وقتلاهم ، وافتخر بخسائرهم وتعالى على الناس بفخره، ولكن حسانا افتخر بإخوانه من المهاجرين والأنصار الذين وضعوا للناس منهجا يعمل به كل المؤمنين ، ومدحهم أحسان أخلاقهم ، وما هم عليه من خلق وسلوك ، ومدح عفتهم بيد أن الأول لم يمدح خلقا ولا سلوكا ، فمدح قومه مدحاً حياً. ثم افتخر بمكان النبي ﷺ فيهم ونزوله عليه ونصرتهم إياه، وطاعتهم له ، وجهادهم معه المشركين ، ومدحهم في الحرب وذكر فعالهم فيها وافتخر بتشيعهم لرسول الله ﷺ ومولاته مجمع في مدحه وفخره بين الحسي والمعنوي ، ولم يفخر بشائبة من شوائب الجاهلية ، فترك المظالم والعداوات والقتل والنهب، والغارة. وجعل مدحته هدية للمسلمين جميعا من قلب يجبهم ولسان زرب يؤازره. وقد علق الدكتور زكي مبارك على هذه القصيدة وابدى إعجابه بها ، ورأى أنها أقوى مدائح حسان ، ولكنه جعلها ملاحاة ومخاصمة قارع بها خصومة ، وأنه كان يتخذ من مدح الرسول ومدح أهله سناداً لما عمد إليه من المقارعة والملاحاة، وأزيده أنها هذا كان في الحق فلم يستعن برسول الله صلى الله عليه وسلم في باطل، فقد تبنى حسان رضي الله عنه ما الصدق في شعره بعد إسلامه، قال في ذلك[1]:

وإنّ أشعر بيت أنت قائلة بيت يقال إذا أنشدته صدقاً

ولكن الدكتور مبارك عدل عما صدر به كتابه من عزمه على إنصاف دينه ورجاله، فقد قال: " وهذه القصيدة تمجيد لأتباع الرسول، والشاعر مدفوع إليها بقوة العصبية، وليس من روح الدين إلا إشارته إلى وحي القلب، إذ يقول :

أهدي لهم مدحتي قلب يؤازره فيما يحب لسان حائك صنعُ [2]

وهذا القول فيه نظر، فالرجل مدح ما لقومه في الدين،وذكر فضائلهم، ليقابل به ما ذكر شاعر تميم عن قومه ، ولم تك هنالك ملاحاة أو تهاجي ؛ بل مناظرة بين طرفين ؛ الهدف منها أن يعرف كل طرف منهما ما للآخر من فضل ، فلما كان كثير الفضل للإسلام اعترفوا

---

(1) ديوان حسان ص٥٥

(2) المدائح النبوية ، الدكتور زكى مبارك ص٣٣

له بذلك ، قال أحدهم لخطيبه : أخطب من خطيبنا ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا ، وأسلموا ، ولم يحمل شيء من الشعر على الهجاء ، فالشاعرا لم يتهاجا ولم يعرض أحد الخطيبين بالآخر ، ولم يختلف أسلوب حسان في الفخر عما قاله في قصائده الأخرى التي أخلص المدح فيها لقومه الأنصار فمدح ما لهم في الإسلام ، وترك جاهليتهم التي رجعوا عنها في الإسلام وتابوا منها .

وكان ذكر القبيلة في المدح والفخر غير مذموم بل ذم الإسلام الدعاء بدعوى الجاهلية فيما شجر بين الناس من خلاف ــ لأنها تجلب العداوة وتسفك الدماء ولا يستعدي الرجل قومه على آخرين في الإسلام ، وليس شعر حسان من ذلك ، وقد كان النبي ﷺ يفخر بنسبه في قريش ، ويجعل لكل قبيلة لواء يعقده لرجل منهم ، ويفاضل قبيلة على أخرى في الدين والفضل وحسن البلاء والبذل والجهاد، فالقبيلة كانت جزءا من المجتمع العربي ، وقد استمع لهجاء حسان قريشا وافتخاره بقومه الأنصار الذين قتلوا رءوسا من قريش يوم بدر. ولم يمنعه ﷺ من ذلك، ولم ينتصر لقبيلته قريش فلحمة الدين كانت أقوى في الدين من لحمة القبلية، فقد قتل رجال من المسلمين رجالا من ذويهم مشركين، وكانت العاطفة الدينية من وراء قصائد حسان فقد جاش صدره في المواقف بقصائد كثير كلها في الدين.

وحسان القائل مفتخرا بقومه[1] :

الله أكرمنا بنصر نبيه ... وبنا أقام دعائم الإسلام
وبنا أعز نبيه وكتابه ... وأعز بالضرب والإقدام
في كل معترك تطير سيوفنا ... فيه الجماجم عن فراخ الهام
ينتابنا جبريل في أبياتنا ... بفرائض الإسلام والأحكام

وجاء في رواية أخرى رواها بن هشام أن الزبرقان بن بدر لما قدم رسول الله ﷺ في وفد بني تميم قام فقال :

بِأَنَا فُرُوع النَّاس فِي كُلِّ مَوْطِنٍ ... وَأَنْ لَيْسَ فِي أَرْضِ الْحِجَازِ كَدَارِمِ[2]
وَأَنَّا نَذُودُ الْمُعْلَمِينَ إِذَا انْتَخَوْا ... وَنَضْرِبُ رَأْسِ الأَصْيَدِ الْمُتَفَاقِمِ[3]

---

(1) الديوان ص ٢٣٠ .

(2) دارم : من بني تميم .

(3) المعلمين : الذين يعلمون أنفسهم بعلامة يعرفون بها ليطلع الناس على بلائهم في الحروب، ويروى في مكانه "العالمين"، وانتخوا : تكبروا وأعجبوا بأنفسهم، والأصيد : المتكبر الذي يلوي عنقه يميناً وشمالاً، والمتفاقم: المتعاظم، وقد قالوا: تفاقم الخطب، إذا اشتد وعظم وصعب الخلاص منه.

وَأَنَّ لَنَا المرْبَاعَ فِي كُلِّ غَـــارَةٍ نُغـيرُ بِنَجْدٍ أوْ بِأَرْضِ الأَعَاجِـمِ[1]

فقام حسان بن ثابت فأجابه فقال :

هَل المَجْدُ إلاَّ السُّؤْوَدُ الْعَوْدُ وَالنَّدَى وَجَاهُ الْمُلُوكِ وَاحْتِمَالُ الْعَظَائِمِ[2]

نَصـــرْنَا وَآوَيْنَا النَّبِـيَّ مُحَمَّـدا عَلَى أَنْفِ رَاضٍ مِنْ مَعَدٍ وَرَاغِمِ

بِحَـيٍ حَرِيـد أَصْـلُهُ وَثَـــرَاؤُهُ بِجَابِيَـةِ الْجَوْلاَنِ وَسْطَ الأَعَاجِمِ[3]

نَصَرْنَاهُ لَمَّـا حَـلَّ وَسْطَ دِيَـارِنَا بِأَسْيَافِنَـا مِنْ كُلِّ بَـاغٍ وظَـالِمِ

جَعَلْنَـا بَنِينَـا دُونَـهُ وَبَنَـاتِنَـا وَطِبْنَـا لَهُ نَفْسـاً بِفَيءِ الْمَغَـانِمِ

وَنَحْنُ ضَرَبْنَا النَّاسَ حَتَّى تَتَابَعُوا عَلَى دِينِـهِ بِالمُرْهَفَاتِ الصَّوَارِمِ[4]

وَنَحْنُ وَلَدْنَا مِنْ قُرَيْشٍ عَظِيمَهَـا وَلَدْنَـا نَبِيَّ الخَيْرِ مِنْ آلِ هَاشِمِ[5]

بَنِي دَارِمٍ لا تَفْخَرُوا إِنَّ فَخْـرَكُمْ يَعُودُ وَبَـالاً عِنْـدَ ذِكْرِ المَكَارِمِ[6]

هَبِلْتُمْ عَلَيْنَـا تَفْخَـرُونَ وَأَنْتُـمُ لَنَـا خَوَلٌ مَـا بَيْنَ ظِئْرٍ وَخَادِمِ[7]

فَإِنْ كُنْتُمُ جِئْتُـمْ لِحَقْـنِ دِمَائِكُـمْ وَأَمْوَالِكُمْ أَنْ تُقْسَمُوا فِي الْمَقَاسِمِ

فَلاَ تَجْعَلُـوا لله نِـــدًّا وَأَسْلِمُـوا وَلاَ تَلْبِسُوا زِيّـَا كَـزِيِّ الأَعَاجِمِ[8]

لقد قدم شاعر تميم ما لديه من مفاخر لقومه، وهي لا تختلف عما ذكره الزبرقان بن بدر في قصيدته الأولى، فقد أعاد صياغتها غير أنه ترك الكرم والبيع التي عبدوا الله فيها، وذكر الحرب، ولا يستدعي الموقف ذكر الحرب؛ فقد قدموا ليصالحوا النبيﷺ ويسلموا وهم أهل بادية خشن جلاف أساءوا الدخول على النبي صلى الله عليه وسلم ، فنادوه من

---

(1) المرباع : ربع الغنيمة ، وهو حظ الرئيس، ويكني بذلك عن أنهم رؤساء ، ونجد : أراد به ما ارتفع وعلا من الأرض.

(2) العود : القديم، والذي يتكرر على الزمان، والندى : الكرم والعطاء ، والعظائم : جمع عظيمة .

(3) حي حريد ــ بالحاء المهملة ــ منفرد لا يختلط بغيره لعزته ، وجابية الجولان : موضع بالشأم ، وأصل الجابية الحوض الكبير وهو الذي يسميه الناس الصهريج .

(4) المرهفات الصوارم : أراد السيوف المحددة القاطعة .

(5) ولدنا نبي الخير ، ذلك لأن أم عبد المطلب بن هاشم جد النبي ﷺ كانت من بني النجار، فهم أخواله رضى الله عنهم.

(6) الوبال : الهلاك .

(7) هبلتم : فقدتم، وتقول : هبلته أمه؛ تريد الدعاء عليه بالفقدان، والظئر ــ بكسر فسكون ــ التي ترضع ولد غيرها، وهى تأخذ على ذلك أجراً، وأصله الناقة التي تعطف على ولد غيرها، والخادم: يقال للذكر والأنثى ، وخول : عطية من العبيد.

(8) الند ــ ومثله النديد ــ هو المثل والشبيه .

وراء الحجرات باسمه دون لقبه، ثم افتخر رجال منهم بمالهم ولقومهم، وقد تنكبهم الكبر على الناس والتعالي ، وذكروا شيئا من مظالم الجاهلية، كالغارة والنهب وأخذ السيد ربع الغنيمة وهو ما أبطله الإسلام. وقد كال حسان رضي الله عنه لهم الصاع صاعين وهدم ما فخروا به من كثرة العدد ومظالم الجاهلية. فنقض رضي الله عنه قولهم، فقال: إن المجد في السيادة والكرم وسلطان الملوك ومواجهة الكوارث، وليس في الغارة، والنهب والفتك والظلم بل المجد في نصرة النبي صلى الله عليه وسلم، وأنهم جعلوا أنفسهم دروعا له تقيه من الأعداء، وهذا كان من الأنصار في الإسلام، وزاد عليه أنهم أخوال النبي صلى الله عليه وسلم؛ فلا تفخروا يا بني دارم فقط يكون فخركم وبالا عليكم، وكيف تفخرون علينا وأنتم عبيد إحساننا وهباتنا ، فإن كنتم جئتم حقنا لدمائكم وأموالكم، فأسلموا قبل أن تقتلوا وتصبح أموالكم غنيمة، ولا تتعالوا كبرا وعمى وغطرسة كالأعاجم . ولا شك أن ما عرضه حسان أخصم، وأحج مما فاخر به شاعرهم حسان، وقد ذكرت المصادر أنهم أنصفوا النبيﷺ من أنفسهم . قال ابن إسحق:" فلما فرغ حسان بن ثابت من قوله قال الأقرع بن حابس: وأبى إن هذا الرجل لمؤتى له[1]؛ لخطيبه أخطب من خطيبنا ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا "، وسلموا بحجة النبيﷺ، وكان الحكَم في مثل هذه المنافرات محايداً من غير الفريقين، فقضوا هم أنفسهم للنبيﷺ فلما فرغ القوم أسلموا، وجَّوزهم رسول اللهﷺ فأحسن جوائزهم[2]. وكان عمرو بن الأهتم قد خلّفه القوم في ظهرهم[3]، وكان أصغرهم سناً، فقال قيس بن عاصم، وكان يبغض عمرو بن الأهتم : يا رسول الله، إنه قد كان رجل منا في رحالنا، وهو غلام حدث، وأزرى به، فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ما أعطى القوم، فقال عمرو بن الأهتم ــ حين بلغه أن قيساً قال ذلك ــ يهجوه[4]:

ظَلَلْتَ مُفْتَرِشَ الْهَلْبَاءِ تَشْتِمُنِي ... عِنْدَ الرَّسُولِ فَلَمْ تَصْدُقْ وَلَمْ تُصِبِ[5]

سُدْنَا كُمُ سُؤْدَداً رَهْواً وَسُؤْدَدُ كُمْ ... بَادٍ نَوَاجِذُهُ مُقْعٍ عَلَى الذَّنَبِ[6]

---

(1) لمؤتى له ــ بضم الميم وفتح الهمزة وتشديد التاء ــ أى : أنه موفق، وتقول أيضاً:آتاه الشيء،إذا وافقه.

(2) الجوائز : العطايا ، واحدتها جائزة .-

(3) ظهرهم : إبلهم .

(4) السيرة جـ٤/٢٣٢ .

(5) الهلب والهلباء : شعر الذنب ، وقد استعاره ههنا للإنسان .

(6) رهوا ــ بالراء المهملة ــ متسعاً، والنواجذ: الأسنان ، واحداها ناجذ ، قال الحماسى :

قَوْمٌ إذَا الشَّرُّ أَبْدَى نَاجِذَيْهِ لَهُمْ ... طَارُوا إلَيْهِ زَرَافَاتٍ وَوُحْدَانَا =

ولم تجد المفاخرة مكانا لها في الإسلام ، بعد أن دخل المشركون في دين الله، غير ما ابتدر إليه الجاهليون ، وما قاموا به قبل أن يسلموا ، وذلك لما في المفاخرة من تعالٍ وكبر ومخاصمة ومفاضلة بين القبائل مما يوقع بينهم الضغينة والتحاسد ، ويجلب القتال . ولكن الفخر ظل في موضعه ، لأن الشاعر كان يفخر بذاته وقومه دون أن يعقد مقارنة مع أحد ، فيذكر فضائل نفسه وقومه وحزبه ومذهبه وشيعته. وقد ترك المفتخر مظالم الجاهلية وشينها ، وما حرمه الإسلام لئلا يكون سُبَّة يعيره الناس به ويطعنون في دينه ، وكانوا يسمون ذكر مظالم الجاهلية ردة وتبدي (ردة عن الإسلام وتخلق بأخلاق البادية) ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم ينهي عن التبدي وهو ترك الحضر والعودة إلى البادية ، فالحضر أحفظ لدينهم ومعاشهم .

** ** ** **

= ومقع على الذنب : هو من قولهم : أقعى الكلب ؛ إذا جلس على أليتيه وضم ساقيه وأمر ذنبه خلفه . السيرة جـ٤/٢٣٣.

الرِّثـــاء

الرثاء : هو التفجع على الميت والتحزن عليه وبكاء أفضاله والتحسر على فقده ، وذكر محاسنه عقب موته، ويعد الرثاء مدحاً بيد أنه يكون للميت .

وهو غرض قديم بدأه الجاهليون ، فقد كانوا يرثون أبطالهم في قصائد حماسية، فيثيرون القبائل لتأخذ بثأرهم، وكانوا يمجدون أعمالهم ويذكرون صفاتهم ويذكرون فضاءلهم ، ويزعمون أموراً تحدث للميت منها أن هامة تخرج من رأسه تطلب ثأره، وكانت هذه البكائيات لا تخلو من إثارة المشاعر والدعوة إلى الانتقام، وندب العشيرة لذلك، وكانوا يفعلون أمورا تثير الجزع وتشرى الشر، ويظهرون حزنهم العميق إزاء فقد الميت، ويطلب الباكي من النساء أن يبكين ويضربن الخدود، ويشققن الجيوب تحسرا عليه وإمعانا في أثر الخطب على النفس .

وظهر لون من الرثاء (وهو التأبين) في الجاهلية، ووجد هذا على بعض القبور الأثرية بشمال الجزيرة مدونا بخطوط ثمودية وسريانية ، فقد كتبوا على القبور اسم الميت ولقبه وبعض أعماله العظيمة ، ويدعون فيها بالصبر والإيمان بالقدر. وتطور فن الرثاء إلى أن رثى الشاعر نفسه قبل أن يموت ، ويذكر فيها ما يحدث له ويفعل به بعد موته وامتد ذلك في الإسلام وحمل على الموعظة والتعزي. ويعد رثاء الميت في ميدان الحرب أكثر أثراً وهماً وأفدح مصيبه عند الجاهليين.

وتعد الخنساء أشهر شاعرة عربية في الجاهلية في فن الرثاء، فقد عرفت بمراثيها في أخويها معاوية وصخر، ومم قالته في صخر:

وإن صخراً لتأتمُ الهُدَاة بهِ كأنه علمٌ فِي رأسه نار

والطريف في بعض قصائد الرثاء أنها بدأت بمقدمه ذكر فيها الطلل وديار الحبيب الدوارس ، أو يستهل القصيدة بالغزل ، ثم يدخل في الرثاء ، فيصور مصرع الفقيد وجزعه عليه ، ويتحدث عن خلاله الحميدة فيمدحه بالشجاعة ، والجود والإقدام والصبر والحزم.

وكان الراثي يطلب أحيانا نزول الغيث على قبر الميت ليصبح قبره طيباً عطراً ورياضاً جميلاً ، فيستسقى السماء لقبره. وبعضهم اتخذ الموت عبره وعظة ، فأكثر التأمل في الحياة ، فتأسى على ما مضى، فكل إنسان سوف يلاقيه ، قال طرفه[1] :

أرى الموت يعتامُ الكِرَام ويصطفي عقيلة مالِ الفاحش المُتشدِّدِ

---

(1) المعلقات العشر ص١٠٥ .

أرى العيش كنزاً ناقصاً كل ليلـــة وما تنقُص الأيامُ والدَهْرُ يَنْفَدِ
لعمــرُك إن المــوت ما أخطأ الفتى لكالطول المُرْخَى وثنياه باليَــد
متى يشــأ يوما يقـــــده لحتفــه ومــن يك في حبل المنية ينْقدِ

وقد أثر الإسلام في فن الرثاء، فالجاهليون كانوا يذكرون فضائل الميت وأعماله وفعلــه بالأعداء وشجاعته في الحرب، ولا يتورعون عن بعض أعماله التي تعسَّفَ فيهــا وظلــم ويعدونها من فضائله، ولكن الرثاء في الإسلام سلك نمطا آخر منها: ذكر محاســن الميــت وبلائه في الدين وفضائله الحميدة وكرم خلقه ومنزلته بين الناس ، ويدعو الله له بالرحمة والمغفرة وأن يخلفهم خيرا منه، وأن يأجرهم فيه.

وترك الرثاء بعض أمور الجاهلية من إظهار الجزع على الميت، وإثارة المشاعر، وذكر الثأر والهامة التي تخرج من رأس، والصدى واستنزال المطر على القبر لينعم صاحبه.

ويعد الرثاء مديحا بيد أنه يقال للميت فهو مدح للميت، وما يقال للحي يسمى مــديحا، وهو في الناس سواء، بيد أن ما قيل في النبيﷺ بعد موته يسمى مــديحا أيــضاً، وأكثــر المدائح النبوية قيل بعد وفاة الرسولﷺ ، وسميت مدحاً ؛ لأن النبيﷺ قائم فينا، موصول الحياة فخاطبه الشعراء مخاطبة الأحياء.

وقد روى صاحب السيرة مراثي حسان رضي الله عنه في النبيﷺعقب وفاته، وسماها صاحب السيرة رثاء؛ لأنه تفجع فيها عليه وتحزن على وفاته وشكى فراقه، ووصف حــال المؤمنين من بعده، أن القصائد التي قيلت في النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاته تــذكر محاسنه وشمائله وتثنى عليه ، وتذكر وصاياه وأدبه تسمى مديحاً، وعرفت من هذا النوع قصيدة البوصيري البردة التي أولها :

أمِنْ تَذكرِ جيَرانٍ بذِي سَلَمٍ مَزَجت دمْعاً جرى من مُقلة بدَمِ

وتعد هذه أشهر قصائد المديح، وعارضها الشعراء قديماً وحديثاً وتليهــا فــي المــديح شهرة قصيدة "بانت سعاد" لكعب بن زهير.

ويعد حسان بن ثابت رضي الله عنه أول من رثى الرسولﷺ، ولم نسمع عن رثاء فيه بعد حسان غير ما يسمى مديحاً، فما قيل فيه بعد الوفاة سمي مديحاً، فالمسلمون استطاعوا أن يتغلبوا على فقد جسده، وأيقنوا أنه موصول الحياة بكتاب الله فيهم وسنته وقوله وعمله وخلقه.

قال حسان بن ثابت يبكي رسول ﷺ، فيما رواه ابن هشام عن أبي زيد الأنصارى[1]:

بِطَيْبَــةَ رَسْــمٌ للرَّسُــولِ وَمَعْهَــدُ ... مُنِيرٌ وَقَدْ تَعْفُو الرُّسُومُ وَتَهْمُــدُ[2]

وَلاَ تَمْتَحِي الآيَاتُ مِنْ دَارِ حُرْمَــةٍ ... بِهَا مِنْبَرُ الْهَادِي الَّذِي كَانَ يَــصْعَدُ[3]

وَوَاضِــحُ آثَــارٍ وَبَــاقِي مَعَــالِمٍ ... وَرَبْعٌ لَــهُ فِيهِ مُصَلًّى وَمَسْجِــدُ[4]

بِهَا حُجُرَاتٌ كَانَ يَنْــزِلُ وَسْــطَهَا ... مِن اللهِ نُــورٌ يُسْتَضَــاءُ وَيُوقَدُ[5]

مَعَارِفُ لَمْ تُطْمَسْ عَلَى الْعَهْدِ آيُهَا ... أَتَاهَا الْبِلَــى فَالآىُ مِنْهَا تَجَــدَّدُ[6]

عَرَفْتُ بِهَــا رَسْمَ الرَّسُولِ وَعَهْدَهُ ... وَقَبْرًا بِهَــا وَارَاهُ فِي التُّرْبِ مُلْحِدُ[7]

ظَلَلْتُ بِهَــا أَبْكِي الرَّسُولَ فَأَسْعَدَتْ ... عُيُــونٌ وَمِثْلاَهَا مِنَ الْجَفْنِ تُسْعِدُ[8]

تَــذَكَّرَ آلاءَ الرَّسُولِ ، ومَــا أَرَى ... لَهَــا مُحصِيًا نَفْسِي ، فَنَفسِي تبلَّدُ[9]

مُفجَّعَــةٌ قَــدْ شَفَّهَــا فَقْــدُ أَحْمَدٍ ... فَظَلَّــتْ لآلاءِ الرَّسُــولِ تُعَــدِّدُ[10]

---

(1) الديوان، دار الجيل ، ص٩٣ والسيرة جـ ٤ / ٣٤٦ ، ٣٥٠ .

(2) طيبة : اسم من أسماء يثرب ، وقد عرفت به في الجاهلية ثم صارت مدينة الرسول ﷺ في الإسلام. تهمد : الهمود : البلى ، يمدح المدينة بأن بها آثار الرسول ﷺ، فقد كان يقيم بها، وقد تدرس وتبلى بقايا الآثار، ولكنه مازال حياً فيهم .

(3) يصعد : يصعد المنبر. فقدم المفعول ، ونصب ضميره . تمتحى : تزول .

(4) ربع : مكان به قوم .

(5) الحجرات : بيوتات النبي ﷺ .

(6) لم تطمس:لم تتغير، آية: علامة ، دليل. العهد ما هى عليه ، وروى: معالم بدل معارف . الديوان ص٣.

(7) عهد : تعاليم أى تعلمت فيها علمه الذي تركه، مُلحِد : من يلحد الناس .

(8) أسعدت : أعانت، والمراد بالجفن هنا العين نفسها .

(9) تبلد : تتحير والتبلد أيضاً نقيض التجلد وهو استكانة.

(10) مفجعة : موجعة .

ومَـــا بَلَغْتُ منْ كلّ أمْـرِ عَشيرَهُ ... ولَكِـنّ نَفسي بَعْـضَ مـا فيـه تَحمَـدُ[1]

أطالتْ وُقوفـاً تَذْرِفُ العَينُ جُهدَها ... عَلـى طَلَلِ القَبْـرِ الّـذي فِيـــه أحْمَـدُ[2]

فَبوركتَ ، يا قبرَ الرّسولِ، وبُوركتْ ... بِلادٌ ثَوَى فيهَـــا الرّشيـــدُ المُـسـدَّدُ [3]

وبُـورِكَ لَحْـدٌ منـكَ ضُمّنَ طَيّبـاً ... عَليـه بنـــاءٌ من صفيحٍ ، مُنَـضَّـــدُ[4]

تَهيـلُ عَلَيْهِ التـرْبَ أيْـد وأعْـيُنٌ ... عليـه ، وقـــدْ غـازَتْ بذلك أسْعُـــدُ[5]

لقـد غَيّبُـوا حِلْماً وعِلْمـاً ورَحمةً ... عَشيّـةَ عَلّـــوهُ الثّـــرَى ، لا يُوَسَّـدُ[6]

ورَاحـوا بحُـزْنٍ ليس فيهِمْ نَبيُّهُمْ ... وقَـدْ وَهَنَتْ منهُـمْ ظهـورٌ ، وأعـضُدُ[7]

يُبكّون مَـن تَبكي السّمواتُ يَوْمَـهُ ... ومَن قدْ بكَتهُ الأرْضُ فالنـــاس أكمَـدُ[8]

وَهَـــلْ عَدلَتْ يَوْمـاً رَزيّـةُ هَالك ... رَزِيـةَ يَـوْمٍ ماتَ فيـــه مُحَمّـــدُ[9]

تَقَطَّـعَ فيهِ مَنْزِلُ الوَحْـيِ عَنهُـمُ ... وقَد كان ذا نـور ، يَغـورُ ويَنْجِـــدُ[10]

يَدُلُّ على الرّحمنِ مَـنْ يقتَـدي بهِ ... ويُنْقِذُ مِـنْ هَـوْلِ الخَزَايـا ويُرْشِـــد [11]

إمامٌ لَهُـمْ يَهْديهِمُ الحـقَّ جَاهِـدًا ... مُعلـمُ صـدْقٍ ، إنْ يُطيعوهُ يـسعَـدوا[12]

عَفُوٌّ عـن الزّلاّتِ ، يَقبـلُ عُذْرَهم ... وَإنْ يُحسـنوا ، فاللهُ بـالخَيرِ أجْـوَدُ[13]

وَإنْ نـابَ أمْرٌ لم يَقومـوا بحَمْدِه ... فَمِـنْ عِنده تَيْـسيـرُ مَـا يَتَـشَـدّدُ[14]

فَبَيْنَـا هُمُ في نِعْمَـةِ اللهِ بيْنَهُـمْ ... دليـلٌ به نَهْـجُ الطّريقَةِ يُقْصَـــدُ[15]

---

(1) العشير : الجزء في الأصل، وقوله بعض ما فيه أي بعض ما في كل أمر .

(2) تذرف العين : تبكي بسخاء .

(3) المسدد : الذي وفقه الله للصواب . والقصد من القول والعمل .

(4) الصفيح : الحجر الرقيق العريض .

(5) تهيل مضارع هال . أى تصب . وقوله : وأعين ، أراد، وأعين تصب عليه الدمع.

(6) لا يوسد : لا يجعل له وساد . و الوساد :المتكأ .

(7) وهنت : ضعفت وفترت .

(8) قوله من تبكي السماوات يومه أي اليوم الذي قضى فيه أكمد : أحزن .

(9) عدلت : ساوت ، الرزية : المصيبة .

(10) يغور ويغير : أي يبلغ الغور، وهو المنخفض من الأرض . وينجد : يبلغ النجد وهو المرتفع .

(11) أي يرشد إلي الحق وهو الله .

(12) إمام أي محمد الرسول ﷺ .

(13) عفو فعول من العفو، وهو التجاوز عن الذنب وأصله المحو .

(14) يتشدد : يتصعب ــ ناب الأمر نوباً : نزل وقوله : "لم يقوموا بحمده" أي لم يقضوا حقه .

(15) قوله : بينهم دليل بيان لنعمة الله .

عـزيزٌ عليْـهِ أنْ يَحيدوا عن الهدَى ... حَريصٌ على أن يَستَقيمـوا ويَهتَـدوا[1]
عَطُـوفٌ عَليهِـمْ ، لا يُثَنّى جَنَاحَـهُ ... إلى كَنَـفٍ يَحْنُـو عليهِـم ويَمْهِـدُ[2]
فَبَيْنَـا هُـمُ في ذلك النّورِ ، إذْ غَـدَا ... إلى نُورِهِـمْ سَهمٌ من المَوْتِ مُقْـصِدُ[3]
فأصْبَحَ محمُـوداً إلـى اللهِ رَاجِعـاً ... يُبَكّيـهِ جَفْـنُ المُرسَـلاتِ ويَحمَـدُ[4]
وأمستْ بِـلادُ الحَـرْمِ وَحشاً بِقَاعُهـا ... لِغَيْبَةِ ما كانَتْ منَ الوَحْـيِ تَعهَـدُ[5]
قِفـاراً سِوَى مَعْمـورَةِ اللّحْدِ ضَـافَهَا ... فَقِيـدٌ يُبَكّيـهِ بَـلاطٌ وغَـرْقَـدُ[6]
وَمَسْجِـدُهُ ، فالموحشـاتُ لِفَقْـدِه ... خَلاءٌ لَـهُ فيـهِ مَقـامٌ وَمَقْعَـدُ[7]
وَبِالجَمْـرَةِ الكُبْرَى لَـهُ ثَمّ أوْحَـشَتْ ... ديارٌ، وعَرْصَـاتٌ ، وَرَبْعٌ ، وَمَوْلِـدُ[8]
فَبَكّى رَسُولَ اللهِ يـا عَـينُ عَبْـرَةً ... ولا أعرِفَنْكِ الدّهْـرَ دمعَـكِ يَجْمَـدُ[9]
وَمَـا لكِ لا تَبْكِينَ ذا النّعْمَـةِ الّتـي ... علـى النّـاسِ منْهـا سـابِغٌ يَتَغَمدُ[10]
فَجُـودي عَلَيْـهِ بالدّمـوعِ وَأعْـولِي ... لِفَقدِ الذي لا مثلَـهُ الدّهْـرُ يُوجَـدُ[11]
وَمَـا فَقَـدَ الماضُونَ مِثْـلَ مُحَمّـدٍ ... ولا مِثْـلَهُ ، حتّـى القِيـامَةِ ، يُفْقَـدُ[12]
أعَفَّ وَأوْفَـى ذِمّـةً بَعْـدَ ذِمّـةٍ ... وَأقْـرَبَ مِنْـهُ نـائِلاً ، لا يُنَكَّـدُ[13]

---

(1) يحيدوا عن الهدى : يضلّوا .

(2) عطوف عليهم : مشفق ــ لا يثني جناحه: لا يرف عطفه عن أحد ــ ومعنى الكنف: الجانب. ويمهد: يوطئ

(3) المقصد : المصيب .

(4) المرسلات وأراد بها الملائكة المستترة عن عيون الناس .

(5) الحرم : مكة ــ وحشاً : قفراً .

(6) الغرقد: ضرب من شجر العضاة ، واسم مقبرة أهل المدينة لوجود هذا الشجر هناك.

(7) أي افتقدته الأماكن فأضحت موحشة .

(8) جمرات المناسك ثلاث .

(9) يقول : بعد محمد لست أرى عيني تجمد عن الدمع .

(10) سابغ النعمة : أتمها، ويتغمد : يغمر ويستتر .

(11) واعولي : أي اصرخي .

(12) لم تفقد الناس شخصاً عظيماً كفقدهم محمد .

(13) النائل : العطاء . لا ينكد : لا يكدر .

وَأَبْـــذَلَ منـــهُ للطّـريف وَتَـــالد ... إذا ضَـنّ معطـاءٌ بمـا كانَ يُتْلِـــدُ[1]

وأكـرَمَ حيًّا في البُيوت ، إذا انتمـى ... وَأكْـرَمَ جَـــدًّا أبْطَحيـــًّا يُـسَـــوَّدُ[2]

وَأمْنَـعَ ذِرْوَات ، وَأثْبَتَ فـي العُلـى ... دَعـائمَ عِـــزٍّ شـاهقات تُشيَّـــدُ[3]

وَأثْبَتَ فَرْعـاً فـي الفُـرُوعِ وَمنبتـاً ... وَعُودًا غَـداةَ المُـزْنِ ، فالعُودُ أغْيَـدُ[4]

رَبـاهُ وَلِيـداً ، فَاسْتَتَـم تَمـامَـه ... عَلى أكْـرَمِ الخيـرَاتِ ، رَبٌّ مُمجَّـدُ[5]

تَنَاهَتْ وَصَـــاة المُـسْلِمينَ بِكَفّـه ... فَلا العِلـمُ محْبوسٌ ، ولا الرّأيُ يُنْفَـدُ[6]

أقُـولُ ، ولا يُلْفَـى لِقَولـيَ عـائبٌ ... منَ الناسِ ، إلاّ عـازبُ العقـلِ مُبعَـدُ[7]

وَلَيسَ هَوَائـي نَازِعـاً عَـنْ ثَنائـه ... لَعَلـي بِهِ فـي جَنّـــةِ الخُلْـدِ أخْلُـدُ[8]

مَعَ المُصْطَفَى أرْجـو بـذاكَ جِـوارَه ... وفي نَيـلِ ذاك اليوْمِ أسْعَـى وَأجْهَـدُ[9]

بدأ حسان رضي الله عنه مرثيته ببكاء الأطلال التي خلفها الرسولﷺ بالمدينة (يثرب)، والأماكن التي كان يجلس فيها، ومصلاه ومنبره، ومسكنه (حجراته)، وهي المعـالم التـي ذكرته بذكرياته معه صلى الله عليه وسلم ، فأبكته وأفجعته ، ففقـد الرسـول ﷺ أعظـم مصيبة حلت به وظل يزرف دمعه على قبره ، وهو يعـدد فـضائل النبـي ﷺ ومحاسـنه ومآثره ، وأطال في الوقوف على قبره ، ودعا له بالبركه ودعا للبلد (يثرب) التي بها القبر ، ودعا للحد الذي فيه الجسد الطاهر.

وقد أعانت عيون أخريات عينه في البكاء فبكين معها تضامناً وحزنا عليـه. وقـال إن الجسد الذي غيبوه في التراب ليس لغيره بل غيبوا حلما وعلما ورحمة، وقد حـزن عليـه جميع أصحابه وبكوه، وبكاه أهل السموات والأرض، وهل من مصيبة فـي الأرض تعـادل موت النبيﷺ، وما فقده الناس بموته، فقد انقطع الوحي عنهم، وهو النورالذي كان يضئ ما هبط وغار وما علا منها وارتفع .

---

(1) تليد : القديم، والطريق : الحديث .

(2) ابطحيا : نسبة إلي الابطح بمكة وقريش .

(3) شاهقات : مرتفعات .

(4) أغيد : ناعم متين ــ المزن : السحاب .

(5) استتم بمعنى أتم الشئ .

(6) لعله يريد والله أعلم أن يقول ــ افنده : اضعفه .

(7) عازب العقل : بعيده .

(8) قوله نازعاً عن ثنائه أي كف وانتهى .

(9) المصطفى : الله تعالى ــ ذاك اليوم : أي يوم الحساب. الديوان ص ٩٩ .

وقد كان الوحي ينزل على النبي ﷺ ، فيخبره بالحق ، وينقذهم من الهلاك في النار وينبئهم بما في الغيب.

والنبيﷺ إمام حق ومعلم صدق ، فإن أطاعه الناس اهتدوا وسعدوا في حياتهم ، وقد كان يخفف عنهم وييسر ما لا يطيقونه، ويذلل لهم الصعاب ــ وقد كانوا في نعمة وهو بينهم ــ لأنه دليل على ما هم عليه من القصد والصواب.

فقد كان يرشد إلى الهدى، ويعز عليهم أن يضلوا وقد كان رءوفا رحيما .

وبينما هم في هذا الفضل والنعمة إذ توفاه الله تعالى ، فصاروا غرباء في بلدهم يشعرون بالوحشة ، وكأنهم في صحراء قاتله ليس بها حياة ثم ذكر بعض المعالم الدينية ، مثل المسجد والمقام وداره والمواضع التي يقضي منها مناسك الحج، ومقبرة الغرقد التي يدفن بها أهل المدينة ، وقد بكته هذه الأماكن لعهده بها وذكرياته فيها .

ثم تناول أثر فقده على العالمين ، فقد فقد العالم رجلاً لا نظير له في الماضين ولا في القادمين ، فقد كان عفاً ، وفياً ، كريماً ، بشوشاً لا يكدر ، ويبذل كل غال عنده وأثير لديه إذا بخل أهل العطاء .

وهو من أكرم حي في العرب ، فهو كريم من أصل كريم من نبت طيب .

ثم وصف ملكاته الخاصة ، فقد كان مقوالاً فصيحاً لسناً عاقلاً رزيناً غير هوائي ولا ينزع عن رشده إلى ضلاله، وليس بصاحب بدعة مذمومة .

وقد أكرمه الله تعالى بالجنة ، ودعا الشاعر ربه أن يلحقه به فيكون جاره في الجنة وينعم بصحبته فيها مثلما نعم بها في الدنيا .

وقال في يوم دفن النبيﷺ [1]:

ألاَ دَفَنْتُمْ رَسُولَ اللهِ في سَفَطٍ مِنَ الأَلُــوَّةِ والكافورِ مَنْضُودِ[2]

ولحسان مراثي أخرى تفيض بالحزن والألم لفراق رسول اللهﷺ، وهي مراثي دينية يبكي فيها انقطاع الوحي وخلال النبوة والمعالم والآثار، والروضة الشريفة التي دفن فيها، وما أصاب الأنصار بفقده ، والوحدة التي يعانيها، وهذه المعاني ترددت في مراثيه.

وقال حسان رضي الله عنه أيضاً :

---

(1) الديوان ص ١٠٤ .

(2) ألا : هنا للتوبيخ والإنكار ، والسفط : الذي يعبي فيه الطيب ــ الألوة : العود الذي يتبخر به ومنضود صفة لسفط .

ما بالُ عينيكَ لا تنـــام كأنَّمَـــا كُحلَتْ مـــآقيها بكُحْـلِ الأرْمَـــد[1]

جَزَعاً عَلى المَهْديّ أصْبَحَ ثَاوِيًـا يا خَيرَ مَن وَطِـئَ الحـصَى لا تَبعَـد[2]

جَنْبي يَقيكَ التُّرْبَ لهْفـي لَيْتَنـي غُيِّبْتُ قَبْلَكَ فـي بَقيـعِ الغَـرْقَد[3]

بأبي وأُمّـي مَنْ شَـهِدْتُ وفَاتَـهُ في يَوْمِ الاثْنَـينِ النّبـيُّ المُهْتَـدي[4]

فَظَلْلْتُ بَعـدَ وَفَاتـه مُتَبَلِّـدًا يا لَهْفَ نَفسـي لَيْتَنـي لَـم أُولَـد[5]

أأُقيـمُ بَعْـدَكَ بالمَدينَـةِ بَيْنَهُمْ ؟ يا لَيْتَنـي صُـبِّحْتُ سَـمَّ الأسْـوَد[6]

أوْ حَـلّ أمْرُ اللهِ فينَـا عَـاجِلاً في رَوْحَةٍ من يومنـا أوْ فـي غَـد[7]

فَتَقُومَ سَاعَتُنَـا ، فَنَلْقَـي طَيّبـاً مَحْضـاً ضَـرَائبُهُ كَريـمَ المَحْتِـد[8]

يَـا بِكْـرَ آمنَةَ المُبارَكَ ذِكْـرُهُ ولَدَتْكَ مُحْـصَنَـةً بِـسعْـد الأسْـعُد[9]

نُورًا أضَـاءَ على البَريّـةِ كُلّها مَنْ يُهْـدَ للنّـورِ المُبَـارَكِ يَهْتَـد[10]

يَا رَبّ ! فاجْمَعنـا مَعـاً وَنَبِيَّنَا في جَنّـةِ تَثْنـي عَيـونَ الحُـسّد[11]

في جَنّـةِ الفِرْدَوْسِ واكتُبْها لَنَـا يا ذا الجَلالِ وذا العُـلا وَالـسّؤدَد[12]

واللهِ أسْمَـعُ مـا بَقِيتُ بهـالِكٍ إلاّ بَكَيْتَ عَلـى النّبيّ مُحَمّـد[13]

---

(1) المآقي : مجاري الدموع . الأرمد : الذي يشتكى وجع عينيه الديوان ص٩٩.

(2) جزعاً : خوفاً ــ قوله يا خير من وطئ الحصى : يا أشرف إنسان .

(3) بقيع الغرقد : بقيع المدينة الذي يدفنون فيه موتاهم .

(4) بأبي وأمي : أي أفديه أبي وأمي .

(5) المتبلد : من أدركته الحيرة .

(6) صبحت : سقيت صبحاً ــ الأسود العظيم من الحيات .

(7) في روحة من يومنا أو في غد : أي حل أمر الله فينا دائماً .

(8) تقوم ساعتنا : أي تقم القيامة ــ الضرائب : الطبيعة السجية . المحتد : الأصل .

(9) المحصنة العفيفة ، وأصل الإحصان المنع. وقوله بسعد الأسعد: أي باليمن وبالبركة .

(10) نوراً على البرية : التعاليم الإسلامية التي أنارت ظلام الأوثان .

(11) تثني : ترد وتدفع من ثني يثني .

(12) فاكتبها لنا : لتكن الجنة من نصيبنا .

(13) قوله: أسمع يريد لا أسمع. وهو يقول: يمين الله لا أسمع نعى ميت مدة حياتي إلا بكيت على النبي محمد.

يَا وَيْحَ أَنْصَارِ النَّبِيِّ وَرَهْطِهِ ... بَعْدَ المغَيَّبِ فِي سَوَاءِ المَلْحَدِ[1]

ضَاقتْ بالأَنْصَارِ البِلادُ فأصْبحتْ ... سُوداً وُجُوهُهُمُ كَلَوْنِ الإثْمِدِ[2]

ولَقَدْ وَلَدْنَاهُ ، وَفِينَا قَبْرُهُ ... وَفُضُولُ نِعْمَتِهِ بِنَا لَمْ يُجْحَدِ[3]

وَاللهِ أكْرَمَنَا بِهِ وهَدىَ بِهِ ... أنْصَارَهُ في كُلِ سَاعَةِ مَشْهَدِ[4]

صَلّى الإلهُ وَمَنْ يَحُفُّ بِعَرْشِهِ ... وَالطّيّبُونَ عَلى المُبَارَكِ أحْمَدِ[5]

فرِحتْ نصارى يَثْربٍ ويهودُها ... لمّا تَوَارَى فِي الضَرِيحِ المُلْحَدِ[6]

لقد جزع الشاعر لفقده صلى الله عليه وسلم ، وفقد طعم الحياة من دونه ويأمل أن يلحق به في الجنة فيكون رفيقه فيها. وجسد حالة الحزن الشديد التي خيمت على المكان ومن فيه ، وما يشعر الناس به من حزن وألم وضيق. وقال أيضا يرثي النبي صلى الله عليه وسلم ، ويمدحه أيضاً :

آليْتُ ما في جميعِ النّاسِ مجْتهداً ... منّي أَلِيّةَ بَرٍّ ، غَيْرِ إفْنَادِ[7]

تَاللهِ مَا حَمَلَتْ أُنْثَى ولا وَضَعَتْ ... مِثْلَ النّبيّ،رسولِ الرّحمةِ الهَادي[8]

وَلا بَرَا اللهُ خَلْقاً مِنْ بَرِيّتِهِ ... أوْفَى بِذِمّةِ جَارٍ ، أوْ بِمِيعَادِ[9]

مِنَ الّذي كان نوراً يُسْتَضَاءُ بِهِ ... مُبَارَكَ الأمْرِ ذا عَدْلٍ وإرْشَادِ[10]

مُصَدِّقًا للنَّبِيينَ الأُلَى سَلَفُوا ... وَأبْذَلَ النّاسِ للمعْرُوفِ للجَادي[11]

يا أفضَلَ الناس ، إني كنتُ في نَهَرٍ ... أصْبحتُ منهُ كمثلِ المُفْرَدِ الصّادي[12]

أمْسَى نِساؤكَ عطّلنَ البُيوتَ ، فمَا ... يَضْرِبْنَ فَوْقَ قَفَا سِتْرٍ بأوْتَادِ[13]

---

(1) المغيب : هو محمد .

(2) الإثمد : الكحل . يقال جعل سواد الليل لعينيه كالإثمد .

(3) قوله ولقد ولدناه لأن بني النجار أخوال محمد .

(4) الله أكرمن به : قد وهبنا الله عطية وجود النبي .

(5) يحف بعرشه : أي الملائكة .

(6) فرحت النصارى واليهود عندما أدخل القبر ، أي عند وفاته . الديوان ص١٠٢ .

(7) آليت : حلفت ــ الإفناد : الكذب ــ لعل تقدير البيت هكذا : آليت ألية بر غير إفناد مني مجتهداً "أي غير مقصّر" ما في جميع الناس .

(8) تالله : إعادة القسم للتوكيد .

(9) برا : أي برأ : أي خلق والبرية : الخلق والذمة والعهد .

(10) قوله من الذي : متعلق بقوله أوفى في البيت السابق .

(11) الجادي : طالب الجدوي وهى العطية ، المعروف .

(12) الصادي : العطشان . قوله : يا أفضل الناس يروي خير البرية أي يا خير البرية .

(13) قفا ستر : أي خلفه ووراءه .

مثلُ الرّوَاهبِ يَلبسنَ المُسوحَ، وقَـدْ أيْقَنَّ بالبُؤسِ بَعـدَ النَّعمَـةِ البَـادي[1]

وهي أبيات تفيض حزناً وألما وحسرة على فقد النبيﷺ ، فالشاعر يفتقد إلـى الأنـس ويشعر بالظمأ والوحدة ، ويحن لأيام صحب النبيﷺ فيها وترّوى من حبه حبـاً ، ونهـل وتعلل من فيض خلقه الكريم ، ومدحه ﷺ بعد أن رثاه ، وهذا المدح تعبيراً رمزيـاً علـى استمرار الميت في ذاكرة الشاعر وخلده ، وأنه يعيش معه بعيـداً عـن العـالم المـادي ، فالشاعر يستأثر معه بحديث خاص ، فيحدثه حديث الأحياء ، فيناديـه ويطلـب جوابـه ، ويشكو إليه ما يعانيه والشكوة تكون لحبيب قريب.

وعبر حسان بن ثابت رضي الله عنه عن عظم مصابهم بفقد رسول اللهﷺ تعبيراً صادقاً يثير الشجن، فقال يرثي النبيﷺ :

نَبِّ المساكِينَ أنّ الخَيْرَ فارَقَهُـمْ مَعَ النّبيّ تولّى عَـنْهُمُ سَحَـرا[2]

مَن ذا الذي عندَهُ رَحلي ، ورَاحِلَتي وَرِزْقُ أهْلي،إذا لمْ يُؤنِـسوا المَطَـرَا[3]

أمْ مَن نُعاتبُ لا نخشَـى جَنادعَـهُ إذا اللّسانُ عَتا في القَـوْلِ،أوْ عَثَـرَا[4]

كانَ الضيّاءَ ، وكان النُّورَ نتْبَعُـهُ بَعْدَ الإلهِ ، وكان السّمْعَ والبَـصَرَا[5]

فَلَيْتَنا يـوْمَ وَارَوْهُ بِمَلْحَـدِه وَغَيّبُوهُ ، وأَلْقَـوْا فَوْقَـهُ المَـدَرَا[6]

لمْ يَتْرُكِ اللهُ منّا بَعْـدَهُ أحَـدًا ولمْ يُعِشْ بعـدَهُ أُنْثَـى ، ولا ذَكَـرا[7]

ذَلّتْ رِقابُ بَنـي النَّجّـارِ كلّهِـمُ وكان أمراً منَ أمـرِ اللهِ قـد قُـدِرَا[8]

وقد فقد حسان رضي الله عنه بصره بعد وفاة النبيﷺ ، فلـم يـزده ذلـك إلا إيمانـا وصلاحا ولم يجزع وتذكر رسول اللهﷺ وقال :

---

(1) المسوح : كساء من الشعر ــ البادي : صفة البؤس.

(2) قوله نب المساكين : أراد نبء فحذف الهمزة لضرورة الشعر .

(3) قوله لم يؤنسوا المطرا : أي لم يبصروه ويروه. والرحل : المنزل والمأوى . الراحلة من الإبل : ما كـان منها صالحاً ؛ لأن يرحل، والقوى منها على الأحمال والأسفار للذكر والأنثى .

(4) الجنادع : أوائل الشر . عتا : طغى . الديوان ص ١٥٥ .

(5) ــ(6) ــ (7) ــ (8) وحسان يرثي النبي فيختر أجمل الصفات الكريمة ويمدح بها الرسول وأتباعه مع الإشارة إلي إذلال بني النجار حيث كان هذا الانحدار والإذلال أمراً مقدراً من الله تعالى . الديوان ص١٥٥، ١٥٦.

كُنْتَ السوَادَ لنَاظـــري فَعَمــى عَلَيْـكَ النّــاظـرُ[1]
مَنْ شَـــاء بَعْدَكَ فَلْيمُتْ فَعَلَيْـــكَ كُنْـتُ أُحَـــاذِرُ[2]

ولحسان مراثي أخرى في رثاء بعض المسلمين الذين نالوا الشهادة ، وهي قصائد أشبه بالمدح بيد أنها في ميت ، فقد وصف شجاعتهم وما فعلوه في الأعداء ، ونعاهم إلى الجنة التي وُعدوا بها .

قال رضي الله عنه يرثي حمزة بن عبد المطلب:

أتعْرِفُ الدّارُ ، عَفـــا رسمُها بعدَكَ ، صَوْبَ المُسبل الهاطلِ[3]
بينَ السرَاديحِ ، فأُدمـــانَـــةٍ فمَدفعِ الرّوْحـــاء في حائـــلِ[4]
سائلتُها عن ذاك ، فاستعجمتْ لم تَدرِ ما مرْجوعـــةُ السائلِ[5]
دَعْ عنكَ داراً قد عفـا رسمُها وَابْكِ على حمزَةَ ذي النائـــلِ[6]
المالىءِ الشِّيزَي ، إذا أعصَفَتْ غبرَاءُ في ذي الشَّبَمِ الماحـلِ[7]
التّـــارِكِ القِـرْنَ لـدى لبْـده يَعْثُرُ في ذي الخُرُص الذابـلِ[8]
واللابسِ الخيـــلَ إذا أحجمَتْ كاللّيْثِ في غابتِه الباســـلِ[9]
أبيضَ في الذّرْوَةِ من هاشـــمٍ لمْ يَمرِ دونَ الحقّ بالباطـــلِ[10]

---

(1) ــ (2) ويرثي حسان أيضاً النبي فيصفه بسواد العين التي لم تر غيره بعد .

وقال عندما فقد بصره :

إنْ يأخُذِ اللهُ مِنْ عَيْنَيَّ نُورَهُما ففي لِسَاني وَقَلْبي مِنْهُما نُورُ
قَلْبٌ ذكيٌّ ، وعَقْلٌ غيرُ ذي رَدَلٍ وفي فَمي صَارِمٌ كالسّيْفِ مأثُورُ

وعندما فقد حسان بصره لم يتزعزع إيمانه. وقوله الرذل : الردئ. المأثور : أي ذو جوهر .

(3) قوله : عفا رسمها أي محا أثرها . الصوب : المطر . المسبل : المنصب . الهاطل : الكثير السيلان .

(4) السرداح: الوادي أو مكان متسع. أدمانة، والروحاء : موضعان . المدفع : حيث يندفع السيل . حائل : جبل.

(5) استعجمت : لم ترد جواباً .

(6) النائل : العطاء .

(7) الشيزى : جفان من خُشب يوضع فيها الطعام للضيوف . الغبراء : الريح التي تثير الغبار . الشبم : البرد.

(8) اللبد : الذي يوضع تحت سرج الفرس. ذو الخرص : الرمح .

(9) أحجمت : تأخرت هيبة . الباسل : الشديد الكريه .

(10) أبيض : كنى بذلك عن شرفه وعرضه. يمري : يدفع حقاً بباطل .

ما لشَهيد بَيــنَ أرماحكُـــمْ ... شَلّتْ يَــدا وَحشيٍّ من قاتِل[1]

إنّ امْــرَأً غُودِرَ فــي ألّـــةٍ ... مَطــرُورَةٍ ، مارِنَةِ العامِــلِ[2]

أظْلَمَتِ الأرْضُ لفقدانـــــه ... وَاسوَدَّ نــورُ القَمرِ الناصِلِ[3]

صلّى عليــكَ اللهُ في جنّـــةٍ ... عالِيــةٍ ، مُكرَمَــةِ الدّاخِــلِ[4]

كُنّا نــرَى حَمزَةَ حِرْزًا لنـــا ... مِنْ كلّ أمــرٍ نابَنــــا نــازِلِ

و كانَ في الإسْلامِ ذا تُـــدْرإ ... لمْ يكُ بالوَاني ، ولا الخــاذِلِ[5]

لا تفرَحي يا هندُ ، واستحلبي ... دمعــاً وأذري عَبــرَةَ الثاكِلِ[6]

وابْكي علــى عُتبةَ ، إذْ قطَّــهُ ... بالسَّيْفِ تحتَ الرَّهَجِ الجــائِلِ[7]

إذْ خَـــرّ في مَشْيخَةٍ منكُـــمُ ... من كل عاتٍ قلبُــهُ ، جاهــلِ[8]

أرْداهُــمُ حمــزَةُ فــي أُسْــرَةٍ ... يمْشونَ تحتَ الحَلَقِ الذائـــلِ[9]

غَــداةَ جِبرئِيــلُ وَزِيــرٌ لَـــهُ ... نِعْمَ وَزِيرُ الفارِسِ الحامِـــلِ[10]

ولقد بدأ حسان قصيدته بمقدمة بكى فيها الديار وما حل بها ثم نفض يده منها، وقال: دع عنك دار قد عفا رسمها وابك على حمزة ذي النائل فتخلص من المقدمة، وتوجه إلى مدح حمزة رضي الله عنه الأسد المغوار ، والفارس المقدام ، فهو كتيبة وحده ، ثم وجده مطرحا غدر به ، ودعا على قاتله ونعاه إلى الجنة ، ثم أعرب عن إعجابه بشجاعة حمزة، وأنه كان حرزاً للمسلمين يدفع عنهم الأعداء.

---

(1) وحشي : قاتل حمزة . وحذف التنوين من وحشي للضرورة .

(2) الألة : الحربة . المطرورة : المسنونة . المارنة : اللينة . العامل : صدر الرمح .

(3) الناصل : الخارج من السحاب .

(4) يرثى حمزةً متمنياً له فسيح الجنة وقوله حرزاً لنا : أي مساعداً لنا ومعاوناً .

(5) تدرأ : قوة .

(6) هند : هي بنت عتبة بن ربيعة، قتل حمزة أباها يوم بدر وعمها شيبة بن ربيعة وقتل على رضى الله عنه الوليد بن عتبة، وقيل قتل حمزة رضى الله عنه حنظلة بن أبي سفيان .

(7) قطه : قطعه : الرهج : الغبار .

(8) أراد بالمشيخة : من قتل يوم بدر من سراة القرشيين .

(9) الحلق الذائل : الدروع الطويلة الذيل .

(10) الحامل : الذي يحمل عن الناس كل شيء .

ثم عاتب هند بن عتبة وذمها ، فقد أعربت عن فرحتها بقتله ، وشمتت فيه فقال لها حسان: لا تفرحي بموت حمزة، ولكن ازرفي دمعك على من قتلوا من ذويك يوم بدر، وهم أصحاب القليب.

وقال حسان بن ثابت يبكي خبيبا وأصحابه الذين نالوا الشهادة يوم الرجيع:

صَلَّى الإلـهُ عَلَـى الَّـذِينَ تَتَـابَعُوا ... يَـوْمَ الرَّجِيـعِ فَـأَكْرِمُوا وَأُثِيبُـوا [1]

رَأْسُ الـسَّرِيَّةِ مَرْثَـدٌ وَأَمِيـرُهُمْ ... وَابْـنُ الْبُكَيْـرِ أَمَـامَهُمْ وَخَبِيـبُ [2]

وَابْنُ لِطَـارِقَ وَابْـنُ دَثْنَـةَ مِـنْهُمُ ... وَافَـاهُ ثَـمَّ حِمَامُـهُ الْمَكْتُـوبُ [3]

وَالْعَاصِمُ الْمَقْتُـولُ عِنْـدَ رَجِـيعِهِمْ ... كَـسَبَ الْمَعَـالِيَ إِنَّـهُ لَكَـسُوبُ [4]

مَنَـعَ الْمَقَـادَةَ أَنْ يَنَـالُوا ظَهْـرَهُ ... حَتَّـى يُجَالِـدَ إِنَّـهُ لَنَجِيـبُ [5]

وقال حسان بن ثابت يبكي خُبَيْبًا :

مَا بَالُ عَيْنَيْكَ لاَ تَرْقَا مَدَامِعُهَا ... سحًّا عَلَى الصَّدْرِ مِثْلَ اللُّؤْلُؤِ الْقَلِقِ [6]

---

(1) أثيبوا ــ بالبناء للمجهول ــ أثابهم الله .

(2) خبيب: هذا الاسم في حقيقته مصغر بضم الخاء وفتح الباء الموحدة وسكون الياء المثناة، وقد جاء به ههنا مكبراً بفتح الخاء وكسر الموحدة حين اضطر إلي ذلك، ومن الناس من يرويه على أصله، وذلك عيب من عيوب الشعر أن تجمع في قافية واحدة بين ياء ساكنة مفتوح ما قبلها وياء مكسور ما قبلها كأن تجمع بين عير بفتح فسكون وأمر، وبين عين وأمين، وبين قيد وشديد، ونحو ذلك، ويسمى هذا العيب بالتوجيه، وأراد مرثد بن أبي مرثد، وخالد بن البكير الليثى، وخبيب بن عدى أحد بنى جحجبي .

(3) ابن لطارق : هو عبد الله بن طارق حليف بنى ظفر، وابن دثنة: أراد زيد بن الدثَنَّة، وأصل ضبطه بفتح الدال وكسر الثاء المثلثة وتشديد النون، ولكن لا يقوم به وزن البيت، فعدل عنه إلي تسكين الثاء وتخفيف النون، ووافاه : جاءه، وثم بفتح الثاء ــ بمعنى هناك، والحمام ــ بكسر الحاء ــ الموت، وقد منع صرف طارق حين اضطر إلي ذلك أيضاً.

(4) العاصم : أراد به حمى الدبر عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح ، وكسوب ــ بفتح الكاف ــ صيغة مبالغة .

(5) المقادة : المذلة والانقياد إلي أعدائه، ويجالد : يضارب ويقاتل بالسيف، ومن رواه "حتى يجدل" كما ذكر ابن هشام فمعناه حتى يقع على الجدالة وهى الأرض. ويروى : حتى يجدَّل إنه لنجيب. السيرة جـ٣/١٧١

(6) "عينيك" يروى في مكانه "عينك" بالإفراد، وهو أنسب بقوله "مدامعها" ؛ وقوله لا ترقى" أصله لا ترقأ- بالهمز- فسهل الهمزة وتقول: رقأ الدمع يرقأ، إذا انقطع، وسحا : مصدر بمعنى الصب، واللؤلؤ: كبار الجوهر، والقلق ــ بفتح القاف وكسر اللام ــ المضطرب المتحرك المتساقط .

عَلَى خُبَيْبٍ فَتَى الفِتْيَانِ قَـدْ عَلِمُـوا ... لاَ فَشِل حينَ تَلقَـــاهُ وَلاَ نَـــزِقِ[1]
فَاذْهَـبْ خُبَيْـبُ جَـزَاكَ اللهُ طَيِّبَـةً ... وَجَنَّةَ الْخُلْدِ عِنْدَ الْحُـورِ فِـي الرُّفَـقِ[2]
مَاذَا تَقُولُـونَ إِنْ قَـالَ النَّبِـيُّ لَكُـمْ ... حِـينَ المَلاَئِكَـةُ الأَبْـرَارُ فِـي الأُفُـقِ
فِيم قَتَلْـتُمْ شَـهِيدَ اللهِ فِـي رَجُـلٍ ... طَاغٍ قد أَوْعَثَ فِـي البُلْـدَانِ وَالرُّفَـقِ[3]

وكان من أصحاب يوم الرجيع (في سنة ثلاث من الهجرة) كان ستة : هم مَرْثَد بن أبي مَرْثد، الغنوي ، وخالد بن البكير الليثي ، وعاصم بن ثابت الأوسي ، وخبيب بن عدي العوفى ، وزيد بن الدَّثِنَّة الخزرجي ، وعبد الله بن طارق، وقد بعثهم النبي ﷺ إلى عضل والقارة ، فمروا بقبيلة هذيل ، فأخذتهم غدراً ، ووقع بينهم قتال فقتلت عاصماً ، ومرثداً ، وخالداً، لأنهم أبو أن يسلموا لهزيل[4].

وأما زيد وخبيب وعبد الله فلانوا لهزيل وصدقوا عهدهم، فقتلوا عبد الله بالطريق، وباعوا خبيبا وزيدا لمشركي مكة فقتلوهما. وقد هجا حسان ﷺ هذيلاً لما فعلوه ، بأصحاب النبيﷺ ويكى خبيب بن عدى الذي باعوه إلى عتبة بن الحرث بن عامر ليقتله بأبيه:

أَبْلِـغْ بَنِى عَمْرٍو بِأَنَّ أَخَاهُمُ ... شَرَاهُ امْرُؤٌ قَدْ كَانَ لِلْغَدْرِ لاَزِمَا[5]
شَرَاهُ زُهَيْرُ بْنُ الأَغَرِّ وَجَامِعٌ ... وَكَانَـا جَمِيعاً يَرْكَبَانِ المَحَارِمَا[6]

---

(1) الفشل –بفتح الفاء وكسر الشين–الضعيف القوة الجبان،والنزق ــ بفتح النون وكسر الزاى ــ السيء الخلق

(2) الحور في الأصل : جمع حوراء ، وهى التي اشتد سواد سواد عينها واشتد بياض بياضها ؛ والرفق: يروى بضم الراء والفاء جميعاً ، فهو جمع رفيق، قاله أبو ذر، ويروى بضم الراء وفتح الفاء ، فهو جمع رفقة، والرفقة ــ بسكون الفاء وراؤه مضمومة ــ اسم للجماعة الذين ترافقهم ويرافقونك .

(3) أوعث : اشتد فساده ، والرفق : قد مضى في تفسير البيت السابق، وتكراره ههنا يعتبر من عيوب الشعر ، ولهذا بادرا ابن هشام بقوله "ويروى في الطرق".

(4) السيرة جـ٣/١٦٠ ، ١٦١ .

(5) بنى عمرو : يريد بهم بني عمرو بن عوف قوم خبيب، وأخاهم : أراد به خبيباً، وشراه : باعه، وهو من الأضداد، وقد مضى قريباً استشهاد ابن هشام على استعماله في هذا المعنى. وقد باعه زهير وجامع وهما من هذيل : وقد باعاهما بأسيرين لهما في مكة .

(6) المحارم : جمع محرم وهو الأمر المحظور إتيانه .

أَجَرْتُمْ فَلَمَّا أَنْ أَجَرْتُمْ غَدَرْتُمُ وَكُنْتُمْ بِأَكْنَافِ الرَّجِيعِ لَهَاذِمَا [1]

فَلَيْتَ خُبَيْبًا لَمْ تَخُنْهُ أَمَانَةٌ وَلَيْتَ خُبَيْباً كَانَ بِالْقَوْمِ عَالِمَا

لقد طور حسان من المراثي ، فاستبدل ببكاء الأثافي (معارص القدر) وبقايا الديار الدارسة ، المسجد والمصلي والبيت والمجلس والأماكن التي كانت للنبي ﷺ بها ذكريات ، فذكر معالم لها صلة بالفقيد وبكى هذه الديار والمعالم ولم يقل إلا خيراً، وقد أطال من الوقوف على قبره وجعل القبر بديلا للطلل، ودعا لقبره بالبركة ولم يدع بنزول المطر على ما كان يدعوا به الجاهليون.

وقد تأثر حسان بالقرآن الكريم لفظاً وأسلوباً ومعنى؛ فأسلوبه سلس سهل ليس فيه تكلف ، ولفظه واضح ليس بغريب ولا وحشي وبعض معانية إسلامية مولده .

وقد استمرت في قصيدته تقاليد مراثي الجاهلية ومنها بكاء الديار التي تركها الميت وما بقى من رسمها ، والبكاء على القبر، وبكاء الفقيد ، وقد أعانته عيون على البكاء تضامناً معه ، وأهرق الدمع حزناً عليها، ودعا غيره إلى البكاء والمشاركة في الحزن، وأطال الوقوف على قبره مثلما كان يطيل الوقوف على الطلل ، ودعا بالبركة للقبر ولساكنه وللمدينة التي دفن بها ، ودعا للحده وذكر الحجر المعد ليكون غطاء ومعلماً على القبر.

******

(1) لهاذما : ترو هذه الكلمة بالذال المعجمة، وبالزاى ، فمن رواه بالذال المعجمة فإنما أراد به الشجعان، ومنه يقال: سيف لهذم، إذا كان قاطعا، يعيرهم بأنهم خرجوا بقضهم وقضيضهم على جماعة قليلة العدد قد أجاروهم فأمنوا لهم، فتشاجروا عليهم ، ومن رواه بالزاى فإنما أراد به أنهم جبناء ضعفاء، وأصل اللهزمة بضيعة في أصل الحنك .

الهجـــــاء

الهجاء ذكر ما يكره الإنسان عن نفسه بما يتنافى مع العدل والمروءة. وهو غرض من أغراض الشعر العربي ، وقد نشأ في الجاهلية ، وكان العرب يتطيَّرون منه ويتساءمون ، ويخشون وقعه عليهم لئلا يفضحون به في الناس، فيعيرونهم به. ولشعر الهجاء وقع في الحياة الاجتماعية وأثر لا يمحوه إلا شعر مثله يعلو عليه ، وقد رفع الشاعر بمدحه قوماً ، ووضع هجاؤه من آخرين فجعلهم سبة في الناس . وقد اشتهرت أبيات لما جرى على رسمها ومضى على حكمها .

قد كان بنو أنف الناقة[1] (اسم قبيلة) يستحيون من اسمهم ونسبهم إليها، وكانوا يغضبون إن ذكر اسم أنف الناقة أو أن ينسبهم إليه أحد ، وكان ذلك حالهم حتى عرف الحطيئة ذلك فيهم، وقد أكرموه فرفع عنهم ما هم فيه بقوله مادحاً:

سيرى أمام فإن الأكثرين حَصىً ... والأطيبين إذا ما ينسبُون أبا

قومٌ إذا عقدو عقداً لجارهمُ ... شدوا العِنَاج وشدوا فوقه الكَربَا

قوم هُمُ الأنفُ والأذنابُ غيرُهمُ ... ومن يسوِّي بين أنف الناقة الذنبا

فصار أحدهم إذا سئل عن انتسابه لم يبدأ إلا به. وقد أذل الشعر رقاباً في الجاهلية ، فوضع من قوم لهم شرف في الناس ، فأصابهم خزي وعار ببيت شعر أو أكثر هجاهم به شاعر سليط مفوه ، فصاروا سبة يسخر منهم الناس ، فقط كان للهجاء وقع السيف والنبل في نفوس العرب ، فهو سلاح آخر في معاركهم لا يملكه إلا الشعراء المجيدون، فالشاعر يعد لسانه للضرب، ويشحذه ويصقله ، وهو مدجج تام السلام، وقد ارتدى درعه لئلا يدركه شيء من عدوة، فالشعر رمح ودرع، في معارك الكلام، قال عبد قيس بن خفاف البرجمي:

فأصبحت أعددت للنائبا ... ت عرضاً بريئاً وعضباً صقيلا[2]

ووقع لسانٍ كحد السِّنان ... ورُمْحاً طويل القناة عَسُولا

كما الغدير رَفَتْه الدَّبُورُ ... يجر المدجَّجُ منها فضولا

وقد كانت عُكاظ سوق تجارية وأدبية يجتمع فيها الشعراء يتناشدون الشعر، ويسمعهم

---

(1) زهر الآداب جـ١/١٩ .وأنف الناقة لقب جعفر بن قريع بن عوف بن كعب بن زيد مناة بن تميم، وقد أطلق عليه هذا الاسم، لأن أباه نحر ناقة وقسمها بين نسائه، فأرسلت به أمه إلي أبيه فكان قسمه منها الرأس والعنق، فأمسك بالأنف فجرها إلي أمه، فرأى قومه ذلك فعرف به .

(2) المفضليات جـ١/٣٥٧ ــ ٣٦٣ . العضب : السيف القاطع، والصقيل : المصقول الحاد. الدبور : ريح غربية تقابل الصبا. المدجج : تام السلاح . يجر منها فضولاً: كناية عن أنها سابغة تفضلُ عن أطرافه.

من حضر السوق من العرب ، وكان الهجاءون ينشدون أهاجيهم فيها لتذيع في العرب ، ويبلغ مداها أقاصي الجزيرة فيصيبوا خصومهم في مقتل .

وكان بعكاظ شجرة عظيمة يحضرها الشعراء ، ويضربون القباب حولها ، وكان الشعراء يحضرون السوق مع قوافلهم ، وقد عرفت هذه الشجرة (السَّرْحة) في شعر الجاهلية قال راشد بن شهاب البشكري مهددا قيس بن مسعود الشيباني:

ولا تُوعدنِّي إنني إن تلاقني معي مَشْرِفيّ في مضاربه قَضَمْ
وذمٌّ يُغَشِّى المرءَ خزياً ورهطه لدى السَّرحة العشاء في ظلها الأدَمْ[1]

يقول : لا تهددني فإن معي سيف فيه فلول من كثرة الطعن ، وأستطيع أن أذمك وأهجوك وقومك عند شجرة " السرحة " هجاء لاذعا يلحقك أنت وقومك ذلا وعارا تفضحون به في العرب حيث تقام القباب في ظلها ،وكان بنو العجلان يفخرون بهذا الاسم ، ويتشرفون بهذا الاسم ، وقد سمي به جدهم عبد الله بن كعب لتعجيله القرى للضيفان ، فقد نزل عليه حي من طيئ ، فبعث إليهم بقراهم عبدا له ، وقال له : اعجل عليهم ، ففعل العبد فأعتقه بعجلته ، فأطلقوا عليه العجلان ، لعجلته في ضيافتهم ، وهي مبالغة من عجل ، فكان هذا اللقب شرفاً له ولبنيه حتى هجاهم قيس بن عمرو بن مالك بن حزن بن الحارث بن كعب المعروف بالنجاشي، فقال [2]:

أولئك أخوال اللعين وأسرة الـ هجين ورهط الواهن المتذلّل
وما سُمِّى العجلان إلا لقوله خذ القعب وأحلب أيها العبد واعجل

فصار الرجل منهم إذا سئل عن نسبة فقال : كعبي، ولا يقول عجلان لما قاله النجاشي فيه. وقد أدرك المتقدمون وقع الشعر وأثره في حياة العرب العامة ، فقد بني الشعر لقوم بيوتا شريفة ، وهدم لآخرين أبنية منيفة ، فهو كما قال القائل[3] :

وما هو إلا لقول يسري فتغتدي له غُرَرٌ في أوجه ومواسم

وقد سمع أبو عمرو بن العلاء رجلاً يقول : إنما الشعر كالميسم، فقال أبو عمر : وكيف يكون؟ ذلك يذهب بذهاب الجلد ، ويدرس مع طول العهد ، والشعر يبقى على الأبناء بعد الآباء، ما بقيت الأرض والسماء وقد عبر عن هذا المعنى الطائي[4] بقوله :

---

(1) المفضليات ص٣٠٨ المشرفي : السيف . قضَم : فلول من كثرة الطعن . السَّرْحة العَشَّاء : الشجرة الخفيفة ، وهى شجرة معمرة .

(2) زهر الآداب جـ١/١٩.

(3) زهر الآداب جـ١/٢٢ .

(4) زهر الآداب جـ ١ / ٢٣ .

وأني رأيت الوسم في خلق الفتى هو الوسم لا ما كان في الشعر والجلد

وقد تغير فن الهجاء في الإسلام ، فقد ترك شعراء الإسلام بعض سلوك الجاهلية ، فكان الشاعر يرتدي حلة خاصة إذا أراد الهجاء ، تشبه حلل الكهان ، ويحلق بعض رأسه ، وينتعل نعلا واحدا ، فيشبه سدنة المعبد والحجيج ليرهب من يهجوه، وأنه سينزل عليه اللعنات وشر عظيم .

وكان الشاعر يدعي أن لشعره فعل السحر ، وأنه سوف يدنس العرض وسيلحق الرجس والإثم وغير ذلك. ولكن شعراء الإسلام تعرضوا لسوء الخلق فيمن يهجونهم ، ويعيرونهم بالشرك وأن مثواهم النار ، ويفتخرون بإيمانهم عليهم ، ويعيرونهم ببعض ما في أنسابهم، وبعض سقطاتهم ، وما فيهم من فاحشة أو مظالم ، ولا يدعون فيهم ما ليس فيهم ، بل يهجون ما هو كائن فيهم ، ولا يطعنون في أعراضهم إلا ما طعن فيه ، ويتعففون عن البذاءة وسوء الخلق. وذهب بعض المفسرين إلى أن قوله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ [الشعراء:٢٢٤]

نزل في هجاء شعراء المشركين والإباحيين وامتدح الله تعالى المؤمنين منهم فقالوا: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانتَصَرُوا مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[الشعراء:٢٢٧]، وقيل إن الله تعالى أرخص للمؤمنين في هجاء من تعرض لهم من المشركين بمثل قولهم فليسوا من الغاوين .

وقد هجا المشركون النبيﷺ أولا بعد الهجرة ، وروى تميم الخزاعي أن رجلا أتى النبيﷺ ، فقال يا رسول الله ، إن أبا سفيان [بن الحارث بن عبد المطلب] يهجوك: فقال رسول اللهﷺ : اللهم إنه هجاني ، وإني لا أقول الشعر ، فاهجه عني ، فقام إليه عبد الله بن رواحه، فقال : يا رسول الله إيذن لي فيه ، فقال : أنت القائل: فثبت الله ما آتاك من حسن ؟ قال : نعم : قال : وإياك فثبت[1] الله.

ثم قام إليه كعب بن مالك ، فقال : يا رسول الله إيذن لي فيه ، فقال : أنت القائل " هممت :؟ قال: نعم.

قال: لست له، ثم قام حسان بن ثابت ، فقال: يا رسول الله ، إيذن لي فيه ، فقال قصيدة التي أولها[2] :

ألا أبلغ أبا سفيان عني مغلغلة فقد برح الخفاء

---

(1) ارجع إلى : فتح الباري جـ ١٠/ ٦٢٥ والعقد الفريد ٥ / ٢٩٥

(2) ارجع إلى صحيح مسلم كتاب الشعر .

وقيل إن شعر حسان كان أقوى عليهم وهم مشركون فلما أسلموا، أوجعهم شعرعبد الله بن رواحة ، لأنه كان يعيرهم بكفرهم.

وقد وجه النبيﷺ الشعراء من أصحابه ﷺ وسلم إلى أن يصيبوا من المشركين مثلما أصابوا منهم ، وألا يجوروا في أخذ الحق، فكانوا يردون عليهم قولهم بالمثل دون أن يكذبوا عليهم ، أو يصيبوا أحدا مما لم يؤذ المسلمين بلسانه أو بفعله بيد أن شعر شعراء المسلمين كان أقوى أثرا بما فيه من دعائم حججية ولفظية واسلوبية.

وكان النبيﷺ لا يبدأهم بالعدوان، ولا يستعديهم على المسلمين، بل هم بادروا بهجائه وهجاء المسلمين.

ونالوا من الإسلام، ولم يسب لهم عرضا ولا آلهة لئلا يسبوا الله تعالى:

﴿لَا تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:١٠٨].

فهم بدأوا المسلمين دخل من رجل من أهل اليمن مسجد الكوفة ، فإذا بعمار بن ياسر ورجل ينشده هجاء معاوية وعمرو بن العاص، وهو يقول: ألصق بالعجوزين [يريد معاوية وعمرا، أي سدد هجاءك إليهما وألصقه بهما] فقال الرجل: سبحان الله " أتقول هذا وأنتم أصحاب محمدﷺ ؟ قال: إن شئت فاجلس، وإن شئت فذهب، فجلست، فقال: أتدري ما كان يقول لنا رسول اللهﷺ لما هجانا أهل مكة ؟" قال لا أدري. قال: " كان يقول لنا: قولوا لهم مثل ما يقولون لكم[1] ".

وقد جاء في بعض السور المكية قبل الهجرة نقد لاذع وذم لما كان عليه المشركون من وثنية وخلق مشين ومظالم لا يتورعون عنها.

وكان لها وقع شديد على أنفسهم فاق أثر الشعر فيهم، وقد خص القرآن الكريم ابا لهب وزوجه، قال تعالى:

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ(١) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ(٢) سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ(٣)وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ(٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ(٥)﴾ [المسد].

---

(1) ارجع إلى فتح الباري جـ ١٠ / ٦٢٥، والعقد الفريد جـ ٥ / ٢٩٥ وكان عمار بن ياسر حليف على رضي الله عنهما في الفتنة ، وقتل فيها ، وقتلته فئة معاوية رضي الله عنه ، فعلم الناس أنها الباغية لقول النبي صلى الله عليه وسلم لعمار في حفر الخندق " تقتلك الفئة الباغية " .

وروى أن أم جميل حمالة الحطب زوج[1] أبي جهل حين سمعت ما نـزل فيها وفي زوجها من القرآن أتت رسول اللهﷺ، وهو جالس عند الكعبة ومعه أبو بكر الصديق، وفي يدها فهر[2] من حجارة، فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول اللهﷺ ، فلا ترى إلا أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر: أين صاحبك ؟ قد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه، أما والله إني لشاعره، ثم قالت:

مُذَ مَّماً عَصيْنا وأمره أبينا ودينه قلينا

ثم انصرفت ، فقالت أبو بكر: يا رسول الله ، أما تراها رأتك ؟ فقال ما رأتني لقد أخذ الله ببصرها عني[3]. وكانت قريش تسمي رسول اللهﷺ مذمما ثم يسبونه،فكان رسول اللهﷺ يقول: " ألا تعجبون لما صرف الله عني من أذى قريش ، ويسبون ويهجون مذمما ، وأنا محمد[4] ". فحمل معنى الذم على غيره ولم يحمله على نفسه، فليس مذمما بل محمدا ، وكانت قريش تقصده به ، فلم يحمله على نفسه.

وكان المشركون يعدون تعريض القرآن بهم وذمهم هجاء. فقد أكد الروايات أن أم جميل تأذت من ذم القرآن لها وعيرها الناس بذلك ، وعدت ما نزل به القرآن هجاء، روى أنها قالت:"يا أبا بكر هجاني صاحبك ، قال: لا ورب هذا البنية ، ما ينطق بالشعر ولا يفوه به، قالت:" إنك لمصدَّق" [5].

وقد نزلت آيات أخرى في ذم بعض المشركين ومنها قوله تعالى: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾[القلم:١٣] قيل نزلت في الوليد بن المغيرة وقيل الأسود بن عبد يغوث، وقيل الأخنس بن شريق، وقيل غير ذلك، وزنيم: المعروف بالشر، وقيل المعلق في القوم ليس منهم أو من ادعي نسبا[6].

---

(1) فتح الباري كتاب التفسير جـ ٨ / ٦٥١ ــ ٦٥٢، والزمخشري في الكشاف جـ ٤ / ٦٤٨. وأبو لهب : عبد العزى بن عبد المطلب ، عم النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد طلب منه أخوه أبو طالب أن يعضد ابن أخيه محمد ففعل بعد موته ، ولكنه كرهه عندما سأله عن آبائه، فقال على غير دين، فغضب لذلك وعاداه ، وقد مات غما بعد بدر.

(2) الفهر : حجارة على مقدار ملء الكف.

(3) السيرة جـ ١ / ٣٧٩ وأم جميل : العوراء بنت حرب بن أمية ـــ قلينا : أبغضنا.

(4) رواه البخاري.

(5) رواه البزار عن ابن عباس رضي الله عنهما ، فتح الباري جـ ٨ / ٦٥٣ وروى عن زيد بن أرقم أنها قالت للنبيﷺ : "هل رأيتني أحمل حطبا، أو رأيت في جيدى حبلا " وذلك لما قيل لها إن محمدا هجاك.

(6) فتح الباري جـ ٨ / ٥٦٦ وقال الشاعر : زنيم ليس يعرف من أبوه .

وقد عددت الآيات خصال الذم:﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١) مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ (١٢) عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ (١٣)﴾ [القلم] وهذه مثالب ونقائض وأشدها على من قيلت فيه (زنيم) و تعني دعى ، وقد جاء في بعض الروايات أنها نزلت في الوليد، وقيل عنه إنه كان دعى ادعاه أبوه بعد مولده، وقيل غير ذلك ، وقد هجاه حسان رضي الله عنه بذلك فقال:

وأنت زنيمٌ يَنِيطُ في آل هاشم كما نيط خلف الراكب القدح الفرد

يقول : وأنت دعى ملحق ببني هاشم تذكر في آخرهم ، كما يأتي القدح خلف الراكب لا يذكر إلا عند الحاجة إليه(١). وقال للوليد بن المغيرة أيضاً(٢):

مَتى تُنسَبْ قُرَيشٌ أوْ تُحَصَّلْ فَمَا لك في أرُومَتِها نِصَابُ (٣)
نَفَتْكَ بَنُو هُصَيْصٍ عَنْ أبِيها لِشجْعٍ حَيْثُ تُسْتَرَقُ العِيَابُ(٤)
وأنْتَ ابنَ المُغيرَةِ ، عبدُ شَوْلٍ قَدَ أنْدَبَ حَبْلَ عاتقِكَ الوطَابُ(٥)
إذا عُدّ الأطَايِبُ مِنْ قُرَيْشٍ تلاقَتْ دونَ نِسْبَتِكُمْ كِلابُ(٦)
وعِمْرَانَ بنَ مَخزُومٍ فَدَعْهَا هُنَاكَ السِّرُّ والحَسَبُ اللُّبَابُ(٧)

وكان حسان يسل الرجل من مشركي قريش ، فيجعله وحيداً ، ثم يسدد سهامه إلى ذات الرجل دون أن يصيب شيئا من نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيذكر أبويه وما لهم من نسب دخيل على قريش ، فيصفه بالجبن والبخل ، والتقاعس والخسة قال حسان في هجاء بني سهم بن عمرو(٨):

---

(1) ارجع إلى الكشاف جـ ٤ / ٤٤٢ ، ٤٤٣

(2) قال محقق الديوان : لا نعلم إن كان الوليد بن المغيرة أبو خالد بن الوليد نفسه أو ابنه الوليد بن الوليد بن المغيرة أخو خالد بن الوليد ؟ أما الوليد بن الوليد بن المغيرة المخزومي فقد حضر معركة بدر مع المشركين وأسر ، وافتداه أخواه هشام وخالد وبعد الفداء أسلم . الديوان ص ٦٠ .

(3) تحصل : تميز أو تبين ـــ الأرومة : بضم الهمزة وفتحها : الأصل ، وكذلك معنى النصاب .

(4) هو هصيص بن كعب بن لؤي بن غالب ـــ شجع : قبيلة من كنانة وتسترق من السرقة ، والعياب جمع عيبة ؛ أو عيبة من الجلد توضع فيها الثياب .

(5) عبد شول : راعي إبل ـــ أندب : ترك فيه ندبة ، وهو أثر جرح باق في الجلد ، العاتق : ما بين المنكب والعنق ، الوطاب : سقاء اللبن ، يقول حسان : إنه راع يحمل الوطاب على عاتقه فأثر ذلك فيه .

(6) الأطايب : الخيار جمع أطيب ، والمعنى واضح

(7) السر : المروءة والكرم والفضل ، الحسب اللباب : الخالص غير المشوب .

(8) الديوان ص ١٣٦ .

لولا النبي، وقــول الحــق مغــضبة لمــا تركــت لكــم أنثــى ولا ذكــــراً

وجاء في الحديث أن النبيﷺ كان يأمر حسان أن يذهب إلى أبي بكر فيتزود منه بــبعض هنات المشركين ونقائصهم ، ويعلم منه أنسابهم ، وقد حدث ذلك في هجــاء حــسان أبــا سفيان بن الحارث ، فلما سمع أبو سفيان هجاء حسان علم أنه اطلع على عورته مما علمه من أبي بكر ﷺ، فحسان لم يك عالما بما تخفيه قريش عن نفسها، ولــيس عليــه إلا أن يصيغ هذه المضامين شعرا، وقد استطاع حسان أن يدرك دوره في المعركة وأن يتخير آلة الحرب التي تصيب هدفها وقد كان دقيق الملاحظة فكان لا يخطئ هدفاً، وكانت تــصويباته ترضي رسول اللهﷺ ، وقد شفي حسان بهجائه المشركين وأشفى صدر رســول اللهﷺ ، وكان النبيﷺ يحثه على هجائهم ومهاجتهم ، وأبلغه أن جبريل معه ، وهو ينــافح عــن رسول اللهﷺ.

وكان يشاركه في هجائهم كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة رضي الله عــنهم، وكــان حسان وكعب يعارضانَهم بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ويعيرانهم بالمثالب ، وكــان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر وينسبهم إليه وأنه ليس فيهم أشر من الكفر ، فكان شعر حسان وكعب أشد عليهم في كفرهم ، فلما أسلموا كان شعر بن رواحة أشد عليهم من شعر حسان وكعب[1].

وكان حسان واعيا بما لشعره من دور في الصراع بين الإسلام والمشركين ، فالــشعر سلاح آخر في المعركة ، وله أثر غائر لا يمحى بمرور الزمن ، فجرح اللسان ليس كجرح اليد ، قال حسان معرضا بالمشركين[2]:

لنا في كل يوم من معــد سباب أو قتــال أو هجــاء

فنحكمُ بالقوافي من هجانا ونضرب حين تختلط الدماء

فالشعر كان يجاسر السلاح في المعارك ، وكان له فيها ضرب السيف ووقع النبل .

ولقد أذن النبيﷺ الشعراء المسلمين في الرد على هجــاء المــشركين بعــد أن آذوا السلمين ونالوا من أعراضهم ، فروى مسلم عن عائشة رضي الله عنها أن رسول صــلى الله عليه وسلم قال : اهجوا قريشا ، فإنه أشد عليها من رشق النبل ، فأرســل إلــي ابــن رواحة ، فقال أَهْجُمُ ،فلم يُرْضِ ، فأرسل إلى كعب بن مالك، ثم أرسل إلى حسان بن ثابت ، فلما دخل عليه ، قال حسان : آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه ثم أدع لسانه

---

(1) ارجع إلي الأغاني جـ٥/٢٨ .

(2) الديوان ص ٥١ .

فجعل يحركه، فقال : والذي بعثك بالحق لأفرينهم بلساني فرْى الأديم[1] . فقال رسول اللهﷺ: لا تعجل فإن أبا بكر أعلم قريش بأنسابها، وإنَّ لي فيهم نسباً حتىَّ يُلخِّصَ لك نسبي ، فأتاه حسان ثم رجع ، فقال يا رسول الله قد لخَّصَ لي نسبك ، والذي بعثك بالحق لأسلنَّك منهم كما تُسلّ الشعرة من العجين، قالت عائشة، فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لحسان: " إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله"، وقالت: سمعت رسول اللهﷺ يقول: "هجاهم حسان فشفي واشتفى". قال حسان: [مخاطبا شاعر المشركين، ولم تذكره الراوية، وجاء في أخرى أنه أبو سفيان بن الحارث][2]:

هجوتَ محمداً فأجبت عنه ... وعند الله في ذاكَ الجزاءُ[3]
هجوتَ محمداً برَّاً حنيفاً ... رسول الله شيمتُه الوفاءُ
فإنَّ أبى ووالده وعِرْضى ... لِعرْض محمّدٍ منكم وِقاءُ
ثكلتُ بُنيتي إن لم تروها ... تثير النقْعَ من كنفي كَداءُ
يُبارينَ الأعنة مُصْعِدَات ... على أكتافها الأسل الظِّمَاءُ
تظل جيادُنا متمطرات ... تُلطمهُنَّ بالخُمُرِ النِّساءُ
فإن اعترضتُمُوا عنا اعتمرنا ... وكان الفتح وانكشف الغطاءُ
وإلا فاصبروا لضراب يوم ... يُعزُّ اللهُ فيه من يشاء
وقال الله قد أرسلت عبداً ... يقولُ الحقَّ ليس به خفاءُ
وقال الله قد يسَّرْتُ جُنْداً ... هُمُ الأنصار عُرْضَتُها اللقاءُ

---

(1) الرشق : الرمي ، وهو اسم للنبل التي ترمى دفعة واحدة –النكاية : الإغلاظ ، آن لكم : حان لكم : الذنب يرادبه : اللسان ، شبه حسان نفسه في انتقامه بالأسد في انتقامه وبطشه إذا اغتاظ ، فيضرب بذنبه جنبيه = = كما فعل حسان حين أدلع لسانه ، فجعل يحركه فشبه نفسه بالأسد ولسانه بذنبه ، ودلع لسانه وأدلعه ودلع اللسان بنفسه: أخرجه عن شفتيه – فرى : مزق ، الأديم : الجلد ، يروى : لأمزقن أعراضهن تمزيق الجلد .

(2) كان أبو بكر رضي الله عنه عالما بالأنساب ، فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يعلم حسان نسبه من أبي بكر لئلا يصيبه بهجائه ، وأقسم حسان ألا يمس نسبه بسوء ، فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم حسان أن جبريل عليه السلام يؤيده في دفاعه عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وقد أرضى حسان النبي صلى الله عليه وسلم وشفى صدره وطيب نفسه وأرضاها ، واشتفى بما ناله من أعراض المشركين فمزقها كما يمزق الجلد ، ونافح عن الإسلام وأهله .

(3) ديوان حسان ص١٧ وهى قصيدة طويلة روى الإمام مسلم بعضاً منها، ولم تأت المقدمة في رواية مسلم، وهي مقدمة غزلية خمرية.

يلاقي كـلَّ يـوم مـن معـدّ سِبَابٌ أو قتـالٌ أو هجـاءُ
فمن يهجو رسول الله منكـم ويمْدَحُـهُ وينصـره سَوَاءُ
وجبريـل رسـول الله فينـا وروح القُدْس ليس له كفاءُ[1]

وقد رواه مسلم برواية أخرى عن عائشة رضـي الله عنهـا أن حـسانﷺ اسـتئذن النبيﷺ في هجاء أبو سفيان بن الحارث ، فقال النبي صـلى الله عليـه وسـلم : "كيـف بقرابتي منه"؟ ، قال: والذي أكرمك لأسلنك منهم كما تسل الشعرة مـن الخميـرة، فقـال حسان[2]:

وإن سنام المجلد من آل هاشم بنو بيت مَخْزومٍ ووالـدك العبد

وبعده بيت لم يروه مسلم ، وبه تتم الفائدة ، وهو :

ومن ولدت أبناء زهرة منهمو كرام ولم يقرب عجائزك المجد

وهذه القصيدة في رواية ابن هشام ثمان وعشرون، وهي الرواية التي اعتمدنا عليهـا في الشرح.

---

(1) معاني الكلمات : حنيفا : المائل إلى الخير ، وقيل التابع لملة إبراهيم – شيمته الوفاء : خلقـه الوفـاء ، والبر: من البر وهو المتسع في الإحسان ، تثير النقع : ترفع الغبار وتهيجه ، ويريد شدة الـسيرة وكثـرة الجند ،كنفي كداء : جانبي كداء وكداء موضع بمدخل مكة ، يبارين الأعنة : يريد الخيل الشديدة الـصارمة التي تنازع راكبيها ، وقيل إن قوامها واعتدالها تضاهي به الأسنة في رواية يبارين (الأسنة) وهي الرماح ، وفي رواية يبارعن الأعنة ، مصعدات : مقبلات إليكم ومتوجهات ، وأصعد في الأرض : إذا ذهـب فيهـا مبتدأ أو لا يقال للراجع مصعد ، على أكتافها الأسل : فوق أكتافها الرماح الرقـاق – الظمـاء : الرقـاق : يريد أنها تربد أن ترتوي من شدة عطشها من دمائهم ، ممطرات : مسرعات بعضها يسبق بعض .

(2) صحيح مسلم ، كتاب الفضائل ، فضائل حسان بن ثابت رضي الله عنه جـ ١٦ / ٤٧ ـــ وبنت مخـزوم فاطمة بنت عمرو بن مخزوم أم عبد الله والزبير وأبي طالب ، وهي جدة النبي لأبيه ، وقد ولدت هاله بنت وهب بن عبد عناف بن زهرة حمزة وصفية رضي الله عنها ، وأم الحارث والد أبي سـفيان سـمية بنـت موهب ، وموهب غلام لبني عبد مناف ، يريد أنه من نسب العبيد .

وقد بدأها حسان رضي الله عنه بمقدمة غزلية أولها :

عفت ذات الأصابع فالجِوَاء[1] إلى عذراء مَنزِلُهَا خــلاء

واستغرقت عشرة أبيات ، ثم دخل في موضوع القصيدة ، وقد ذكر فيه العمرة والفتح ، وهذا يحدد لنا زمن قيلها قبيل الفتح ، وقد تناول الفتح ثم مدح المسلمين ثم خــص قومــه الأنصار بالمدح فوصفهم بالشجاعة والإقدام ، وأنهم نصروا رسول الله ، والــوحي ينــزل فيهم ، ثم هجا أبا سفيان بن الحرث ، ونذكر لك القصيدة كاملة للتتم بهــا الفائــدة ، قــال حسان رضي الله عنه[2] :

عَفَتْ ذَاتُ الأَصَابِعِ فالجِــوَاءُ إِلَى عَذْرَاءَ مَنْزِلُها خَــلاَءُ[3]

دِيَارٌ منْ بَنِي الحَسْحَاسِ قَفْرٌ تُعَفِّهَا الرَّوَامِسُ وَالسَّمَاءُ[4]

وكَانَتْ لا يَزَالُ بِهَــا أَنِيــسٌ خِلالَ مُرُوجِهَا نَعَمٌ وَشَاءُ[5]

فَدَعْ هَــذَا وَلَكِــنْ مَنْ لطَيْفٍ يُؤَرِّقُنِي إِذَا ذَهَبَ العِشَــاءُ[6]

لِشَعْثَــاءَ التِــي قَــدْ تَيَّمَتْــهُ فَلَيْسَ لِقَلْبِه منْهَا شِفَــاءُ[7]

كَأَنَّ خَبِيئَــةً مِنْ بَيْــتِ رَأْسٍ يَكُونُ مِزَاجَهَا عَسَلٌ وَمَاءُ[8]

---

(1) الجواء موضع بالشام . وهو منزل الحرث بن أبى شمر الغسانى ، وعذراء: مكان قريب من دمشق .

(2) ارجع إلى ديوان ، تحقيق وليد عرفات ، صادر ، بيروت ص ١٧، السيرة النبوية جـ ٤ / ٤٤ ، ٤٥

(3) عفت : درست وتغيرت ، وذات الأصابع، والجواء : موضعان في بلاد الشام بأكناف دمشق ، وعــذراء : موضع على بريد من دمشق ، وهذه المواضع كانت بها منازل بني جفنة ملوك غسان الذين كان ينــتجعهم حسان رضي الله عنه في أيام الجاهلية ، فهو لا يفتأ يذكرها ، ومنزلها : إنما أفرده ؛ لأنه حين أضافه فقــد آذن بعمومه، وخلاء : قفر خال .

(4) الحسحاس هنا وصف وليس علما ، والحسحاس : الرجل الجواد الذي يطرد الجــوع بــسخائه ، وقفــر : موحشة خالية ، والروامس :الرياح التي تثير التراب فترمس به الآثار : أي طمسها وتعفيها ، والــسماء : أراد به هنا المطر .

(5) المروج : جمع مرج ، وهو الأرض الواسعة ذات الكلأ ، والنعم : الإبل ، وهم يخصون الإبل بهذا الاسم؛ لأنها أكثر أموالهم ، والشاء : الغنم .

(6) الطيف : الخيال الذي يلم في النوم ، ويؤرقني : يسهرني ويذهب نومي وقوله " إذا ذهــب العــشاء " أراد إذا حان موعد النوم .

(7) شعثاء : قيل هي بنت سلام بن مشكم ، وقيل : هي امرأة من خزاعة، وأراها رمزاً تقليدياً لاتعنى امــرأة معروفة، وتيمته : أي استولت على قلبه وذللته وذهبت به كل مذهب .

(8) خبيئة : مخبوءة ، ويروي في مكانه " سيئة "، والمراد على أية حــال الخمــر ، وبيــت رأس : موضــع بالأردن مشهور بالخمر ، وفي الديوان بعد هذا البيت قوله :

على أنيابها أو طَعْم غضٍّ من التفاح هَصَّرَةً الجناءُ

إذَا ما الأشْرِ بَاتُ ذُكِرْنَ يَوْماً فَهُنَّ لِطَيِّبِ الرَّاحِ الفِـدَاءُ[1]

نُولِّيهَا المَلامَـةَ إنْ ألمْنَـا إذَا مَا كَانَ مَغْثٌ أوْ لِحَاءُ[2]

ونَشْرَبُهَـا فَتَتْرُكنَـا مُلُوكـاً وأُسْداً مَا يُنَهْنِهُنَا اللِّقَـاءُ[3]

بدأ حسان رضي الله عنه بمقدمة طلليه بكى فيها ديار بني الحسحاس التي كانت تسكنها حبيبته "شعثاء"، وقد تيمت قلبه وأرقت نومه ، وليس لقلبه من حبها شفاء ، وقد لجأ إلى الخمر الممزوجة بالعسل والماء يتداوى بها من ألم حبها. فإذا شربها غاب عن وعيه ونسى ما به من ألم الحب وأعطيته شعورا واهماً أنه صار ملكا على الناس ، وأسداً في المعركة فلا يهاب لقاء العدو. وقد أثارت هذه المقدمة جدلاً بين العلماء لما ذكر فيها من غزل في شعثاء التي قيل عنها إنها بنت سلام بن مشكم اليهودي ، وقيل هي من خزاعة ، والمتفق عليه أن ذلك قبل إسلامه وذكر الخمر وأثرها في نفسه عندما يشربها ، وهي مما حرمه الإسلام فقيل إنها قيلت في الجاهلية وأكملت في الإسلام .

وأرى أنها ليست إلا تقليداً لما كانت عليه افتتاحية القصيدة في الجاهلية ، وهي مثل الافتتاحات الدينية التي ابتدأ بها القصاص قصصهم في الإسلام ، وليست إلى تمهيدا للدخول إلى موضوع القصيدة، ولم ترو كتب الحديث هذه المقدمة.

وقد أحسن حسان التخلص منها ، ودخل إلى موضوع القصيدة ، فالخمر تتركهم ملوكاً وأسداً في المعارك لا يهابون لقاء العدو ، ثم قال موجهاً خطابه إلى مشركي مكة :

عَدِمْنَا خَيْلَنَا إنْ لَـمْ تَرَوْهَا تُثِيرُ النَّقْعَ مَوْعِدُهَـا كَـدَاءُ[4]

يُنَازِعْنَ الأعِنَّـةَ مُصْغِـيَات عَلَى أكْتَافِهَا الأسَلُ الظِّمَـاءُ[5]

تَظَـلُّ جِيَادُنَـا مُتَمَطِّـرَاتٍ يُلَطِّمُهُـنَّ بِالخُمُـرِ النِّسَـاءُ[6]

---

(1) يريد إذا ذكرت الاشرية فهذه الخمر أفضلها .

(2) ألمنا : أتينا ما نلام عليه ، والمغث : الشر والقتال ، وهو الأخذ باليد ، واللحاء : السباب والشتم ، يقول : إننا ننسب إلى الخمر ما يكون منا إذا شربناها مما يستحق اللوم .

(3) ينهنهنا : يزجرنا ويردنا ، واللقاء أراد به لقاء الأعداء ، والمراد أنهم إذا شربوها لم يهابوا لقاء العدى .

(4) النقع : العبار ، وكداء : الثنية العليا بمكة ، مما يلى المقابر ،وهى المعلى .

(5) ينازعن بروي في مكانه (يبارين) والمراد أن الخيل تجاري الأعنة ،وذلك كناية عن لينها وسرعة انقيادها، ومصغيات:مستمعات ،ويروى في مكانه (مصعدات) والأسل : الرماح ،الظلماء: العطاش .

(6) متمطرات : ذاهبة مسرعة يسبق بعضها بعضا، وتلطمهن: تضرب خدودهن لتردهن، والخمر: جمع خمار، وهو ما تغطي به المرأة وجهها، وقد روى أن نساء مكة يوم الفتح ظللن يضربن بخمارهن وجه الخيل ليرددهن.

فَإِمَّـــا تُعْرِضُـــوا عَنَّـــا اعْتَمَرْنَـــا ... وَكَانَ الفَـتْحُ وَانْكَـشَفَ الغِطَـاءُ[1]

وَإِلاَّ فَاصْـــبِرُوا لِجِـــلاَدِ يَـــوْمٍ ... يُعِينُ اللهُ فِيـــهِ مَـــنْ يَـشَـاءُ[2]

وَجِبْرِيـــلٌ رَسُـــولُ اللهِ فِينَـــا ... وَرُوحُ القُدْسِ لَيْسَ لَـــهُ كِفَـاءُ [3]

وَقَـــالَ اللهُ قَـــدْ أَرْسَـــلْتُ عَبْـــدًا ... يَقُولُ الحقَّ إِنْ نَفَـعَ البَـــلاَءُ [4]

شَـــهِدتُ بِـــهِ فَقُومُـــوا صَدِّقُـــوهُ ... فَقُلْـــتُمْ لا نَقُـــومُ وَلاَ نَـــشَـــاءُ

وَقَـــالَ اللهُ قَـــدْ سَـــيَّرْتُ جُنْـــدًا ... هُمُ الأَنْـــصَارُ عُرْضَـــتُهَا اللِّقَـاءُ[5]

لَنَـــا فِـــي كُـــلِّ يَـــوْمٍ مِـــنْ مَعَـــدٍ ... سِـــبَابٌ أَوْ قِتَـــالٌ أَوْ هِجَـــاءُ

فَـــنَحْكِمُ بِـــالقَوَافِي مَـــنْ هَجَانَـــا ... وَنَضْرِبُ حِـــينَ تَخْـــتَلِطُ الـــدِّمَاءُ[6]

أَلاَ أَبْلِـــغْ أَبَـــا سُفْيَـــانَ عَنِّـــي ... مُغَلْغَلَةً فَقَـــدْ بَـــرِحَ الخَفَـــاءُ[7]

بِـــأَنَّ سُـــيُوفَنَا تَرَكَتْـــكَ عَبْـــدًا ... وَعَبْدُ الـــدَّارِ سَادَتُهَـــا الإِمَـــاءُ

هَجَـــوْتَ مُحَمَّـــدًا وَأَجَبْـــتُ عَنْـــهُ ... وَعِنْدَ اللهِ فِـــي ذَاكَ الجَـــزَاءُ [8]

أَتَهْجُـــوهُ وَلَـــستَ لَـــهُ بِكُـــفءٍ ... فَـــشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَـــا الفِـــدَاءُ

هَجَـــوْتَ مُبَارِكًـــا بَـــرًّا حَنِيفًـــا ... أَمِـــينَ اللهِ شِيمَتُـــهُ الوَفَـــاءُ[9]

أَمَـــنْ يَهْجُـــو رَسُـــولَ اللهِ مِـــنْكُمْ ... وَيَمْدَحُـــهُ وَيَنْـــصُرُهُ سَـــوَاءُ[10]

فَـــأَنَّ أَبِـــي وَوَالِـــدَهُ وَعِرْضِـــي ... لِعِـــرْضِ مُحَمَّـــدٍ مِنْكُـــمْ وِقَـــاءُ

---

(1) اعتمرنا : أدينا مناسك العمرة ، وانكشف الغطاء : ظهر ما كان خفياً .

(2) الجلاد : المضاربة بالسيوف ، وقوله "يعين الله" يروى في مكانه " يعز الله " .

(3) أصل القدس طهارة ، والمراد بروح القدس جبريل عليه السلام ، وليس له كفاء : أي ليس لـه مثـل ولا نظير، يريد لا يقوم له أحد .

(4) أراد بالعبد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، البلاء : الاختبار .

(5) عرضتها اللقاء : أراد عادتها التي جرت على أن تتعرض لعملها .

(6) نحكم : نمنع ، ومنه قول جرير :-

أبنى حنيفة أحكموا سفهاءكم ... إني أخافُ عليكم أن أغضبا

(7) مغلغلة : الرسالة ترسل من بلد إلى بلد ، وقد روى في الديوان : ألا أبلغ أبا سفيان عني فأنـت مجـوف نخب هواء والمجوف : الجبان ، وأصله خالي الجوف ، والنخب والهواء مثله .

(8) الجزاء المكافأة على الشيء ، سواء أكان خيرا أم شرا ،

(9) الحنيف : أصله المائل ، مأخوذ من الحنف ، ويقال رجل أحنف وحنيف ، ورجال حنفاء ، و أراد بالحنيف هنا المسلم، لأنه مال عن الباطل إلى الحق ، ويروي في مكانه (حفى)، وهو المبالغ في الشيء والبحـث عنه ، وشيمته : طبيعته .

(10) يريد أمن يهجو رسول الله ومن يمدحه سواء ؛ بدليل الأخبار عنه بسواء التي لا يخبر بها إلا عن متعدد ؛ فحذف الاسم الموصول المعطوف على الموصول وأبقى صلته .

لِـــسَانِي صَـــارِمٌ لاَ عَيْـــبَ فِيـــهِ وَبَحْـــرِي لا تُكَـــدِّرُهُ الـــدِّلاءُ[1]

وكان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم النبيﷺ ، وكان يؤذيه ويؤذي المسلمين ويهجوه ويهجو المسلمين ويقلب عليه المشركين فاستئذنه حسان في الرد عليه وهجائه ، فأذن له على ألا يصيب قرابته منه .

فمدح حسان من آل هاشم بني بنت مخزوم ، وهي أم عبد الله أى النبي صلى الله عليه وسلم والزبير، وأبى طالب أبي على رضي الله عنه، وهما عما رسول الله ﷺ :

وأم والد أبي سفيان بن الحارث هي سمية بنت موهب، وكان موهب غلام لبني عبد مناف وأم أبي سفيان كانت كذلك ، وهو المراد بقوله لم يقرب عجائزه ، فأمه وأم أبيه ابنتا عبدين. وقد تلطف حسان رضي الله عنه في هجائه ولم يصب من نسب أبي سفيان شيئا له صلة بنسب رسول اللهﷺ [2].

الشرح : قال حسان مخاطبا شاعر المشركين : هجوت محمدا ، وقد دافعت عنه ، وأبتغي بذلك الجزاء من الله تعالى ، ومحمد الذي هجوته هو البر المحسن الذي اجتمع الخير فيه والمتنزه عن المآثم، والمستقيم المائل إلى الخير على ملة إبراهيم عليه السلام .

وقد جعلت أبي وجدي وعرضى وفاء للنبي صلى الله عليه وسلم وأفيه بهم، فجعلتهم وكل أمرى عرضة للذم فداء له.

ودعا على نفسه بفقد ابنته التي يحبها إن لم تدهمهم جيوش عظيمة تثير التراب والغبار لكثرتها تدخل عليكم مكة من كداء(باب من أبواب مكة). ولن يصدها عنكم شيء ، ولن ترجع عنكم فهي ظمأي ، وتريد أن ترتوي من دمائكم، وهذه الخيل تحمل على ظهورها رجال أصلاب أقوياء كالرماح ، وسوف تزيل النساء التراب بعد أن نوقع بكم هزيمة منكرة ، فهي خيل عزيزة كريمة. وليس أمامكم إلا أن تتركونا نعتمر ونفتح مكة وينجلي الأمر ، فإن لم تسلموا لنا وتقبلوا الفتح ، فاصبروا لحربنا وسوف يعز الله من يشاء .

ولقد أرسل الله تعالى نبيه وهو عبد من عباده يقول الحق دون مراء ، ومدح الشاعر قومه الأنصار فقال :

---

(1) أصل الصارم السيف القاطع ، فشبه به لسانه ، ويروي : " لساني صارم لا عتب فيه ".

(2) وهو المراد من قوله " لأسلنك منهم كما تسل الشعر من الخمير، والخمير العجين وجاء بهذا اللفظ في رواية أخرى أي لأتلطفن في تخليص نسبك من هجوه بحيث لا يبقى جزء نسبك في نسبهم الذي ناله الهجو مثل الشعرة التي تسل من العجين ، لا يبقى منها شيء فيه بخلاف ما لو سلت من شيء ،صلب فإنها بما انقطعت منها فيه بقية. شرح النووي لصحيح مسلم ج ٤٨/١٦.

وقد هيأ الله تعالى لكم جنده الأنصار وهم جند يقبلون على الحرب ولا ينصرفون عنها ويحبون لقاءكم ، وهذا الجند يجاهد مشركي العرب ، ويلاقي منهم السباب والقتال والهجاء لما يحدثه فيهم ، وليس مدحكم رسول الله أو هجاؤكم بشيء .

فقد شرفنا الله تعالى بنزول جبريل الوحي على محمد صلى الله عليه وسلم وهو منا وليس لجبريل عليه السلام نظير وكفء مماثل ومقاوم فيكم .

وقال يهجو أبا سفيان بن الحارث :

إنّ السَّنَـــامَ وإنْ طالَتْ شَطيّتُه ... يَعتادُ ذِرْوَتَهُ الأدواءُ والعَمَدُ[1]

فاللّؤمُ فيكَ وفي سَمراءَ ما بَقيَتْ ... وفي سُمَيّة حتى يَنْفَدَ الأبَـدُ[2]

وقد أوجع المشركين بهجائه فجعل الرجل منهم طائرا غريبا أو غصناً مريضا ضعيفاً يهوى ، ثم يسدد أسهمه إلى الرجل منهم فما يقوم له ولا يثبت ، فتعرض لأخلاق الرجال فمزقها تمزيقاً وأقذع القول فيهم ، فتألموا من وقع قوله ، وقد أغراه بهم صدق إيمانه ويقينه بالحق ، وحبه لله تعالى ورسوله ورضى رسول الله ﷺ عنه، وسروره بشعره فيهم .

وكان لليهود نصيب من هجاء شعراء المسلمين، فقد شاركوا المشركين في عداوة الإسلام، قال حسان في خيبر يهجوهم، ويعيّرهم، وقد هزمهم المسلمون بها هزيمة منكرة[3].

بئس ما قاتلت خيـــابرُ عما ... جَمَّعُوا من مزارع ونخيـلِ

كرهوا الموت فاستبيح حِماهُمْ ... وأقرُّوا فِعْلَ اللئيم الذَّليـــلِ

أمـــن الموت تهرُبُون فإن الـــ ... موتَ موتُ الهُزَال غيرُ جميلِ

ويتميز شعر حسان بأنه ذو مسحة مدنية، فهو من يدخل في شعر أهل الحضر، فلا تجد فيه جلافه البادية وغلظتها وتكلفها، وغرابة ألفاظها ووحشيتها، فقد عاش حسان في يثرب، ثم الشام ثم العراق ثم عاد إلي الشام، فقد عاش في كنف الملوك والسادة وبين قومه الخزرج، وقد شاركهم في حربهم مع الأوس ولم يك مقاتلاً ولا من رجال الغزو، وإنما أخلص نفسه للشعر بيد أن ابن رواحه كان فارساً محارباً ثم شاعراً، وكان كعب بن مالك كذلك ــ رضى الله عنهم ــ وقد تأثر في الإسلام بالمضامين الإسلامية والقرآن الكريم وخطاب النبيﷺ، وتأثر بالروح الإسلامية التي أظلت المسلمين وسكنت قلوبهم، فوقع في

---

(1) شطيته : جانبه .

(2) سمراء : أم الحارث بن عبد المطلب ــ وسمية : أم أبي سفيان .

(3) السيرة جـ/ ٣/ ٤٠١ .

شعره معاني قرآنية، ووظف فيه تراكيب قرآنية وولد معاني جديدة، وبه كثير من الألفاظ الإسلامية، وهي ألفاظ وقعت في لغة الجاهلين، واستخدمت في الإسلام بمعان جديدة، مثل : الإسلام، والكفر، والإيمان، العقيدة، الصلاة، الشريعة، النفاق، الصيام، الزكاة، الدعاء، النافلة، الحج، الشرك، الوثنية، الجهاد، الثواب، العقاب، الجنة، النار، القيامة، البعث..، وغير ذلك من المفردات التي كساها الإسلام معنى جديداً فطور من دلالتها ووسعها ناهيك عما في قصائده من مضامين إسلامية تتعلق بالإيمان والتوحيد والشرك والموت والجنة والنار والجهاد .

وقد كان يرسل الشعر على سجيته فلا يتكلف، ولا يسرف في القول، فكان يرتجل شعره تأثراً بالموقف، فيستجيب له فيرسله على ما توحى به قريحته، ويرجع ذلك إلي طبيعة الموقف وسرعة الحدث وما أحدثه الإسلام من تغيير مفاجئ في حياة الناس، وكانت الحماسة الدينية تدفع حسان إلي الإسراع بالقول الذي تفيض به قريحته ، وكان صادقاً في إيمانه.

وكانت انفعالاته سبباً في انتقاله السريع من مقدمته أحياناً إلي الموضوع الرئيس، فكان الشاعر يطيل في مطلع القصيدة (المقدمة)، ويسترسل في موضوعها وما يصفه بيد أن حسان كان يمل هذا الطول ويلقي به، ويدخل في الموضوع:

واتخذ بعض المحدثين الانتقال السريع في شعر حسان مطعناً ، فقالوا إن قصيدته غير مرتبة أحياناً، وقد يكون بها خلل، وتفتقد إلي التسلسل المنطقي، وهذا شأن كثير من الشعر، وقد وقع اختلاف في ترتيب قصائد الشعر، في بعض الروايات، وقد وقع هذا في شعر مدرسة الصنعة، وسوف تجد في كتابنا إشارات إلي وقوع زيادات واختلاف في ترتيب قصيدة "بانت سعاد"، وهي لكعب بن زهير، وهو الرجل الثاني في مدرسة زهير التي كانت تراجع أشعارها وتحوكه وتحسنه وتصلح منه، وعرف عنها الدقة، وقصيدته التي مدح فيها الأنصار فيها زيادات واختلافات كثيرة، وقد دس عليه ما لم يقله.

وحمل على حسان بعض الدنيويين حملة شعواء، وهدفهم هدم المنزلة التي حظى بها عند رسول الله ﷺ، وعند المسلمين عامة، وإن كان شعره ضعيفاً عند قوم فهو عند رسول الله ﷺ جيش فتاك، وكان على المشركين كوقع النبل جملة واحدة.

إن حسان مؤسس مدرسة الشعر الديني، وقد أقام الحجاج والمناظرة في الإسلام بشعره، وهو أيضاً الذي جعل للشعر غاية دينية يبتغي بها وجه الله ورضاءه. وقد كان وحدة كفئاً لشعراء المشركين جميعاً، فقد كان شعره أشد عليهم من السيف، وكان النبي ﷺ يعرف له ذلك .

الحماســـــة

الحماسة هى الشجاعة والشدة، ويراد بشعر الحماسة الشعر الذي يقال في الحروب يشد من أزر الجنود، ويقوي عزمهم ويدفع همتهم، فما وصف به من الـشجاعة والـشدة فـي الحرب يسمى حماسة وبسالة .

وقد بدأ شعر الحماسة في الجاهلية في القصائد التي قالتها العرب في أيامهـا وفخرهـا بالوقائع التي انتصرت فيها .

ويشكل الرجز جزءاً من شعر الحماسة، فقد ارتجز كثير من فرسان العرب، وهـم فـي طريقهم إلي لقاء العدو، وهم يقاتلونه، وهو أبيات قليلة يرتجلها صاحبها من فيض خاطره وما يختلج فيه من مشاعر جياشة ويعيش لحظة صدق في لقاء العدو أو في موقف أو في ضائقة .

وقد صح عن النبيﷺ شئ من ذلك، ومنه ما رواه البراء بن عازبرضي الله عنه: رأيـت النبـي ﷺ والعباس وأبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وهما آخذان بلجام بغلته، وهو يقول:

أنا النبي لا كَذِب أنا ابن عبد المطلب[1]

وروي عن سفيان بن عيينة يرفعه إلي النبيﷺ، أنه لما دخل الغار نُكِبَ، فقال:

هل أنت إلا إصبعٌ دَمِيت وفي سبيل الله ما لقيت[2].

وكان النبيﷺ ينقل اللَّبِن يوم الخندق ويقول :

---

(1) صحيح البخاري ، كتاب المغازي في غزوة حنين .

(2) العقد الفريد جـ ٥/٢٨٣.

وقد رأى الخليل بن أحمد وابن عبد ربه أن هذا من المنثور الذي يوافق الشعر، وقيل: هذا رجـز ولـيس من أقسام الشعر، وقيل هو كلام موزون لا يقصد به الشعر، ولا يبلغ مقدار القصيدة. فـتح البـاري جـ ٧/٦٣٠ وهذان البيتان لم تقع نسبتهما لأحد غير رسول الله ﷺ.

هذا الحمَال لا حمَالَ خيبر هذا أبرُّ ربَّنَا وأطهَر [1]

ويقول:

اللهم إنَّ الأجرَ أجرُ الآخرة فارحم الأنصار والمهَاجره

وقيل إنه تمثل بشعر رجل من المسلمين. وقال قائل من المسلمين في الخندق:

لئن قعــدنا والنبي يعمــل ذاك إذاً للعمل المضلل

وقال علىﷺ في ذلك[2]:

لا يستوي من يعمر المساجدا يدأب فيها قائماً وقاعدا

ومن يرى عن التراب حائدا

وكان علىﷺ يرتجز إذا برز إلي القتال ويقول[3] :

أيّ يوم من الموت أفرُّ يومَ لا يُقدر أم يوم قــــدر

يوم لا يُقدر لا أرهبــه ومن المقدور لا يَنْجو الحَذِر

وقال أبو زَعْنَة بن عبد الله الخزرجى يوم أحد[4] :

أنا أبو زعْنَة يعْدو بي الهُزَمْ لم تمنع المخزاة إلا بالأَلَمْ

يحمي الذِّمارَ خزرجيٌّ من جُشَمْ

افتخر بنفسه وبفرسه (الهُزَم) الذي يعدو به في الحرب، ولا يمنع الإنسان عــن نفــسه العار إلا بمواجهة العدو وبالمعاناة والألم .

وكان لأبي دجانة عصابة يضعها على رأسه في الحروب و تعرف "عــصابة المــوت"، فخرج يوم أحد، وهو يقول ومعه سيف رسولﷺ :

أنــا الذي عاهــدني خليلي ونحن بالسفح لَدَى النَّخيل[5]

أن لا أقُومَ الدَّهْرَ في الكيُّول أضرِبْ بسيف الله والرسول

وكان للنساء دور في تسعير المعركة في الجاهلية، فكانت النساء تخرجن وتكــن فــي عقب الجيش، وترتجزن الأشعار الحماسية، فقد كانت هند بنت عتبة ونسوة كن معها يوم

---

(1) صحيح البخاري ، كتاب المناقب، باب مناقب الأنصار، وفتح الباري ٢٨٢/٧ ، ٢٨٣ .

(2) فتح الباري جـ ٢٨٣/٧ .

(3) العقد الفريد جـ ٢٨٧/٥ .

(4) السيرة جـ ١٥٤/٣

(5) السيرة جـ ١٤/٣. السفح: جانب الجبل ، الكيول : آخر الصفوف في الحرب .

أحد يضربن الدفوف خلف الرجال، ويحرضنهم، فقالت هند فيما تقول[1]:

ويْهاً بني عبد الدار ويْهاً حُمَاة الأدبـــار ضرباً بكل بتـــــار

وتقول[2] :

إن تقبلوا نُعَانِقْ ونفرش النَّمارق

أو تدبروا نفارِق فِراق غير وامِق

وقد كان شعراء عصر النبوة مجاهدين يقاتلون بالسيف والشعر معاً، وقد كانت أشعارهم الحماسية استجابة مباشرة عما جاشت به قريحتهم في الموقف الذي تأثرت به، وقد ألهـب انتصار بدر قريحته الشعراء وغوّر بهم في ميدان الشعر، فصارت لهم الكلمة على شـعراء قريش .

وقال حسان بن ثابت ﷺ في انتصار بدر، ويفخر بالنبي ﷺ قائد المعركة[3]:

مُسَشْعِرِى حَلَقَ المَاذِىِّ يَقْدُمُهُمْ جَلْدُ النَّحيزَة مَاضٍ غَيْرُ رِعْدِيد[4]

أعْنِى رَسُولَ إله الخَلْقِ فَضَّلَـهُ عَلَى البَرِيَّة بالتَّقْوَى وَ بالْجُـــود

وَقَدْ زَعَمْتُمْ بِأَنْ تَحْمُوا ذِمَارَكُم وَمَاءُ بَدْرٍ زَعَمْتُمْ غَيْرُ مـــوْرُود[5]

ثُمَّ وَرَدْنَا ولَمْ نَسْمَعْ لِقَوْلِكُـــمُ حَتَّى شَرِبْنَا رِوَاءً غَيْرَ تَصْرِيـد[6]

مُسْتَعْصمينَ بِحَبْلٍ غَيْرِ مُنْجَـذِمٍ مُسْتَحْكِـمٍ مِنْ حِبَالِ اللهِ مَمْدُود[7]

فِينَا الرَّسُولُ وَفِينَا الْحَقُّ نَتْبَعُـهُ حَتَّى الْمَمَاتِ وَنَصْرٌ غَيْرُ مَحْدُود[8]

وافٍ ومَاضٍ شِهَابٌ يُسْتَضَاءُ بِه بَدْرٌ أَنَـارَ عَلَى كُلِّ الأَمَاجِيـد[9]

---

(1)السيرة جـ٣/١٣ ويهاً: كلمة تحريض وإغراء، حماة الأدبار: الذين يحمون أعقاب الناس، البتار: السيف القاطع الماضي في ضربته .

(2) السيرة جـ٣/١٣: النمارق: جمع نمرقة، وهى الوسادة الصغيرة ، الوامق : المحب .

(3) ديوان ص ٨٤، وقد نسبها ابن إسحق إليه ، ونسبها ابن هشام إلي عبد الله بن الحارث السهمي ﷺ .

(4) مستشعري : لابسي ، تقول : استشعرت الثوب، إذا لبسته على جسمك من غير حاجز، ومنه الشعار وهو ما ولى الجسم من الثياب، ويقابله الدثار، وهو ما كان فوق ذلك، والمـاذى : الـدروع اللينـة البـيض، والنحيزة: الطبيعة، والرعديد: الجبان.

(5) الذمار ــ ككتاب ــ ما وجب على المرء أن يحميه .

(6) رواء : هو التملؤ من الماء، والتصريد : تقليل الشرب.

(7) المنجذم : المنقطع .

(8) المحدود : الممنوع .

(9) الأماجيد : الأشراف السادة .

لقد كان النبيﷺ دعماً قوياً وعظيماً في المعركة، وهو مع أصحابه رضوان الله عنهم، ويأتمون به، وكان يتقدمهم ويقدم لهم نموذجاً عظيماً في الشجاعة والقتال، فيحتمعون بـــه إن اشتدت المعركة، ويتعززون به إن احتاجوا مدداً.

وقد كانوا على ثقة بما هم عليه من حق، فقائدهم رسول اللهﷺ الذي يقدمهم بأمر مـــن الله مُحكم، فلا مراء في أمره ولا خلاف على رأيه .

وقال كعب بن مالك أيضاً في بدر:

لَعَمْرُ أَبِيكُمَا يَا ابْنَـــيْ لُؤَى ... عَلَى زَهْوٍ لَدَيْكُمْ وَانْتِخَاءِ[1]

لَمَا حَامتْ فَوَارِسُكُـــمْ بِبَدْرٍ ... وَ لاَ صَبَرُوا بِهِ عِنْدَ اللِّقَاءِ[2]

وَرَدْنَاهُ بِنُورِ اللهِ يَجـــلُو ... دُجَى الظَّلْمَاءِ عَنَّـــا وَالغِطَاءِ

رَسُـــولُ اللهِ يَقْدُمُنَا بِأَمـــرٍ ... مِن أَمْرِ اللهِ أُحْكِـــمَ بِالقَضَاءِ

فَمَا ظَفِرَتْ فَوَارِسُكُمْ بِبَـــدْرٍ ... وَمَا رَجَعُـــوا إِلَيْكُمْ بِالسَّوَاءِ

فَلاَ تَعْجَلْ أَبَا سُفْيَانَ وَارْقُبْ ... جِيَادَ الخَيْلِ تَطْلُعُ مِنْ كَدَاءِ[3]

بِنَصْرِ اللهِ رُوحُ القُدْسِ فِيهَا ... وَمِيكَالٌ فَيَـــا طِيبَ المَلاَءِ[4]

وكان للأنصار دور عظيم في نصرة النبي ﷺ والمسلمين، فقد بذلوا النفس والمال فيه .قال حسان بن ثابت في ذلك :

قَوْمِي الَّذِينَ هُمُ آوَوْا نَبِيَّهُـــمُ ... وَصَدَّقُوهُ وَأَهْلُ الأَرْضِ كُفَّارُ

إِلاَّ خَصَائِصَ أَقْوَامٍ هُـــمُ سَلَفٌ ... لِلصَّالِحِينَ مَعَ الأَنْصَارِ أَنْصَارُ

مُسْتَبْشِرِينَ بِقَسْمِ اللهِ ، قَوْلُهُـــمُ ... لَمَّا أَتَاهُمْ كَرِيمُ الأَصْلِ مُخْتَارُ[5]

أَهْلاً وَسَهْلاً فَفِي أَمْنٍ وَفِي سَعَةٍ ... نِعْمَ النَّبِيُّ وَنِعْمَ الْقَسْمُ وَالْجَارُ

فَأَنْزَلُوهُ بِـــدَارٍ لاَ يَخَـــافُ بِهَـــا ... مَنْ كَانَ جَارَهُمُ دَاراً هِيَ الدَّارُ

سِرْنَا وَســـارُوا إِلَى بَدْرٍ لِحَيْنِهِمُ ... لَوْ يَعْلَمُونَ يَقِينَ الْعِلْمِ مَا سَارُوا

---

(1) الزهو : الكبر، و الانتخاء : الإعجاب بالنفس .

(2) حامت : منعت نفسها ودافعت عنها .

(3) كداء ــ بفتح الكاف ممدوداً ــ موضع بمكة .

(4) الملاء : الملأ ، وهم أشراف القوم، ومده : ضرورة .

(5) القسم ــ بفتح القاف ــ مصدر قسم ، وهو بكسر القاف : الحظ والنصيب. روى : "لما أتاهم كريم الأصـــل مختار".

دَلاَّهُمُ بِغُـــرُورٍ ثُمَّ أَسْلَمَهُـــمْ ... إِنَّ الخَبِيثَ لَمَنْ وَالاَهُ غَـــرَّارُ
وقَالَ: إِنِّـــى لَكُـــمْ جَارٌ فأَوْرَدَهُمْ ... شَرَّ المَوَارِدِ فِيهِ الخِزْىُ وَالعَارُ
ثُمَّ التَقَيْنَـــا فَوَلَّـــوْا عَنْ سَرَاتِهِمُ ... مِنْ مُنْجِدِينَ وَمِنْهُمْ فِرْقَةٌ غَارُوا[1]

وقد أصيب المسلمون يوم أحد، فاستشهد منهم رجال صدقوا ماعاهدوا الله عليه، وقد وقعت فيهم خسائر بشرية أكثر مما فقدوه يوم بدر وهم يومئذ قلة، ولم يك مصابهم في أحد من قلة، فقد كانوا أكثر عدداً من يوم بدر.

وقد كمنوا للمشركين يوم أحد، وجعلوا الجبل ردءاً لهم يحمى ظهورهم، وانتصروا يوم أحد وهمَّ المشركون بالفرار بعد أن أدركوا الهزيمة، فأدرك خالد بن الوليد فرجة الجبل وقد تركه النبَّالة الذين جعلهم النبيﷺ، فخالفوا أمره فنزلوا من الجبل بعد أن رأوا هزيمة المشركين، فعلاهم خالد من الجبل وهو يومئذ مشرك – فلم يدر المسلمون ما حدث، ووقع الاضطراب في صفوفهم، وكثرت خسائرهم، وثأرت قريش لبعض قتلاها في بدر، وقتل حمزة بن عبد المطلبﷺ، وكان من الشخصيات البارزة في تاريخ الدعوة، وكان رجل حرب مقدام يخشى الأعداء صولته، وقد قتل غيلة يوم أحد، فلم يقدر أحد من المشركين على مواجهته.

وقد تحولت شعراء المشركين عن مراثي من قتل في بدر إلي الفخر والهجاء، فعيَّروا المسلمين بما حدث لهم وتوعدوهم بحرب أخرى بائدة، ولهم فيها أشعار كثيرة حماسية ورد عليهم شعراء المسلمين.

وكان مما قيل من الشعر في يوم أُحد قَوْلُ هُبَيْرَةَ ابن أَبي عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم ، وهو من المشركين:

مَا بَالُ هَمِّ عَمِيد بَـاتَ يَطْرُقُنِى ... بِالْوُدِّ مِنْ هِنْدَ إِذْ تَعْدُ عَوَادِيهَـا[2]
بَاتَتْ تُعَاتِبُنِي هِنْـدٌ وَتَعـــذُلُنِى ... وَالْحرْبُ قَدْ شُغِلَتْ عَنِّى مَوَالِيهَا
مَهْلاً فَلاَ تَعْذِلِينى إِنَّ مِنْ خُلُقِى ... مَا قَدْ عَلِمْتِ وَمَا إِنْ لَسْتُ أُخْفِيهَا

(1) السراة : خيار الناس ، ومنجدين : قاصدين نجداً ، وغاروا : ذهبوا إلي الغور .
(2) العميد : الموجع المؤلم، وأصل العميد البعير الذي انشق سنامه لكثرة اللحم فيه، والعوادي : الشواغل .

مُسَاعِفٌ لِبَنِى كَعْبٍ بِمَا كَلِفُوا ... حَمَّالُ عِبْءٍ وَأَثْقَالٍ أُعَانِيهَا[1]

وَقَدْ حَمَلْتُ سِلاَحِى فَوْقَ مُشْتَرِفٍ ... سَاطٍ سَبُوحٍ إِذَا يَجْرِي يُبَارِيهَا[2]

كَأَنَّهُ إِذْ جَرَى عَيْرٌ بِفَدْفَدَةٍ ... مُكَدَّمٌ لاَحِقٌ بِالْعُونِ يَحْمِيهَا[3]

مِنْ آلِ أَعْوَجَ يَرْتَاحُ النَّدِىُّ لَهُ ... كَجِذْعِ شَعْرَاءَ مُسْتَعْلٍ مَرَاقِيهَا[4]

أَعْدَدْتُهُ وَرُقَاقَ الْحَدِّ مُنْتَخَلاً ... وَمَارِناً لِخُطُوبٍ قَدْ أُلاَقِيهَا[5]

هَذَا وَبَيْضَاءَ مِثْلَ النَّهْىِ مُحْكَمَةً ... نِيطَتْ عَلَىَّ فَمَا تَبْدُو مَسَاوِيهَا[6]

سُقْنَا كَنَانَةَ مِنْ أَطْرَافِ ذِى يَمَنٍ ... عُرْضَ الْبِلاَدِ عَلَى مَا كَانَ يُزْجِيهَا[7]

قَالَتْ كَنَانَةُ أَنَّى تَذْهَبُونَ بِنَا ... قُلْنَا النَّخِيلَ فَأَمُّوهَا وَمَنْ فِيهَا[8]

نَحْنُ الْفَوَارِسُ يَوْمَ الْجَرِّ مِنْ أُحُدٍ ... هَابَتْ مَعَدٌّ فَقُلْنَا نَحْنُ نَأْتِيهَا[9]

هَابُوا ضِرَاباً وَطَعْناً صَادِقاً خَذِماً ... مِمَّا يَرَوْنَ وَقَدْ ضُمَّتْ قَوَاصِيهَا[10]

---

(1) مساعف : مطيع موات، بما كلفوا : أولعوا به وأحبوه، والعبء : الحمل الثقيل، وأراد به هنا ما يكلفونه من مشاق الأمور وعظامها، وأعانيها: أكابدها وأحتملها .

(2) مشترف : يروى بفتح الراء وبكسرها ؛ فمن رواه بفتح الراء عني به فرساً يستشرفه الناس، أي: ينظرون إليه ويتطلعون نحوه لحسنه، ومن رواه بكسر الراء عني به شرفاً عالياً مشرفاً على الأرض، وساط : أي بعيد الخطو إذا مشى، والسبوح : الذي يسبح في جريه كأنه يعوم، ويباريها : أى يعارضها ويجاريها، والضمير المستتر عائد إلي الفرس الذي وصفه، والضمير البراز عائد إلي الخيل، وقد أضمر الخيل وإن لم يجر لها ذكر لأن الكلام يدل عليها.

(3) العير : حمار الوحش، والفدفدة : الفلاة ، ومكدم : معضوض عضته آتنة (الأنثى منه آتن)، ولاحق : معناه ضامر، والعون: جماعات حمر الوحش.

(4) أعوج : اسم فرس مشهور في الجاهلية، ويرتاح له يستبشر به ويهتز لمرآه، والندى : المجلس فيه القوم، والجذع : الفرع ، والشعراء هنا : نخلة كثيرة الأغصان، ومراقيها : معاليها .

(5) رقاق الحد ــ بضم الراء ــ أراد به سيفاً ، ويروى رقاق ــ بكسر الراء ــ فهو جمع رقيق، والأول أحسن لأفراد الضمائر بعده، ومنتخلا : متخيراً، والمارن : الرمح اللين عند الاهتزاز، والخطوب : حوادث الدهر، واحدها خطب .

(6) بيضاء :عنى بها درعاً، والنهى : الغدير من الماء، وهو بفتح النون وكسرها، ونيطت : علقت، ويروى "لطت" بالبناء للمجهول ــ ومعناه ألصقت ومساويها : عيوبها .

(7) العرض ــ بضم فسكون ــ السعة ، ويزجيها : يسوقها .

(8) النخيل : أراد مدينة الرسول ﷺ ، وأموها : قصدوها .

(9) الجر ــ بالجيم مفتوحة ــ أصل الجبل .

(10) الخذم ــ بفتح الخاء وكسر الذال المعجمتين ــ الذي يقطع اللحم سريعاً، والقواصي : جمع قاصية، وهي ما تفرق وبعد.

ثُمَّتَ رُحْنَا كَأَنَّا عَارِضٌ بَرِدٌ ... وقَامَ هَامُ بَنِي النِّجَّارِ يَبْكِيهَا[1]

كَأَنَّ هَامَهُمُ عِنْدَ الْوَغَى فَلَقٌ ... مِنْ قَيضِ رُبْدٍ نَفَتْهُ عَنْ أَدَاحِيهَا[2]

أَوْ حَنْظَلٌ زَعْزَعَتْهُ الرِّيحُ فِي غُصُنٍ ... بَالٍ تَعَاوَرُهُ مِنْهَا سَوَافِيهَا[3]

قَدْ نَبْذُلُ المَالَ سَحًّا لاَ حِسَابَ لَهُ ... وَنَطْعُنُ الخَيْلَ شَزْراً فِي مَآقِيهَا[4]

وَلَيْلَةٍ يَصْطَلِي بِالْفَرْثِ جَازِرُهَا ... يَخْتَصُّ بِالنَّقَرَى المُثْرِينَ دَاعِيهَا[5]

وَلَيْلَةٍ مِنْ جُمَادَى ذَاتِ أَنْدِيَةٍ ... جَرْبَا جُمَادِيَّةٍ قَدْ بِتُّ أَسْرِيهَا[6]

لاَ يَنْبَحُ الْكَلْبُ فِيهَا غَيْرَ وَاحِدَةٍ ... مِنَ الْقَرِيسِ وَلاَ تَسْرِي أَفَاعِيهَا[7]

أَوْقَدْتُ فِيهَا لِذِي الضَّرَّاءِ حَامِيَةً ... كَالْبَرْقِ ذَاكِيَةَ الأَرْكَانِ أَحْمِيهَا[8]

أَوْرَثَنِي ذِكْرُهُمْ عَمْرٌو وَوَالِدُهُ ... مِنْ قَبْلِهِ كَانَ بِالْمَثْنَى يُغَالِيهَا[9]

---

(1) العارض : السحاب، والبرد ــ بفتح الباء وكسر الراء ــ الذي فيه برد، والهام: جمع هامة، وأصله الطائر الذي تزعم العرب أنه يخرج من رأس القتيل، وربما أطلق على رءوس القوم ووجوههم .

(2) الهام : جمع هامة، وهى الرأس، والوغى : الحرب، والفلق : جمع فلقة، وهى القطعة من الشئ، والقيض: بفتح القاف وسكون الياء وآخره ضاد معجمة ــ وهو قشر البيض الأعلى، والربد : جمع ربداء، وهى التي لونها بين السواد والبياض، وأراد ههنا النهام، والأداحى : جمع أدحى، وهو الموضع الذي تبيض فيه النعام .

(3) زعزعته : حركته وأثارته، وتعاوره : تتداوله، وأصله تتعاوره فحذف إحدى التاءين، والسوافي :جمع سافية، وهى الريح التي تقلع التراب والرمل في الأرض.

(4) السح : الصب، يريد أنه عطاء كثير، والشزر : الطعن عن يمين وشمال، والمآقي : مجاري الدموع في العين، أو المقدمات .

(5) الفرث : ما يخرج من كرش الحيوان، ويصطلى : أى يتسن، والنقرى ــ بفتحات ــ أن يدعو قوما دون قوم فيخص بدعوته لا يعم بها الناس، ويقابله الجفلى، وهو أن يدعو دعوة عامة لا يخص بها أحداً، والمثرين جمع مثر، وهو اسم فاعل من أثرى، إذا صار ماله كثيراً كالثرى، وهو التراب وقد نسب هذا البيت لجنوب أخت ذى الكلب الهزلي في غير يوم أحد .

(6) من جمادى:يريد أنها من ليالي الشتاء،وجربا:أصله جرباء،يريد شديدة البرد مؤلمة.وأسريها: أسير فيها.

(7) القريس: البرد مع الصقيع، والصقيع: الثلج الذي يلصق بالنبات وهو الجليد أيضاً، والأفاعي: جمع أفعى.

(8) لذى الضراء : أراد به صاحب الحاجة والفقر ، وحامية : أراد ناراً، ويروى في مكانه "جاحمة" وهى النار الملتهبة، وذاكية : أراد مضيئة.

(9) المثنى : أراد مرة بعد مرة؟، ويروى "أورثنى ذاكم" .

كَانُوا يُبَارُونَ أَنْوَاءَ النُجُــومِ فَمَا دَنَّتْ عَنِ السُورَةِ الْعُلْيَا مَسَاعِيــهَا[1]

لقد بدأ هبيرة بن أبى وهب ــ وهو من شعراء المشركين ــ قصيدة بمقدمة غزلية شكا فيها حب هند، وقد أثقلت همه بكثرة عتابها وهجرها له، وقد حدث منها ذلــك فــي وقــت الحرب التي شغلت رفاقه وسادته وأقاربه، فلم يجد رفيقاً يشكو إليه همه، فلا تتعجلــي يــا حبيبتي في هجري، فإني أحبك حباً جماً، وأنت تعلمين ذلك، ولا يخفي عليك أمري، وأنــت تعلمين من خلقي أن مطيع وألبي حاجات بني كعب وما أولعوا به، وأنــى كثيــر الأحمــال والأعباء، وأعاني من كثرة ما أكلف به.

وقد حملت سلاحي، وركبت فرسي الذي يستشرفه الناس ويتطلعون إليه لحسنه لسرعته وخفة حركته، فيمشي كأنه يسبح، واسع الخطو، ويعارض بجريه وسرعته الخيل، وكأنــه إذا جرى حمار الوحش يجري في الصحراء يلحق بجماعات الحمر الوحشية ليحميها، وهذا الحمار الوحشي يعجل في جريه كأنه قد عضته آتنه، وهذا الفرس من نسل آل أعوج، وهو فرس مشهور في الجاهلية بقوته، وضرب به المثل لتميزه في ذلك، وفرسي هذا يستبــشر به مجلس القوم إذا رآه ويهتز لمرآه لفرط إعجابه به ودهشته، فهو كجذع نخلــة طويلــة كثيرة الأغصان، والثمار تعجب الناظرين، وقد تخيرت هذا الفرس ورفاقاً آخــرين تخيــرت منهم سيفاً رقيقاً حاداً، ورمحاً ليناً عند الاهتزاز،وقد أعددتهم لحــوادث الــدهر التــي قــد ألاقيها، وأعددت لذلك درعاً بيضاء صافية مثل غدير الماء، محكمة الصنع، وقــد شــددتها على جسد، وألصقتها به، وليس بها عيب.

وقد جمع بنو كنانة أنفسهم من عرض البلاد واتساعها لأمر عظيم فرحــت لــه، وقــد تسائل المجتمعون منهم إلي أين المسير، ولما دعوتمونا للخروج؟ قلنا نريد أرض النخيــل (يثرب) فهي مقصدنا، يريد حرب المسلمين (وقد وقعت في جبل أحد)، فنحن الأبطال يــوم أحد، فقد خشوا لقاءنا، فأتيناهم في بلادهم، فقد خافوا ضرب سيوفنا وطعننا الــذي يقطــع اللحم، وقد وقع الخوف بهم، فجمعوا لنا الجمع، وكنا عليهم كسحاب عارض مهلك فيه برد، فوقع فيهم قتل كثير، وقام الهــام الذي يخــرج من الرءوس يبكي بني النجار، وقــصدهم؛ لأنهم أخوال النبيﷺ، وقد كان أهل الجاهلية يعتقدون أن هامة تخرج من رأس القتيل تبكيه وتطلب ثأره، والهامة قيل طائر تخرج من الرأس، وقيــل المــراد بالهــام رءوس القــوم ووجوههم، وقد بكت الرءوس القتلى وهو مجاز.

---

(1) يبارون : يعارضون ويفعلون مثل ما تفعل ، دنّت ــ بالنون مــشددة ــ أى قــصرت، يقــال : رجــل أدن العنق، إذا كان قصير العنق، والسورة الرفعة والمنزلة، و المساعي: جمع مسعاة ، وهى ما يسعى فيه من المكارم.

وكانت رءوسهم في الحرب أجزاء مثل قشر البيض الأعلى الذي أبعده النعام عن الموضع الذي تبيض فيه، يريد أنهم صاروا أشلاء ممزقين على الأرض ورءوسهم مفرقة. أو الرءوس مثل الحنظل الذي حركته الريح في غصن ميت ضعيف، وتتداوله الرمال الناعمة والتراب.

فنحن كرام نبذل مالاً كثيراً عطاء بلا إمساك، ونحن رجال الحرب نطعن عن يمين وعن شمال، وتصب ضارباتنا أهدافها. وفي ليلة نذبح، ونذبح، وندعو الناس عامة دون أن نخص أحداً، ويخص أضيافة الأثرياء بأفضلها. وفي ليلة أخرى باردة من ليالي الشتاء شديدة البرد مؤلمة قد بت أسير فيها، ولم أعبأ ببرودتها وخطرها.

وهذه الليلة شديدة البرد ينبح الكلب فيها نبحة واحدة من شدة الصقيع ولا تستطيع الأفاعي أن تسير فيها، فقد تجمدت وقد قمت بواجبي فيها، فأوقدت لأصحاب الحاجة والفقر ناراً كالبرق مضيئة الأركان، وأنا أزيدها إحماء.

وقد ورثت ذلك من أبي عمرو وجدي من قبله اللذين اعتادا ذلك، فقد ورثت الكرم والمروءة منهما.

فقد كانوا يعارضون أنواء النجوم (يريد ظروف الطقس) ، فيفعلون مثل ما تفعل، فما قصروا في شئ وما فاتهم فضل ومنزلة، فهم يسعون إلي كل المكارم.

وقد أجابه شاعر المؤمنين فقال معارضاً ما سبق[1]:

سُقتم كنانة جهلاً من سفاهتكم ... إلي الرسول فجندُ الله مخزيها

أوردتموها حياض الموت ضاحيةً ... فالنار موعدها والقتل لاقيها[2]

جمعتموُهُمْ أحابيشاً بلا حسب ... أئمة الكفر غرّتكم طواغيها[3]

ألا اعتبرتم بخيل الله إذ قَتَلتْ ... أهل القليب ومن ألقينهُ فيها[4]

كم من أسير فككناه بلا ثمنٍ ... وجزّ ناصيةٍ كنا مواليها[5]

---

(1) نسبها محمد ابن إسحق إلي حسان، وأنشدها أبو زيد الأنصاري محمد بن هشام لكعب مالك.السيرة جـ٣/٨٧-٩٣.

(2) الحياض : جمع حوض ، والضاحية : البارز للشمس .

(3) الحسب: الشرف، وطواغيها : جمع طاغية، وهو المتكبر المتمرد.

(4) أهل القليب : أراد بهم من قتل في بدر من المشركين فطرح في القليب وهو البئر.

(5) مواليها : أهل النعمة وأصحاب المنة عليها، يريد أنهم فكوا كثيراً من أسرى قريش يوم بدر بغير فداء، فكانوا لذلك أصحاب النعمة واليد البيضاء عليهم فلو كان عند هؤلاء شيء من حفظ الجميل لقبعوا في بيوتهم فلم يخرجوا لقتالهم.

رد الشاعر على هُبيرة قوله، فقال له إنما جمعتم قريشاً للموت، فيكونوا من أهل النار، وهؤلاء الذين جمعتهم، ليسوا إلا أخلاط الناس، وعامتهم لا حسب لهم، ولستم إلا أئمة الكفر، فاعتبر بيوم بدر وقتلاكم بها الذين جمعهم القليب، وقد عفونا عن كثير من الأسرى منة وكرماً بغير فداء، فكنا أصحاب النعمة ولفضل عليكم.

وقال كعْبُ بن مالك يجيب شاعر المشركين (جاء في القصيدة أنه عبد الله بن الزبعرى، وجاء في السيرة هبيرة بن أبي وهب والراجح أنه ابن الزبعرى):

ألاَ هَلْ أتَى غَسَّانَ عَنَّا دُونَهُمْ ... مِنَ الأَرْضِ خَرْقٌ سَيْرُهُ مُتَنَعْنِعُ[1]

صَحَارٍ وَأعْلاَمٌ كَأنَّ قَتَامَهَا ... مِنَ البُعْدِ نَقْعٌ هَامِدٌ مُتَقَطِّعُ[2]

تَظَلُّ البُزْلُ العَرَامِيس رُزَّخاً ... وَيَخْلُو بِهِ غَيْثُ السِّنِينَ فَيُمْرِعُ[3]

بِهِ جِيفَ الحَسْرَى يَلُوحُ صَلِيبُهَا ... كَمَا لاَحَ كَتَّانُ التِّجَارِ الموضَّعُ[4]

بِهِ العِينُ وَالآرَامُ يَمْشِينَ خِلْفَةً ... وَبِيضُ نَعَامٍ قَيْضُهُ يَتَفَلَّعُ[5]

مَجَالِدُنَا عَنْ دِينِنَا كُلُّ فَخْمَةٍ ... مُدَرَّبَةٍ فِيهَا القَوَانِسُ تَلْمَعُ[6]

وَكُلُّ صَمُوتٍ فِي الصِّوَانِ كَأَنَّهَا ... إِذَا لُبِسَتْ نَهْيٌ مِنَ المَاءِ مُتْرَعُ[7]

ولكِنْ بِبَدرٍ سَائِلُوا مَنْ لَقِيتُمُ ... مِنَ النَّاسِ وَالأَنْبَاءُ بِالغَيْبِ تَنْفَعُ

---

(1) الخرق : الفلاة الواسعة التي تخرق فيها الريح ، وقوله "متنعنع" يروى بالنون وبالتاء، فمن رواه بالنون فمعناه المضطرب، ومن رواه بالتاء فمعناه المتردد والمعنى قريب، وتقول : تعتع في الكلام، إذا تردد فيه .

(2) الأعلام : الجبال المرتفعة، واحدها علم، مثل سبب وأسباب وجبل وأجبال، وقتام ــ كسحاب ــ ما مال لونه إلي السواد منها، والنقع: الغبار، والهامد: المتلبد الساكن .

(3) البزل : الإبل القوية ، واحدها بازل ، وأصله الذي فطر نابه، وهذا زمان القوة والشدة، والعرامس: الشديدة، والرزح : جمع رازح، وهو المعي، ويمرع : يخصب .

(4) الصليب : الودك، وهو الشحم، والموضع : المبسوط المنقوش .

(5) العين جمع عيناء، وهى البقرة من بقر الوحش، والآرام : البيض البطون السمر الظهور، واحدها رئم، وأصل آرام، بزنة أحمال، فقدمت الهمزة على الراء ثم قلبت الهمزة ألفا لسكونها إثر همزة مفتوحة، وقوله "خلفة" أي: يمشين قطعة خلف قطعة، والقيض: قشر البيض الأعلى، ويتفلع : معناه يتشقق .

(6) فخمة : يريد كتيبة عظيمة، ومدربة : يروى بالدال مهملة وبالذال معجمة؛ فمن رواه بالدال فهو من الدربة، يريد أنهم معلمون معودون قد دربوا على القتال، ومن رواه بالذال فمعناه محددة، والذرب: لحاد، والقوانس: رءوس بيض السلاح.

(7) الصموت : هى الدرع التي أحكم نسجها وتقارب حلقها فليس يسمع لها صوت، والصوان : كل ما يصان فيه الشيء درعا كان أو ثوباً أو غيرهما، والنهى بفتح النون أو كسرها : الغدير، ومترع : أى مملوء ما.

وَإنَّا بأرضِ الخوْفِ لوْ كَانَ أهْلُها ... سوَانا لَقَدْ أجْلَوْا بلَيْلٍ فأقْشَعُوا[1]

إذا جَـــاءَ منَّا رَاكبٌ كَانَ قَوْلُـــهُ ... أعدُّوا لما يزْجِى ابْنُ حَرْبٍ ويَجْمَعُ

فمَهْمَا يُهِمُّ النَّاسَ ممَّا يكيدُنَـــا ... فنحْنُ لهُ مِـــنْ سَائرِ النَّاسِ أوْسَعُ

فَلَوْ غيْرُنَا كانَتْ جميعاً تَكيدُهُ الْـ ... بريِّـــةُ قَدْ أعطوْا يداً وتَورَّعُوا[2]

نُجَالِـــدُ لا تبْقَـــى عَلَيْنَـــا قَبيلَـــةٌ ... من النَّاسِ إلاَّ أنْ يُهابُوا ويُفْظَعُوا[3]

ولَّما ابْتنوْا بالعرْضِ قَالَ سَرَاتُنَـــا ... عَلاَمَ إذَا لمْ نمْنَعِ العرْضَ نَزْرَعُ[4]

وفينَا رَسُولُ اللهِ نتْبَـــعُ أمْـــرهُ ... إذَا قَال فينَـــا الْقَوْلَ لا تَتَطلَّعُ[5]

تَدَلَّى عَلَيْهِ الرُّوحُ منْ عنْدِ ربِّـــهِ ... يُنَزَّلُ من جَوِّ السَّماءِ ويُرْفَـــعُ[6]

نُشاوِرُهُ فيمَا نُريدُ وَقَصْرُنَـــا ... إذَا ما اشْتَهَى أنَّا نُطيعُ ونَسْمَعُ[7]

وقَال رسُولُ اللهِ لمَّا بَدوْا لَنَـــا ... ذَرُوا عَنْكُمُ هوْلَ المنيَّاتِ واطمَعُوا

وكُونُوا كَمَنْ يَشْرِى الحيَاةَ تقرُباً ... إلي مَلِكٍ يُحيـــا لديـــهِ ويُرجَـــعُ

ولَكنْ خُذُوا أسْيافَكُمْ وتَوكَّلُـــوا ... عَلَى اللهِ إنَّ الأمـــــرَ للهِ أجْمعُ

فسرْنَا إليهِمْ جهْرَةً في رِحالهِـــمْ ... ضُحيًّا عليْنَـــا البيْضُ لاَ نتخَشَّعُ[8]

بمَلْومَةٍ فيها السَّنَوَّرُ والْقَنَـــــا ... إذَا ضَرَبـــُوا أقدامَهَـــا لا تُورَّعُ[9]

---

(1) أقشعوا : فروا وذلوا .

(2) تورعوا : يروى بالراء المهملة وبالزاى : فمن رواه بالراء المهملة فمعناه ذلـــوا وهـــانوا، ومـــن رواه بالزاى فمعناه تقسموا و انشعبوا .

(3) يفظعوا ــ مبنى للمجهول : يهالوا ويفزعوا، من الشئ الفظيع ، وهو الذي يهولك منظره .

(4) ابتنوا: ضربوا أبنيتهم، وهى القباب والأخبية، والعرض : موضع خارج المدينة، وسراتنا : خيارنا .

(5) لا نتطلع : يروى بالطاء المهملة وبالظاء؛ فمن راوه بالطاء المهملة فمعناه لا ننظر إليه إجلالاً له وهيبـــة منه، ومن رواه بالظاء المعجمة فمعناه لا نميل عنه ولا نعدل عما قاله.

(6) الروح : هو جبريل أمين الوحى عليه السلام، وهو مأخوذ من قوله تعالى : (نزل به الروح الأمين).

(7) قصرنا : غايتنا ونهاية أمرنا ، تقول : قصرك وقصاراك وقصارى أمرك، ومعناه غاية أمرك .

(8) البيض ــ بكسر الباء ــ جمع أبيض ، والمراد بها السيوف، والبيض ــ بفتح فـــسكون ــ جمـــع بيـــضة السلاح.

(9) الملمومة : الكتيبة التي اجتمع بعضها إلي بعض ، والسنور السلاح، وقوله، "لا تـــورع" يـــروى بـــالراء المهملة وبالزاى ، فمن رواه بالراء المهملة فمعناه لا تكف، ومن رواه بالزاى فمعناه لا يفرقها أحد .

فجِئْنَـا إلَـي مـوجٍ مِـنَ البَحْـرِ ... وسْطَهُ أحَابيشُ منْهُم حَاسِرٌ ومُقَنّـعُ[1]
ثلاثَـة آلاَف ونحْـنُ نَـصيَّـةٌ ... ثَلاثُ مئينَ إنْ كَثُـرْنَـا فأرْبَـعُ[2]
نُغَـاورُهُمْ تَجْـرِى المنيـةُ بيننَـا ... نُشارِعُهُم حوْضَ المنَايـا ونـشرَعُ[3]
تَهـادَى قِـسِيُّ النَّبْـعِ فينَـا وفـيهُمُ ... ومَا هُوَ إلاَّ اليثْربـيُّ المقطَّـعُ[4]
ومَجُوفَـةٌ حرْمَيَّـةٌ صاعِـديةٌ ... يُـذرُّ عليها السَّمُّ سـاعَةَ تُـصْنَعُ[5]
تَـصّوبُ بأبـدان الرِجـال وتَـارةً ... تمُـرُ بـأعْراض البِـصَارِ تقعْقـعُ[6]
وخَيْـل تَراهـا بالفْـضَاءِ كأنَّهـَا ... جَرادُ صباً فـي قـرَّةٍ يتَريَّـعُ[7]
فلمَّـا تَلاقَيْنَـا ودارتْ بِنَـا الرَّحَـا ... ولَيْس لأمـرِ حَمَّـهُ اللهُ مدْفَـعُ[8]
ضـربناهُمُ حتَّـى تركْنَـا سـراتهُمْ ... كأنهُمُ بالقَـاعِ خُـشبٌ مُـصرَّعُ[9]
لدُن غُـدوةً حتّـى اسْـتفقْنَا عـشيةً ... كأنَّ ذَكَانَـا حَـرُّ نارٍ تلَفَّـعُ[10]
وراحُـوا سِـراعاً مُـوجَعينَ كـأنَّهُمْ ... جَهَامٌ هـراقَتْ مَاءَهُ الـرِّيحُ مُقلِـعُ[11]

---

(1) الحاسر : الذي لا رع له ولا مغفر، والمقنع : الذي لبس المغفر على رأسه .

(2) النصية : الخيار من القوم .

(3) نغاورهم : يورى بالغين المعجمة، ويروى بالعين المهملة، فمن رواه بالغين المعجمة فمعناه نغير عليهم من الغارة، ومن رواه بالعين المهملة فمعناه نداولهم، ونشارعهم: نشاربهم، ونشرع : نشرب، يريد أنه قد كانت بينهم مغاورات ينتصرون عليهم مرة ويظفرون بهم مرة.

(4) النبع : شجر تصنع منه القسى ، و اليثربي : الأوتار المنسوبة إلي يثرب .

(5) المنجوفة : أراد بها سهاماً ، وحرمية : منسوبة إلي أحل الحرم، ويقال: هذا رجل حرمى ــ بكسر فسكون ــ إذا كان من أهل الحرم، وصاعدية : منسوبة إلي صانع اسمه صاعد .

(6) تصوب : تقع ، والبصار ــ بكسر الباء وتخفيف الصاد ــ الحجارة اللينة، يريد أنها تصيب مرة وتخطئ مرة .

(7) الفضاء : المتسع من الأرض ، والصبا : الريح الشرقية، والقرة : البرد ،ويتربع : يجئ ويذهب .

(8) رحى الحرب : معظم موضع القتال فيها ، وحمه الله : قدره .

(9) سراتهم : خيرهم ، والقاع : المنخفض من الأرض ، وخشب أصله بضمتين فسكن الشين اضطراراً.

(10) ذكانا : أراد اشتعال نار حربنا والتهابها، وتلفع : يشتمل حرها على من دنا منها .

(11) موجعين : يروى بالعين المهملة مبنياً للمجهول من الإيجاع، وهو الإيلام، ويروى موجفين ــ بالفاء مبنياً للمعلوم ــ ومعناه مسرعون، والجهام ــ كسحاب ــ السحاب الرقيق الذي ليس معه مطر .

ورُحْنَا وأُخرانَا بِطَاءٌ كأنَنَا ... أُسُودٌ على لحمٍ ببيشَةَ ضُلَّعُ[1]

فنِلْنَا ونَالَ القَومُ منَّا ورُبَّمَا ... فَعلْنَا ولكنْ مَا لَدَى اللهِ أوْسَعُ

ودارتْ رَحانَا واستَدَارتْ رَحَاهُمُ ... وقَدْ جعَلُوا كُلٌّ مِن الشرِّ يَشبَعُ

ونَحْنُ أُنَاسٌ لا نَرَى القَتْلَ سُبَّةً ... على كُل منْ يحْمِى الذِّمَارَ ويمْنَعُ[2]

جِلادٌ على رَيْبِ الحَوَادِثِ لا تَرَى ... على هالكٍ عيْناً لَنَا الدَّهْرَ تدْمَعُ[3]

بنُو الحربِ لا نعْيَا بِشيءٍ نقُولُهُ ... ولا نحنُ مِمَّا جرَّتِ الحَرْبُ نَجزَعُ

بَنُو الحرْبِ إنْ نظْفَرْ فلسْنَا بِفحشٍ ... ولا نحْنُ مِنْ إظفَارِهَا نتَوجَّعُ[4]

وكُنَّا شِهَاباً يَتَّقِى النَّاسُ حرَّهُ ... ويَفرُجُ عَنْهُ مَن يليهِ ويسفَعُ[5]

فخرْتَ على ابن الزِّبَعرَى وقد سَرَى ... لكُمْ طلب من آخرِ اللَّيْلِ مُتبِعُ

فسلْ عنْكَ في عليا مَعدٍ وغيرِهَا ... من الناسِ مَن أخْزَى مقاماً وأشْنَعُ

ومَن هُو لم تترك لهُ الحَرْبُ مفخرا ... ومَنْ خدهُ يوْم الكريهة أضرعُ[6]

شددنا بحولِ اللهِ والنصرِ شدَّةً ... عليكُم وأطرافُ الأسنةِ شُرَّعُ[7]

تكرُّ القَنَا كأن فُرُوعها ... عَزَالَى مَزَادٍ مَاؤها يتَهَزَّعُ[8]

عَمَدْنَا إلي أهل اللواءِ ومن يَطِرْ ... بذكرِ اللواءِ فهوَ في الحمدِ أسرعُ

فخانُوا وقد أعطوا يداً وتخاذلُوا ... أبَى اللهُ إلا أمرهُ وهو أصنَعُ[9]

---

(1) بيشة : اسم موضع تنسب إليه الأسود ، وضلع : جمع ضالع ، وهو من صفة الأسود .

(2) الذّمار ــ ككتاب ــ ما يجب على الرجل أن يحميه .

(3) جلاد : جميع جليد ؟ وهو الصبور.

(4) فحش ــ بضم الفاء وتشديد الحاء المهملة ــ جمع فاحش، يريد أنهم إن ظفروا ظفرهم ويفشحوا أو يمثلوا بقتلاهم كما فعلت قريش في أحد، وإن ظفر عليهم لم يجزعوا لذلك؛ لعلمهم أن الدهر يومان يوم لهم ويوم عليهم، وأن الظفر لا يدوم والهزيمة لا تدوم.

(5) الشهاب : القطعة من النار ، ويسفع : يحرق ويغير اللون، تقول سعته النار، إذا غيرت لونه .

(6) أضرع : ذليل ، يقال : أضرعته الحاجة ، إذا أذلته .

(7) شرع : مائلة للطعن ، يقال : أشرعت الرمح قبله ، إذا أملته إليه لتطعنه به .

(8) الفروع : الطعن المتسع ، والعَزالى : جمع عزلاء ، وهى فم المزادة أو السقاء، ويتهزع: يروى بالراء المهملة وبالزاء الموحدة، فمن رواه بالراء المهملة فمعناه ويسرع سيلانه، ومن رواه بالزاى فمعناه يتقطع .

(9) فخانوا : يروى بالحاء المهملة من الحين وهو الهلاك ، ويروى بالخاء المعجمة من الخيانة .

وقد كان كعب بن مالك قد قال :

* مجالِدُنا عن جِذْمنا كُلُّ فَخمةٍ *[1]

فقال رسول الله ﷺ " أيصلُحُ أن تقُول: مجالِدُنا عن ديننا"؟ فقال كعب : نعم، فقال رسول الله ﷺ : "فهو أحسن" ، فقال كعب : مجالدنا عن ديننا ".[2]

بدأ كعب قصيدته بمقدمة ذكر فيها الديار، ولكنه لم يذكر حبيباً بل ذكر ديار غسان وهى بالشام، وبينهم وبين المدينة سفر طويل فيه مشقة لما به من صحارٍ وجبال، وفي هذه الصحاري والجبال تقطعها الإبل القوية الشديدة، وتعيا من طولها وصعوبتها، وقد تجف فيموت من فيها، وقد تخصب، وبها البقر الوحشي والغزلان السمر يمشين قطعة خلف قطعة تباعاً، وقشر بيض النعام من شدة الحر يتشقق، فهذه الديار على طول السفر إليها ومشقته وبعدها قد سمعت بدفاعنا عن ديننا وجلادنا عنه، وقد أعددنا لذلك كتيبة عظيمة مدربة فيها رءوس السلاح تلمع من شدة حدتها وجلائها. وأعددنا دروعاً أحكم نسجها وتقارب حلقها ولا يسمع لها صوت.

لقد أوجز الشاعر في مقدمته وربط بينها وبين موضوع القصيدة، فلم يذكر حبيبة ولا خمراً ولم يستطرد في المقدمة، وجعل مدخل الموضوع الحديث عن بدر التي حققوا فيها انتصاراً عظيماً على مشركي مكة. وهم بأرض خوف لا يستطيع غيرهم أن يقيموا بها، وقد جاءهم أحدهم يخبرهم أن قريشاً تعد لهم العدة وتتجهز لغزوهم، فلم يزدهم ذلك إلا ثباتاً وشجاعة. ولو أن الناس جميعاً اجتمعوا على حربنا، لثبتنا لهم وقاتلناهم حتى ينصرفوا عنا أو يكشفوا أو يفروا منا، وقد أجمع سادتنا على مواجهة الأعداء، وأن ندافع عن عرضنا.

ونحن على الحق، وفينا رسول الله نتبعه في كل أمره، وينزل عليه الوحى بيننا، ونشاوره في أمرنا.

وقد أمرنا بجهاد المشركين والخروج لهم، ووعدنا بالجنة، وقال لهم كونوا كمن باع حياته لله تعالى الذي بيده المحيا والممات، فتوكلوا عليه، فله الأمر جميعاً. وقد صور كعب ما حدث في المعركة تصويراً دقيقاً منصفاً يقول : فخرجنا إلي الأعداء مسرعين دون خوف في كتائب اجتمع بعضها إلي بعض، مدججين بالسلاح والأقنعة .

فوجدنا أعداءنا كثيرين مضطربين كموج البحر المتلاطم ووسط هذا الجيش أخلاط الناس وأوباشهم، ومنهم حاسر لا درع له ولا مغفر، ومنهم من لبس المغفر على رأسه

---

(1) " عن جذمنا " الجذم ــ بكسر فسكون ــ هو الأصل .

(2) الرواية لابن هشام . السيرة جـ ٣/٩٥ .

فهم غير مكتملى التسليح لكثرتهم وهم نحو ثلاثة آلاف، ونحن ــ المسلمين ــ بين ثلاثمائة وأربعمائة على الزيادة، وكان بينهما مناوشات قبل بدء القتال يتنازعان فيها النصر، فكانت بيننا مناورات ومساجلات ينتصرون علينا مرة، ويظفرون علينا بهم مرة، ونضربهم بالنبل، فتصيبهم نبالنا مرة وتخطئ أخرى. وترى خيلاً جرداً في الأرض المتسعة، تروح وتغدو، وهى خيل قريش التي جمعت عدتها وجلبت للحرب حلفاءها وعبيدها، وهذا الوصف يجسد لنا تفوق قريش في العدة والأفراد والقوة. فلما تلاقوا في القتال، واقتتلوا صارت الغلبة للمسلمين، وانكشف المشركون، وقتل منهم، وفرّ بعضهم موجعين، والمسلمون يسرعون إليهم كأنهم أسد اجتمعوا على لحم بوادي بيشه الذي تكثر فيه الأسد، وقد تضلعوا من اللحم. وقد نالوا من العدو، ونال العدو منهم، وليس ما وقع بالمسلمين عاراً أو ذلاً، فالقتل في سبيل الله ليس سبة بل شهادة ترفعه يوم القيامة، ونحن أبناء الحرب لا نعيا منها ولا نجزع من عواقبها ودولتها علينا، فنحن في الحرب شهاب يتقى الناس حره، ويفرق منه القريب ويحرق به. وهجا كعب عبد الله بن الزبعرى الذي فخر عليه بيوم أحد فقال:

لا تفخر علىَّ يا ابن الزبعرى، فأنت كمن طلب ثأره في آخر الليل المدلج (شديد الظلمة) لئلا يعلم به فيواجه عدوّه، وسل عن أشراف الناس، تجد نفسك أقلهم مقاماً وأحطهم شأناً، وليس لك في الحرب تاريخ ولا مفخرة. وقد شددنا عليكم بعون الله شدة عظيمة، فأوجعناكم طعناً وأسخنا فيكم السلاح، وقصدنا حَمَلَة اللواء، فهربوا وتركوا لواءكم، وقد وقع أمر الله تعالى، وسلمنا به.

لقد سيطرت على كعبﷺ روح التواضع، وكان هادئاً رزيناً، ناقش المعركة نقاشاً عادلاً، وكان محايداً، فذكر ما للمسلمين وما للمشركين، واعترف بقوة المشركين، وبمصاب المسلمين، بيد أنه لم ير الشهادة في سبيل الله عيباً. ولم يقذع كعب في القول فلم يسب ولم يلعن، ولم يسرف في الهجاء، فقد كان موضوعياً في قصيدته، وهذا يرجع لطبيعة شخصيته الهادئة التي يكتنزها الوقار والتعقل والعفة.

وقد أثرت نتيجة المعركة في كعب، فلم تحقق نصراً في درجة غزوة بدر، والخسائر فيها عالية، فعدت هزيمة وإن لم تك هزيمة حقيقية، فالمشركون أكثر عدداً وعدة، بيد أنها قياساً إلي غيرها من المعارك التي خاضها المسلمون وهم قلة هزيمة فلم تصل إلي درجتها فيما حققته من نتائج.

وشارك اليهود المشركين في معاداة الدعوة، وقد حاول يهود بني النضير أن يقتلوا النبيﷺ، وهو قاعد إلي جنب جدار من بيوتهم، ومعه أبو بكر وعمر وعلىّ رضى الله عنهم، فعلا عمرو بن حجَّاش البيت ، ومعه صخرة ليلقيها عليهﷺ،فجاءه الوحى بذلك

فخرج راجعاً إلي المدينة، وأمر بالتهيُّؤ لحربهم والسير إليهم، وتدخل عبد الله بن سلول المنافق، وكف عنهم الرسولﷺ،فأجلاهم عن المدينة، فخرجوا إلي خيبر، وتآمروا مع من بها من يهود على النبيﷺ ، واستعدوا عليه المشركين.

قال كعب بن مالك يذكر إجلاء بني النضير وقتل كعب بن الأشرف:

فتلك بنو النَّضيرِ بدارِ سَوْءٍ ... أَبَارَهُمُ بما اجترَمُوا المبيرُ[1]

غَدَاةَ أَتاهُمُ في الزَّحْفِ رَهْوَا ... رَسُولُ اللهِ وَهْوَ بِهِمْ بَصيرُ[2]

وغسانُ الحُمَاةُ مُوَازِرُوه ... على الأعداءِ وَهْوَ لَهمْ وَزِيرُ[3]

فقال : السِّلْمَ ويْحكُمُ، فصدُّوا ... وحَالفَ أمْرَهُمْ كَذِبٌ وزُورُ[4]

فَذَاقوا غبَّ أمرِهمُ وبالاً ... لكلِّ ثَلاثَةٍ منْهُمْ بَعِيرُ[5]

وأُجْلُوا عامِدينَ لِقَيْنُقَاعٍ ... وغُودِرَ مِنْهُمُ نَخْلٌ ودُوْرُ[6]

لقد دخل كعب بن مالك إلي موضوع القصيدة عامداً، فذكر ما حل باليهود من عار وخزى، فقد كفروا بربهم،وبنبيه الذى وجدوه مكتوباً عندهم في التوراة، فكذبوه وكفروا به، واشْربوا الغدر والكفر ، فهم دائماً يعربون عن كفرهم ويغدرون فلا عهد لهم ولا ذمة، فكان جزاءهم النفى والإبعاد، وغادروا رأسا منهم صريعاً جزاء عدوانه وسلاطة لسانه وهو كعب بن الأشرف فذلُّوا بعد مصرعه.

وقد دسّ إليه النبىﷺ من قتله وهو في مأمن من حصنه وقومه، فعلم اليهود أم محمداًﷺ سيصل إليهم. ومدح كعب الأنصار الذين نصروا الرسولﷺ وصدقوه وقاتلوا من كذبه، فهم مؤازروه على الأعداء، وهو لهم قائد. وقد أذل اليهود وأجلاهم، فذاقوا جزاء غدرهم وبالاً وتركوا ديارهم وأموالهم وأورثها الله تعالى المؤمنين .

وقصيدة كعب بها أسلوب سهل رقيق ليس فيه خشونة ولا جفوة، فقد تأثر بالقرآن الكريم في أسلوبه ولفظه، واستطاع أن يوظف التعبير القرآنى ﴿وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ

---

(1) أبارهم : أهلكهم ، والبوار ــ بفتح الباء، والواو ، الهلاك ، واجترموا: اكتسبوا ، والمبير : المهلك.

(2) الزحف : أراد به الجيش الزاحف عليهم، ورهوا ــ بفتح الراء المهملة وسكون الهاء ــ المشى في سكون ومهمل. وانتصابه إما على أنه مفعول مطلق بتقدير إتيان رهو أو بتقدير مشى نحوكم رهوا، وإما على أنه حال بتقدير متمهلاً، وبصير: أى عليم خبير .

(3) الحماة : جمع حام ، ووزير ههنا بمعنى الملجأ والمعين .

(4) السلم ــ بفتح السين أو كسرها ــ الصلح ، وويحكم : دعاء عليهم، والويح الهلاك كالويب والويس، وحالف: صاحب، يريد أن الكذب والزور كانا مصاحبين لهم فلم يعرفوا الرشد في أمرهم.

(5) غب أمرهم ــ بكسر الغين المعجمة وتشديد الباء عاقبته، والوبال : النكال .

(6) عامدين : قاصدين ، تقول : عمد إلي هذا الأمر، إذا قصده ، وقينقاع ــ بفتح فسكون فضم ــ قبيلة من اليهود ، وغودر: ترك .

الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾[البقرة:٩٣]، في قوله **﴿فلما أشربوا غدراً وكفراً﴾** ومن تعبيراته الجديدة "وجدَّ بهم عن الحق النفور" ويروى: "وحاد بهم عن الحق النفور" وذلك في حديثه عن إعراض اليهود عن النبيﷺ.

وقد ربط كعب بين أبيات قصيدته ، فالأحبار أصابهم خزى لأنهم كفروا برب العالمين ، ثم عطف ما بعده عليه بالواو، وقال:"وقد أوتوا معاً فهماً وعلماً" وتتابعت الأبيات كل بيت يؤدى إلى الذي يليه في تسلسل منطقي، واستعان في الربط بحروف العطف والتعليل "لأن"، والإشارة : "هذا،ذلك، تلك"، والضمير، والوصف ووظف الحوار في القصيدة: قال، قالوا.

وولد كعب دلالات جديدة في قصيدته، وهى مقتبسة من القرآن الكريم نحو: أمره أمر كبير، وأتوا فهماً وعلماً ، جاءهم من الله نذير، نذير صدق، وقولهم : ما أتيت بأمر صدق ، وأنت بمنكر منا جدير، أديت حقاً. فمن يتبعه يهتد، ومن يكفر به يجز الكفور، أشربوا غدراً وكفراً، الله يحكم بالعدل لا يجور، نعم النصير، أيده الله وسلطه، فذاقوا غب أمرهم، دار السوء، لهم وزير. ومن تعبيراته المتوارثه : علته السيوف ، غادره صريعاً ، دس إليه من يقتله، أخو ثقة ، أبارهم مبير.

وكانت غزوة الخندق هزيمة أخرى فادحة للمشركين؛ فقد جمعت قريش حلفاءها من قبائل العرب لتشن بهم حرباً تبيد الإسلام وأهله فحَّربت الأحزاب وجمعت أحابيشها، فخندق لهم النبيﷺ خندقاً عجزوا عن اجتيازه فعسكروا حولهم المدينة، وكان معهم اليهود، فردهم الله تعالى لم ينالوا خيراً ، فانصرفوا خائبين، وكتب الله تعالى انتصاراً جديداً لدينه فدانت له العرب.

وقال حسانﷺ عنه يوم الخندق يرد على شعراء المشركين :

هَلْ رَسْمُ دَارِسَةِ المُقَامِ يَبَابِ ... مُتَكَلِّمٌ لِمُحَاوِرٍ بِجَوَابِ[1]

قَفْرٌ عَفَارِهَمُ السَّحَابِ رُسُومَهُ ... وهُبُوبُ كُلِّ مُطِلَّةٍ مر بَابِ[2]

تُؤْرِثْنَ مِنْ أَزْمَانِ يَوْمِ حَلِيمَةٍ ... إِلَي الْيَوْمِ قَدْ جُرِّبْنَ كُلَّ التَّجَارِبَ

---

(1) دراسة المقام: قد عفا محل الإقامة منها، واليباب: القفر ، والمحاور : الذي يرجعك الكلام ويحدث معك.

(2) عفا : غير؛ والرهم ــ بكسر الراء وفتح الهاء ــ جمع رهمة ــ بكسر فسكون ــ وهو المطر الدائم ، وتقول : أرهمت السماء، إذا أتت بالرهم، والرسوم: جمع رسم، وهو الأثر ، ومطلة : اسم فاعل من أطلت السماء، إذا جاءت بالطل، وهو الضعيف من المطر، ومنه قوله تعالى : (فإن يصبها وابل فطل) وفسره أبو ذر بقوله : "ومطلة: أي مشرقة، وهو ههنا بالطاء المهملة فقط " هو عندنا بعد، ومجازه على ما قدمنا كره، ومر باب : دائمة ثابتة.

وَلَقَدْ رَأَيْتُ بِهَا الحُلُولَ يَزِينُهُمْ ... بِيضُ الوُجُوهِ ثَوَاقِبُ الأَحْسَابِ[1]

فَدَعِ الدِّيَارَ وَذِكْرَ كُلِّ خَرِيدَةٍ ... بَيْضَاءَ آنِسَةِ الحَدِيثِ كَعَابِ[2]

وَاشْكُ الهُمُومَ إِلَى الإِلَهِ وَمَا تَرَى ... مِنْ مَعْشَرٍ ظَلَمُوا الرَّسُولَ غِضَابِ[3]

سَارُوا بِأَجْمَعِهِمْ إِلَيْهِ وَأَلَّبُوا ... أَهْلَ القُرَى وَبَوَادِي الأَعْرَابِ[4]

جَيْشٌ عُيَيْنَةُ وَابْنُ حَرْبٍ فِيهِمُ ... مُتَخَمِّطُونَ بِحَلْبَةِ الأَحْزَابِ[5]

حَتَّى إِذَا وَرَدُوا المَدِينَةَ وَارْتَجَوْا ... قَتْلَ الرَّسُولِ وَمَغْنَمَ الأَسْلَابِ[6]

وَغَدَوْا عَلَيْنَا قَادِرِينَ بِأَيْدِهِمْ ... رُدُّوا بِغَيْظِهِمُ عَلَى الأَعْقَابِ[7]

بِهُبُوبِ مُعْصِفَةٍ تُفَرِّقُ جَمْعَهُمْ ... وَجُنُودُ رَبِّكَ سَيِّدِ الأَرْبَابِ[8]

فَكَفَى الإِلَهُ المُؤْمِنِينَ قِتَالَهُمْ ... وَأَثَابَهُمْ فِي الأَجْرِ خَيْرَ ثَوَابِ[9]

مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا فَفَرَّقَ جَمْعَهُمْ ... تَنْزِيلُ نَصْرٍ مَلِيكِنَا الوَهَّابِ[10]

وَأَقَرَّ عَيْنَ مُحَمَّدٍ وَصِحَابِهِ ... وَأَذَلَّ كُلَّ مُكَذِّبٍ مُرْتَابِ

---

(1) الحول : البيوت المجتمعة، والثواقب : المشرقة ، ومنه قوله تعالى : (النجم الثاقب) .

(2) الخريدة : المرأة الناعمة ، وقيل : هي البكر التي لم تمسس قط ، وقيل : هي الحيية الطويلة السكوت الخافضة الصوت، والكعاب : التي نهد ثديها في أول ما نهد ، وكعبت الجارية فهي كاعب وكعاب .

(3) متألبين : مجتمعين ، وتقول : ألبت القوم فتألبوا ، أي جمعتهم فاجتمعوا .

(4) "ساروا بأجمعهم إليه وألبوا" يروى في مكان هذا الشطر "أموا بغزوهم الرسول وألبسوا" وألبوا : أي جمعوا، وأموا: أي قصدوا ، وألبسوا: خلطوا وشبهوا، تقول: لبست على القوم الأمر، إذا خلطت شأنه عليهم وشبهته، ومنه قوله تعالى: (وللبسنا عليهم ما يلبسون) وأهل القرى وبوادي الأعراب: أراد بهم ضعاف الناس الذين تضعف عقولهم عن إدراك الحقائق ويقعون تحت تأثير المشككين .

(5) عيينه : أراد به عيينة بن حصن الفزارى ، وابن حرب : أراد به أبا سفيان، وهما من قواد المشركين في حرب الخندق على ما علمت، وقوله "متخمطون" أي : مختلطون، ويقال: المتخمط : هو المتكبر الشديد الغضب، والحلبة ــ بفتح الحاء وسكون اللام ــ جماعة الخيل التي تعد للسباق .

(6) مغنم : مصدر بمعنى الغنم ، والأسلاب : جمع سلب ، وهو ما يأخذه المحارب من قرنه إذا قتله .

(7) الأيد ــ بفتح الهمزة وسكون الياء ــ القوة .

(8) المعصفة : الريح الشديدة التي تعصف بكل شيء : أي تذهب به، وتقول : عصفت الريح وأعصفت، إذا اشتد هبوبها ، فهي عاصف من الأول ومعصف من الثاني .

(9) هذا البيت والأبيات قبله مأخوذة من قول الله تعالى : (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى بالله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً) .

(10) قنطوا : يئسوا ، وقوله " نصر مليكنا " هو هكذا في أصول الكتاب وفي تاريخ ابن كثير (ج٤ ص١٣٣) ووقع في الديوان (تنزيل نص مليكنا الوهاب) ونظنه محرفا.

عَاتِى الفُــؤَادِ مُوَقَّعٍ ذِي رِيبــةٍ فِي الكُفْــرِ لَيْسَ بِطَاهِرِ الأَثْــوَابِ[1]
عَلِقَ الشَّقَاءُ بِقَلْبِــــهِ فَفُــؤَادُهُ فِي الكُفْــرِ آخِرَ هــذِهِ الأَحْقَــابِ[2]

استهل حسانﷺ القصيدة بمقدمة طليلة، بكى فيها الديار الدارسة، وقد كانت قبل مشرقة مجتمعة، ثم تخلص من هذه المقدمة، واستخف بها فالمقام لا يتسع لديار أو امرأة ناعمة، فالحدث جلل قال:

فدع الدّيار وذكر كل خريدة بيضاء آنسة الحديث كعاب

يقول فاترك الديار والحبيبة الناعمة البكر التي نهد ثدياها، والبكاء عليهما، واشك هؤلاء المشركين الظالمين إلي الله تعالى، فقد ظلموا رسولهم، وقاتلوه وجمعوا له العرب وألبوا عليه الناس في المدن والبادية. فجاء عينيه بن حصن بمن معه من عطفان فظاهروا قريشاً وتحزبوا معهم، يريدون قتل الرسولﷺ وسلبه وقد ردهم الله تعالى على أعقابهم لم ينالو خيراً، بعد أن قنطوا من دخول المدينة، وبعث الله تعالى عليهم جنده ففرقهم وأخزى من ظاهرهم من بنى قريظة. وأقر الله تعالى عين محمدﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم وأذل المشركين ومن ظاهروهم.

وقد تأثر حسانﷺبالقرآن الكريم فقال: "وغدْوا علينا قادرين" من قوله تعالى : ﴿وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾[القلم:٢٥] ، "رُدُّوا بغيظهم" من قوله تعالى : ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ﴾[الأحزاب:٢٥]، "وكفى الإله المؤمنين قتالهم" من قوله تعالى: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾[الأحزاب:٢٥] واستخدم حسان أسلوباً سهلاً ولغة حضرية ليست غريبة، ووظف مفردات مولدة مثل:الكفر، الإيمان ، القنوط ، قر عيناً، غدا قادراً، رده بغيظه، كفى الله شر القتال.

ولقد تخلص حسان من بعض مظاهر تقاليد القصيدة الجاهلية فأوجز في المقدمة فلم تتجاوز أربعة أبيات، ولكنه ذكر الديار والحبيبة مقتضباً لئلا يخل بالتقليد القديم، وفعل كعب بن مالك ذلك، ولم يستطرد حسان في شيء عن الحبيبة الشابة الناهدة، فالأحداث تتلاحق والأمر جلل، وقد عاش المسلمون في ضيق شديد عندما حاسرتهم الأحزاب، فزاغت

---

(1) عاتى الفؤاد: قاس شديد القسوة، وموقع ــ بضم الميم وفتح الواو وتشديد القاف مفتوحة ــ هو الذي أصابته البلايا، وهو أيضاً البعير الذي كثرت فيه آثار الدبر، ووقع هذا البيت في الديوان هكذا:

مُسْتَشْعِرٌ لِلْكُفْرِ دُونَ ثِيَابِهِ وَالكُفْرُ لَيْسَ بِطَاهِرِ الأَثْوَابِ

(2) وقع صدر هذا البيت في الديوان "علق الشقاء بقلبه فأرانه" وأرانه: غطى عليه، أو غلب على عقله فأماله عن الحق وعدل به عن الطريق السوي.

الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، فأتى نصر الله تعالى وانكشف الضيق، وأصبح النصر حليف المسلمين بعد أن تحدث بعض المنافقين، وقالوا:﴿مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً﴾[الأحزاب:١٢]، وترك بعض الرسولﷺ، وقد ثبت معه رجال أشداء مخلصون مؤمنون ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَاناً وَتَسْلِيماً﴾[الأحزاب: ٢٢].

وكشفت هذه المعركة أعداء مجاورين معه في المدينة غدروا به وخانوا وتحالفوا مع الأحزاب سراً ووعدوهم النصر، وهم يهود بنى قريظة فغزاهم النبىﷺ من منصرفة من الخندق.

وقد صالحت قريش النبىﷺ، ووقعت بينهما معاهدة الحديبية،واتفقوا على أن يضعوا السلاح، وأن لا يعتدوا فى فترة الهدنة، ودخلت خزاعة في حلف النبىﷺ ودخل بنو بكر في حلف قريش، وأذنت قريش للنبيﷺ بالعمرة، فاعتمر، وكان معه جماعة من أصحابه وهي عمرة القضاء في العام الذي صالح فيه مشركي قريش قبل فتح مكة ، وقد خرج المشركون ينظرون إليه، وعبد الله بن رواحه يقول:

خلّوا بنّى الكفارِ عن سبيلِه اليومَ نضربكم على تنزيلِه

ضرباً يزيل الهام عن مَقِيلِه ويذهل الخليلَ عن خليلِه

فقال له عمر: يا ابن رواحة بين يدي رسول اللهﷺ وفي حرمه تقول الشعر؟ فقال له رسول اللهﷺ :" خل عنه يا عمر، فلهى أسرع فيهم من نضح النبل[1]"، فشعر الحماسة الذي أنشده شعراء المسلمين كان أشد عليهم من وقع النبل جملة واحدة، وأشد عليهم من السياط ووقع السيف.

وغزا النبيﷺ خيبراً بعد أن صالح مكة يوم الحديبية، وكانت مركزاً لليهود الذين أجلاهم من المدينة فنزلوا بها على من كان بها من يهود. وكان اليهود يخرجون منها يحرضون قبائل العرب على النبىﷺ ويستعدونهم عليه، وقد ظاهروا قريشاً بعد بدر، وأغروهم بغزو المدينة، فكان يوم أحد ثم غزوة الخندق، فلما انتهى النبىﷺ من قريش وعقد معهم الهدنة قفل عائداً إلي المدينة وجهز جيشاً لغزو خيبر ، وقد قال ابن لُقيم العبسى، مفتخراً بجيش المسلمين من المهاجرين والأنصار ورجال من أسلم وغفار، وما فعلوه بيهود خيبر وما حققوا من انتصار سمّع فى العرب المشركين وأدخل الرعب في قلوبهم، وقال في آخرها:

---

(1) السيرة جـ٤/٤٢٥ وأحكام القرآن ، لابن العربي، دار الفكر، بيروت جـ٣/١٤٤١ .

ولقـــد علمتُ ليغلبنَّ محمدُ ... وليثـوينَّ بها إلي أصفـارِ[1]
فرَّتْ يهودٌ يوم ذلك في الوغى ... تحت العَجَاج غمائمَ الأبصارِ[2]

لقد كان الشاعر مطمئناً إلى انتصار المسلمين على اليهود وأن الغلبة ستكون لمحمدﷺ وأن خيبر ستكون له وقد انكشفت اليهود للموت.

وصارت خيبر من مفاخر المسلمين في الحروب، قال كعب بن مالك في يوم خيبر :

ونحـــن وردنـــا خيبـــرا وفُروضـــه ... بكلِّ فتـــىً عـــارى الأشـــاجعِ مـــذْوَدِ[3]
جَوَادٍ لَدَى الغايات لاَواهـــنِ القُـــوى ... جرئٍ على الأعداء في كـــل مَـــشْهَدِ[4]
عظيمِ رمادِ القِدْرِ فـــي كـــل شَـــتْوَةٍ ... ضروبٍ بنـــصْلِ المـــشْرَفِيِّ المُهَنَّـــدِ[5]
يَرَى القَتْلَ مدْحاً إن أصَابَ شَـــهَادةً ... مـــنَ اللهِ يرْجُوهَـــا وفـــوْزاً بأَحْمَـــدِ
يذودُ ويحمـــى عـــن ذمَـــارِ محمـــدٍ ... ويـــدفعُ عنـــه باللـــسانِ وباليَـــــدِ[6]
وينصُرُهُ من كـــلِّ أمـــرٍ يريبُـــــه ... بجُـــودُ بـــنفسٍ دونَ نفـــسِ محمـــدِ
يُصَدِّقُ بالأنبـــاءِ بالغَيـــبِ مُخْلِـــصاً ... يُريدُ بذَاكَ الفـــوزَ والعِـــزَّ فـــي غَـــدِ[7]

وكان للرجز دوره في غزوة خيبر، فقد ارتجز بعض الصحابة فـــي المعركـــة ليـــدفعوا هممهم، ويغروا أنفسهم بقتال الأعداء.

وقد ولى النبيﷺ علياً رضى الله عنه كتيبة في غزوة خيبر، فبرز إليه مرحب اليهود،

---

(1) ليثوبن : ليقيمنّ ، ثوى : أقام ، الأصفار : جمع صفر ، وهو الشهر الحرم، يريد أنه يقيم بهـــا ســـنين ، وستكون له.

(2) فرّ : كشفت ، يريد انكشفو للموت ، اللجاج : الغبار .

(3) الفروض : المواضع التي يشرب منها من الأنهار، والأشاجع : عروق ظاهر الكتف، ومذوذ: أى يدفع عن حوزته ويمنع الأعداء أن تناله .

(4) الواهن : الضعيف ، ومشهد : مكان الحضور ، وشهد : أى حضر .

(5) عظيم رماد القدر : كناية عن أنه كريم، وإنما خص الشتاء ، لأنه الوتد الذي تشتد فيه الحاجة وتعظم فيه قيمة العطية، والمشرفي: السيف.

(6) يذود: يدفع، والذمار ــ بزنة كتاب ــ ما تجب على الرجل حمايته والدفاع عنه.

(7) الأنباء : هو بفتح الهمزة جمع نبأ، والنبأ : الخبر ، والأنباء بكسر الهمزة ــ مصدر أنبأ بكذا : أى أخبـــر به، "والفوز" يروى في مكانه "الغنم" ، وهو بضم الغين المعجمة من الغنيمة. السيرة جـــ٣/٤٠٤، وراوهـــا ابن هشام عن أبى زيد .

وهو يقول[1] :

قد علمت خيبر أنى مَرْحَب شاكي السلاح بطلُ مُجَرَّب

إذا الحروب أقبلت تلهب

فبرز إليه علىﷺ ، وهو يقول [2]:

أنا الذي سمتني أمي حيدرهْ كليث غاب فى العرين قسورهْ

أكليكم بالصاع كيلَ السندرهْ

ويعد ناجية بن جُنْدُب الأسلمي أشهر الرُّجاز والحداة من أصحاب النبيﷺ ، وقد ارتجز في خيبر قائلاً:

يا لعِباد الله فِيمَ يُرْغَبُ ما هُوَ إلا مأْكَلٌ ومَشْرَبُ

وجنَّةٌ فيها نعيمٌ مُعْجبُ

وقال ناجية بن جُنْدُب الأسلمى أيضاً:

أنا لِمنْ أنكرنى ابن جُنْدُب يارُبَّ قِرْن في مَكَرِّي أَنْكَبِ[3]

طَاحَ بَمغْدَى أنسُرٍ وثَعْلَبِ[4]

وعلم النبيﷺ بتحركات الروم نحو الحجاز ومعهم بعض عرب الشام، فبعث النبىﷺ بعثة تستطلع الأمر، وتخضع القبائل التي تقع على طريقهم إلي مؤته قرب الشام ، وقد كان عبد الله بن رواحة ثالثاً بعد زيد بن حارثه وجعفر بن أبى طالب في قيادة الجيش، وقد ولاهم النبىﷺ إمرة الجيش تباعاً قبل أن ينصرفوا إن قتل الأول فالثاني، فالثالث، وكان هذا مؤشراً على أنهم سينالوا الشهادة، فأتى عبد الله بن رواحة رسول اللهﷺ، فودعه ثم قال[5]:

أنت الرسولُ فمن يُحْرَمْ نوافِلَهُ والوَجْهَ مِنْهُ فقد أزْرَى بِهِ القَدرُ

---

(1) مقاتل الطالبيين ، لأبي الفرج الأصفهاني ، الهيئة العامة لقصور الثقافة جـ ١/٢٤ ، ٢٥ شاكى السلاح : لبس عدة الحرب.

(2) قيل إن عليا ﷺ أسمته أمه أسداً باسم أبيها أسد بن هاشم بن عبد مناف ، وكان أبو غائباً فلما قدم سماه علياً، وحيدرة اسم من أسماء الأسد ، السندرة : مكيال كبير.

(3) القِرْن ــ بكسر القاف ــ الذي يقاوم في قتال أوشدة ، والمكَر : الموضع الذي تكر فيه الخيل ، والأنكب: المائل إلى الجهة .

(4) طاح: ذهب وأهلك، وقوله " بمغدى أنسر" يروى مغدى بالدال المهملة ــ ويروى بمغذى ــ بالذال المعجمة ــ فأما من رواه بالدال المهملة ، فهو من الغذاء ، وهو على الروايتين اسم مكان، والأنسُر : جمع نَسْر . السيرة جـ٣/٤٠٣.

(5) السيرة جـ٣/٤٢٩ ، تفرست : تبينت ، نافلة: هبة من الله وعطيه ، أزرى : قصر به . عرفت هذه الغزوة بغزوة مؤته، وهي موضع بالشام.

فثبَّتَ اللهُ ما آتاك مِـنْ حَسَـن في المرسلين ونصراً كالذى نُصِرُوا
إنِّى تفرست فيك الخير نَافِلَـةً فراسةً خالفتْ فِيـكَ الذي نَظَـرُوا

يريد أنه رأى فيه ما لم يره المشركون فيه.وقيل إن النبىﷺ دعا له، وقال: وإياك ثبّت. وودع المسلمون رجال الجيش وقادته ، فقال له أحد المسلمين : ردكـم الله ، فلـم يـسعد بالرجعة بلا نضال، وقد بكى عبد الله بن رواحة، والناس تودعه، فقالوا : ما يبكيك يا ابـن رواحة؟ فقال : أما والله ما بى حب الدنيا ولا صبابة بكم، ولكنى سمعت رسول اللهﷺ يقرأ آية من كتاب الله عز وجل يذكر فيها النـار : ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾[مريم:٧١] فلست أدرى كيف بعد الورود ،فقال : المـسلمون صـحبكم الله، ودفع عنكم وردكم إلينا صالحين .فقال عبد الله:

لكنى سأل الرحمن مغفـرة وضربة ذات فرغ تقذف الزبدا[1]
أو طعنةً بيدي حرَّان مُجْهِزة بحربة تُنْفُذُ الأحشَـاءَ والكَبِـدا
حتى يقولوا إذا مروا على جدثي أرشدَك اللهُ مِـن غازٍ وقد رشَدَا

فكل ماتمناه مغفرة الله تعالى أو أن يضرب بالسيف ضربة تفجر الدم أو يطعن بـالرمح طعنة تنفذ في الأحشاء والكبد حتى يقولوا الناس وهم يمرون بقبره: لله أنت من غاز، لقـد كنت رشيداً في أمرك عندما جاهدت حتى نلت الشهادة. وقد انصرف بن رواحة عمن ودعه وهو يقول[2] : خَلَفَ السلامُ على امرئ ودَّعْتُه في النخْلِ خيرِ مُشَيَّعٍ وخَلِيلِ

وروى زيد بن أرقم أنه كان رديف عبد الله بن رواحة، فسمعه، وهو يقول في الطريق

إلي مُؤْتة: إذا أدَّيْتَني وحمَلْـتِ رَحْلِى مَسِيرَةَ أرْبَعَ بَعْدَ الحسَـاءِ[3]
فشأنك أنْعُـمٌ وخَـلاكَ ذَمٌّ ولا أرجعْ إلي أهْلِى وَرَائِي[4]
وجاءَ المسلمون وغادرُونى بأرض الشام مُنتهَى الثَّواءِ[5]
وردك كـل ذى نسب قريب إلي الرحمن منقطعَ الإخـاء
هُنَالِكَ لا أبـالي طَلْـعَ بَعْلٍ ولا نَخـلٍ أسـافِلُها رواءِ[6]

---

(1) الزمخشري ج١/٣٧٠، والسيرة ج٣ /٤٢٧
(2) السيرة جـ٣/٤٢٩ ، وهو يرد بمن ودعه النبي ﷺ والنخل يريد يثرب ، وهي ذات نخيل .
(3) الحساء : مثل : دلاء مفرد دلو ، وهو ما يغور في الأرض من الماء، فإذا بعثت عنه وحدته .
(4) لا أرجع : فعل دعاء مجزوم، يدعو على نفسه بالشهادة في المعركة، فلا يرجع إلي أهله .
(5) الثواء: الإقامة .
(6) البعل : النبات الذي يشرب بعروقه من الأرض ، ولعذى : النبات الذي يشرب من مـاء الـسماء، ورواءُ بالشم فيه إقواء ، لأنه خالف الروى .

فلما سمع زيد بن أرقم منه ذلك بكى، فخفقه عبد الله بالدَّرة، وقال: ما عليك يا لُكَـعُ أن يرزقنى الله شهادة ، وترجع بين شُعْبتى الرحْل؟ وقد واجه جيش المسلمين جموعاً كثيـرة من الروم ومن ظاهرهم من قبائل العرب، وصبر لهم المسلمون على قلتهم.

ونزل عبد الله بن رواحةﷺعن فرسه ، وراتجز وهو يقاتل قائلاً:

يا حبَّذا الجنةُ واقترابُهَا طيّبةً وبارداً شرابُها
والروم رومٌ قَدْنَا عَذبُها كافرةً بعيدةً أنسابها
علىَّ إذْ لاقيتُهَا ضِرَابها

وجعلﷺ يرفع من جأش نفسه ، ويغرى نفسه بالشهادة ، بعد أن قتل زيد بن حارثـة، وجعفر بن أبى طالب، وأصبح أمير الجيش، فارتجز قائلاً:

أقسمت يا نفـسُ لتنزلنَّـه لَتَنـْزِلنَّ أو لَتُكْرِهنَّـهْ
إن أجلب الناسُ وشدُّوا الرَّنَّهْ مالى أرَاك تكرهين الجنه
قد طَالَمـا قد كنت مُطْمئنَّةْ هل أنت إلا نطفة في شَنَّه[1]

وقال أيضاً :

يا نفسُ إلاّ تقتلي تموتي هذا حمامُ الموتِ قد صَلِيت
ومـا تمنيتِ قد أُعطـيتِ إن تفْعَلِى فعلهمـا هُديتِ[2]

وظل يقاتل وينازل الروم وأنصارهم العرب حتى نال الشهادة ﷺ، فاختار الناس خالـد بن الوليد، فقاتل بهم، فقدر النصر في المعركة، ورأى الانسحاب لقلة المـسلمين التـي لا تقارن بكثرة جيش الروم وعدته، فوضع خطة للانسحاب، ونجا بجيشه[3].

وتتميز أراجيز بن رواحـة وشـعره بالإيقـاع العـالي، وهـذا شـأن الأراجيـز والأشـعار الحماسية،وأسلوبها سهل قريب الفهم، ولغتها واقعية من البيئة، وليست وحشية بدوية.

ولم تتوقف مسيرة الجهاد بمؤتة التي تعد انتصاراً لجيش المسلمين الذي ثبت أيامـاً، أمـام جيش الروم وليس بينهما تكافؤ في لعدد والعدة، وقد عزم النبيﷺ علـى الـتخلص من خطر قريش أولاً ثم يعد جيشاً قوياً يؤدب به الروم، وقد نقض أهل مكة العهـد ، فقـد

---

(1) النطفة : الماء القليل الصافي . الشنة : القربة القديمة .

(2) ويريد بالاثنين في هما : صاحبيه زيد بن حارثة ، وجعفر بن أبى طالب ، وقد استشهدا قبله .

(3) ارجع إلي السيرة جـ٣/٤٣٥ لقد واجه المسلمون عدداً ضخماً لم يتوقعوه، وقد أعد النبى ﷺ جيشاً آخـر جراراً ضخماً وتولى قيادته، فتراجع الروم وخشوا مواجهته لما وجدوه من جيش مؤته، وقد كـان عـدده قليلاً جداً قياساً إلي عدد جيش المسلمين في تبوك .

صالحوا النبيﷺ على هدنة سنة سبع، وقد كرهها بعض المسلمين الذين كانوا يرون التعجيل بفتح مكة ، وانصرف النبيﷺ عنهم هذا العام اتقاء الحرب بمصالحة بينه وبين مشركى مكة، وكان فيها ألا تعتدى قريش على المسلمين أو حلفائهم، وقد دخلت خزاعة في حلف النبىﷺ في الصلح، وذكروه بحلف لهم مع أبى طالب جده، فحالفهم عليه في الإسلام وزاده قوة. ودخل بنو بكر في حلف قريش، وكان بينهم وبين خزاعة دماء في الجاهلية وحجز الإسلام بينهم بالمصالحة مع قريش، فاغتنمت بنو بكر الهُدنة بين مكة والمدينة ونالوا من رجال من خزاعة كانوا بالحرم وظاهرهم رجال من قريش وأمدوهم بالسلاح ، فاستجار من بقى منهم برجال من قريش. وتظاهرت بنو بكر وقريش على خزاعة، وأصابوا منهم ما أصابوا وكانت خزاعة ضمن المسلمين، ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول اللهﷺ من العهد والميثاق بما استحلوا من خزاعة، وكانوا في عقده وعهده، وخرج عمرو بن سالم الخزاعى، حتى قدم على رسول اللهﷺ المدينة، وكان ذلك مما هاج فتح مكة ، فوقف عليه وهو جالس في المسجد بين ظهراني الناس، فقال :

يارب إنِّى نَاشِدٌ مُحمَّدا ... حلْفَ أبينا وَأبيه الأتْلَدَا[1]
قَدْ كُنْتُمُ وُلْداً وكُنَّا وَالدَا ... ثُمَّتَ أسْلمنا فَلَم ننزع يدا[2]
فانصرُ هَدَاكَ الله نَصْراً أعتَدَا ... وادْعُ عِبَاد الله يأْتُوا مَدَدَا[3]
فِيهِمْ رسولُ اللهِ قَدْ تَجَرَّدَا ... إنْ سِيم خَسفاً وجهُهُ تربَّدَا[4]
فِي فَيلقٍ كالبحرِ يَجرى مُزبِداً ... إن قريشاً أخلفُوك الموعدَا[5]
ونَقضُوا ميثاقَكَ المُؤَكَّدَا ... وَجَعَلُوا لِي فِي كَدَاء رُصَّدَا[6]
وَزعَمُوا أنْ لَسْتُ أدْعُو أحَدَا ... وَهُمْ أذلُّ وأقلُّ عَدَدا

---

(1) ناشد : طالب ومذكر ، والأتلد : القديم، قال ابن هشام : ويروى أيضاً : " فانصرْ هَداك اللهُ نَصْراً أيِّدا " وأيداً : قوياً ، وهو من التأييد ، المعونة . قال ابن هشام : ويروى أيضاً : نَحْنُ وَلَدْنَاك فكُنْتَ وَلَدا .

(2) نصراً أعتدا : أى حاضراً ، والمدد : العون .

(3) "قد تجردا" تروى هذه الكلمة بالجيم وبالحاء المهملة ؛ فأما من رواه بالجيم فمعناه شمر وتهيأ لحربهم، وأما من رواه بالحاء المهملة فمعناه غضب وثأر، وسيم خسفاً: معناه طلب منه وكلفه، والخسف ــ بفتح فسكون ــ الذل ، وتربَّد: تغير .

(4) الفيلق : العسكر الكثير .

(5) كداء : موضع بمكة ، "ورصدا" يروى بضم الراء وتشديد الصاد مفتوحة فهو جمع راصد ، مثل راكع وركع ، والراصد : الذي يترصد الأمر ويطلبه ، ويروى "رصداً" بفتح الراء والصاد جميعاً.

(6) الوتير : اسم ماء ، وهجد : جمع هاجد ، ويطلق على النائم أو المستيقظ ، وهو من الأضداد . السيرة جـ٤/١١.

هُـمْ بَيَّتُونَا بالوَتِيرِ هُجَّـــدَا قَتَلُونَا رُكَّعـــاً وَسُجَّـــداً

لقد كان هذا الشعر مما هاج فتح مكة، فقد روى ابن إسحق أن رسول اللهﷺ قال: "نُصرت يا عمرو بن سالم" ثم عرض لرسول اللهﷺ عَنَان من السماء فقال : "إن هذه السحابة لتستهلّ بنصر بنى كعب".(١)

وأمر النبيﷺ أصحابه بأن يعدوا أنفسهم للغزو، فجهزوا أنفسم ، وكتم الجهة التي يقصدها، وقال: "اللهم خُذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها"، وقال حسان بن ثابتﷺ يحرِّض المسلمين، ويذكر ما فعلته قريش ومن ظاهرها من بنى بكر بخزاعة ومصاب رجال منها:

عناني ولم أشهَدْ ببطحَاءَ مَكَّـة رِجَـال بنـى كعْب تحزُّ رقابُها(٢)
بأيدى رِجال لـم يَسُلُّوا سُيُوفَهمْ وقتلى كثيـرٌ لـم تجـنَّ ثيابُهَا(٣)
ألا ليت شعـرى هلْ تنَالنَّ نُصْرتى سُهَيل بن عمرو وحرُّها وعقابُها(٤)
وصفوانُ عوْدُ حُزَّ من شعْرِ استه فهذا أوَان الحرب شُدّ عصابُهـا(٥)
فـلا تأمننَّا يا ابن أمِّ مُجَـالد إذا احْتُلبتْ صِرْفاً وأعصلَ نابُها(٦)
ولا تجزعُوا منهـا فإن سُيُـوفنا لها وقعة بالموتِ يفتـحُ بابُها(٧)

وقد سعد المسلمون بهذا الغزو فلم يسعدهم صلح الحديبية؛ لأنهم كانوا يريدون مكة ويستعجلون دخولها فاتحين حنيناً إلى بيت الله الحرام ليخلصوه من المشركين والوثنية .

وقد علم رجال من مكة بخروجه إليهم، فخرج رجال منهم إليه معتذرين، فقد قدم عليه أبو سفيان بن الحارث ابن عمه ومعه ابن له وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة على رسول اللهﷺ، فلقياه وهو في طريقه إلى مكة للفتح بـ "نِيق العُقاب"، فطلبا من أم سلمة زوج النبيﷺ أن تستأذن لهما على رسول اللهﷺ، و تشفع لهما، فقالت : يا رسول الله، ابن

---

(1) السيرة جـ ٣/١٢ ،وعنان من السماء : سحابة .

(2) يروى : وغبنا فلم نشهد . وتحز : نقطع .

(3) سلَّ السيف : شهره . تجنَّ ثيابها : تستر ، يريد أنهم قتلوا ولم يدفنوا .

(4) ويروى: "وخزها وعقابها"، ويروى: " حربها وعقابها"، الوخز: الطعن النافذ في جنب المطعون، ويقال: الطعن غير النافذ .

(5) صفوان : صفوان بن أمية بن خلف الجمحى ، وكان مع من أغاروا على خزاعة ، والعود: المسن من الإبل مع أن فيه بقية ، والاست : الدبر .

(6) ابن أم مجالد : عكرمة بن أبى جهل ، والصرف : اللبن الخالص، أعصل: أعوج ، وناب أعصل: أعوج.

(7) لا تجزعوا : لا تفزعوا . السيرة جـ ٤/١٥، ١٦.

عمك وابن عمتك وصهرك. قال : "لا حاجة لي بهما أمَّا ابن عمِّي فهتك عِرضي، وأما ابن عمتِّي وصِهْرِى فهو الذي قال لي بمكة ما قال. فقال أبو سفيان : والله ليأذنن لي أو لآخذن بيدي بُنّى هذا، ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشًا وجوعًا، فبلغ ذلك رسول اللهﷺ، فرق لهما، ثم قال شعرًا بعد أن أسلم، واعتذر إليه مما كان مضى منه، فأقسم أنه يوم قاتل في صفوف المشركين النبيﷺ كالذي يسير حيرانًا في ليلة مظلمة، وقد حان وقت الاهتداء إلى المقصد الصحيح، وأصاب الحق، وقد هداني إليه من ضيقت عليه وسعيت في نفيه، وهو ادعاء كاذب، فقد زعم أنه أخرج النبيﷺ ونفاه من مكة، قال[1]:

لَعَمْرُكَ إنّي يومَ أحملُ رايةً ... لتغلبَ خيلُ اللات خيلَ محمّد[2]
لكا لُمدلج الحيرانِ أظلمَ ليلُهُ ... فهذا أواني حينَ أُهْدَى وأهتدي[3]
هداني هادٍ غيرُ نفسي ونالني ... مع الله من طرَّدْتُ كل مُطَرَّدِ[4]

ويروى : "ودلني على الحق من طردت كل مطرد".

وقيل : إن النبيﷺ حين أنشده "ونالني مع الله من طردت كلَّ مطرد". ضرب رسول اللهﷺ في صدره؛ وقال : "أنت طرّدتني كلَّ مطرَّد"؟!. ثم ذكر صدوده ورده الناس عن الإسلام، وعداوته النبيﷺ، فقال :

أَصَدُّ وأنْأَى جَاهِدًا عن محمد ... وأُدْعَى وإن لم أَنْتَسِبْ من محمد[5]
هُمُ ما هُمُ من لَمْ يقل بهواهُمُ ... وإنْ كانَ ذا رأى يُلَمْ ويُفنَّد[6]
أُريدُ لأرضيهِمْ ولستُ بلائطٍ ... مع القومِ ما لم أُهْدَ في كل مَقْعَد[7]
فَقُلْ لثقيفٍ لا أريدُ قتالَها ... وقلْ لثقيف تلكَ:غَيرِى أَوْعِدِي[8]
فما كنتُ في الجيش الذي نال عامرًا ... وما كان عن جرَّى لساني ولا يَدى
قبائل جاءتْ من بلاد بعيدة ... نزائعُ جاءت مِن سِهَامٍ وسَرْدِدِ

---

(1) السيرة جـ٤/١٨، ١٩، ٢٠.

(2) اللات: اسم صنم من أصنام العرب. وأراد بخيل اللات: جيش الكفر والشرك،وخيل محمد:جيش المسلمين.

(3) المدلج : الذي يسير ليلاً.

(4) مُطَرد : مصدر ميمي، بمعنى : طرد.

(5) أصد : أمنع الناس عن الدخول في الإيمان. أنأى : أبعد عنه جاهدًا : مجتهدًا.

(6) فنّدَ : من الفند، وهو الكذب. السيرة جـ ٤/ ١٩ ، ٢٠

(7) لائط : ملصق، يقال لاط حبه بقلبي : إذا لصق به.

(8) أوعدي : هددي.

وخرج بعضهم يسترحمه ويطلب عفوًا عامًا لأهل مكة ويذكّره بالرحم، ومنهم أبو سفيان بن حرب الذي لقيه بالجعّرانه قبيل مكة، وأسلم هنالك.

وقد أمر النبيﷺ العباس بن عبد المطلب أن يأخذ أبا سفيان بن حرب إلى مكان بالجبل، فيرى كتائب الإسلام وهي تمر قبل دخولهم مكة، فمر سعد بن عبادة به، فقال له يا أبا سفيان: "اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة" [1] فوقع في قلبه الخوف على قومه، وعلم رسول اللهﷺ بقول سعد، فأخذ الراية منه، وروى عن جابر رضى الله عنه : أن امرأة من قريش عارضت رسول اللهﷺ لما قال سعد بن عبادة ذلك فقالت :

يا نبي الهدى إليك لجا ... جى قريش ولات حين لجاءِ
حين ضاقت عليهم سعة الأر ... ض وعاداهم إله السماءِ
إن سعدًا يزيد قاصمة الظهـ ... ـر بأهل الحجون والبطحاءِ

فلما سمع هذا الشعر دخلته رأفة لهم ورحمة، فأخذ الراية من سعد ودفعها إلى ابنه قيس بن سعد. [2]

ولحسان قصيدة قالها وجيش المسلمين في طريقه إلى مكة، وقد تحقق ما قاله من فزع أهل مكة وخروج النساء.

روى البيهقي عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : لما دخل رسول الله ﷺ عام الفتح رأى النساء يلطمن وجوه الخيل بالخمر، فتبسم إلى أبي بكر، فقال : يا أبا بكر كيف قال حسان ؟ فأنشد قوله:[3]

عدمت بنيتي إن لم تروها ... تثيرُ النقعَ موعدُها كَداء
ينازعن الأسنة مسرجات ... يلطمهنّ بالخمر النساء

وكان فَضَالة بن عمير بن الملوِّح الليثي يريد قتل النبيﷺ، وهو يطوف بالبيت عام الفتح، فلما دنا منه قال رسول اللهﷺ : أفَضَالة ؟ قال : نعم فَضَالة يا رسول الله، قال :

---

(1) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الفتح.

(2) فتح الباري جـ٧/٦٠٥، وكان ذلك في العام الثامن.

(3) فتح الباري جـ٧/٦٠٧، وهما من قصيدته التي أولها :

عفت ذات الأصابع فالجواء ... إلى عذراء منزلها خلاء

الديوان صـ١٧، والسيرة جـ٤/٤٤. وقد سبق شرحها.

ماذا كنت تحدِّث به نفسك ؟ قال لا شيء كنت أذكر الله عز وجل، فضحك رسول اللهﷺ، ثم قال: استغفر الله، ثم وضع يده على صدره فسكن، فكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدري حتى ما كان من خلق الله شيء أحب إلى منه، فمر، وهو راجع إلى أهلـه بـامرأة كان يتحدث إليها، فقالت هلمَّ إلى الحديث، فقال: لا، وقال:

قالتْ : هَلُمَّ إلـى الحـديثِ، فقلـتُ : لا ... يـأبى عليـك واللهُ والإسـلامُ
لـو مـا رأيـت محمـدًا وقَبيلَـهُ ... بـالفتح يـوم تكُسَّرُ والأصَـنَامُ
لرأيـت ديـنَ الله أضَـحى بيِّنًـا ... والشّركُ يغْـشَى وجْهَـهُ الإظـلامُ

وحَسُن إسلامه وسيرته.(١)

وكان النبيﷺ يطوف على راحلته يوم الفتح وحول البيت أصنام مشدودة بالرصـاص، فجعل يشير بقضيب في يده إلى الأصنام، ويقول قولـه تعـالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[الإسراء:٨١] .

فما أشار إلى صنم منها في وجهه إلا وقع لقفاه، ولا أشار لقفاه إلا وقع لوجهه حتى ما بقى منها صنم إلا وقع، فقال تميم بن أسد الخزاعي في ذلك:(٢)

وفي الأصنامِ معتبرٌ وعِلْمٌ ... لِمَنْ يرجُو الثوابَ أو العقابَا

واجتمعت جماعة من المشركين، فيهم صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسـهيل بن عمرو، في مكان يسمى الخَنْدَمَة، ليردوا رسول اللهﷺ عن دخول مكة، وكـان معهـم حمَاس بن قيس من بني بكر، فقال مرتجزًا :(٣)

إنْ يُقْبِلُوا اليومَ فمالي علَّهْ ... هذا سِلاحٌ كاملٌ أَلَّهْ وذُو غِرَارين سَرِيعُ السَّلَّهْ

فلقيتهم خيل المسلمين، فانهزموا، فولى حمَاس منهزمًا، وعاد إلى بيتـه وطلـب مـن زوجته أن تغلق الباب، وكان قد وعدها أن يخدمها بعض المسلمين، فسألته أين كنت : فقال:

إنـكِ لـو شـهدتِ يـومَ الخَنْدمَـهْ ... إذ فـرَّ صَـفْوانُ وفـرَّ عِكرمـهْ
وأبـو يزيـدَ قـائم كالمُؤْتمَـهْ ... واسـتقبلتْهُمْ بالـسيوف المسلمهْ

---

(1) السيرة جـ٤/٣٧ .

(2) السيرة جـ٤/٣٧.

(3) وتروي هذه الأبيات للرّعاش الهذلي. ارجع إلى السيرة جـ٤/٢٨.

الألّه : الحربة لها سنان طويل. ذو غرارين : يريد السيف، والغرار : الحد.

يقطعْـــنَ كـــل ســـاعدٍ وجُمْجُمَـــهْ ضـــرْبًا فـــلا يُـــسْمَعُ إلا غَمْغَمَـــهْ
لهـــم نَهيـــتٌ خَلْفَنَـــا وهَمْهَمَـــهْ لم تنطقِي في اللَّوم أدنـــى كلمـــهْ[1]

وقد كان فتح مكة فتحًا مبينًا، فقد فتح الله به للإسلام قلوب العرب فأتو طوعًا مسلمين، وبايعوه على السمع والطاعة.

وسقطت بفتح مكة المعارضة التي عتت عن أمر ربها، وأطالت في عنادها، فـدانت لله ولرسوله طوعًا وهي طائعة، وتحول شعراء المشركين الذين هجـوه ونـالوا منـه ومـن المسلمين إلى معتذرين ومادحين، يطلبون العفوا، وهرب رجال من المـشركين خـشية أن يلقوا جزاء صنعهم من النبيﷺ، فقد هرب عبد الله بن الزِّبْعري إلى نَجْرَان أيضًا، فرمـاه حسان ببيت شعر واحد ما زاد عليه، وهو :

لا تَعْدَمَنْ رجلاً أحلَّكَ بُغْضُهُ نجرانَ في عَيْشٍ أحذَّ لَئِيمِ

أي لا تترك رجلاً حملك كرهك له على العيش في نجران قليل المؤنة منقطـع لا أنـيس لك. فلما بلغ ذلك ابن الزبعري عاد مسرعًا إلى النبيﷺ ، واعتذر إليه ومدحه:[2]

يَـــا رَسُـــولَ المَليـــكِ إن لـــساني راتـــقٌ مـــا فَتَقْـــتُ إذْ أنـــا بُـــورُ
إذ أُباري الـــشيطانَ فـــي سَـــنَنِ الـــ غـــيِّ ومـــن مَـــالَ ميلَـــهُ مَثْبُـــورُ
آمَـــنَ اللحـــم والعظـــام لربِّـــي ثـــم قلبـــي الـــشهيدُ أنـــتَ النـــذيرُ
إننـــي عنـــك زاجِـــرٌ ثـــم حَيَّـــاً مـــن لـــؤى وكُلُّهـــمْ مَغْـــرُورُ

وهرب هبيرة بن أبي وهب إلى نَجْرَان أيضًا، وأقام بها هبيرة حتى مات كافرًا، وكانـت عنده أم هانئ ابنة أبي طالب، واسمها هند، وقد قال حين بلغه إسلام أم هانئ:[3]

---

(1) أبو يزيد: كنية عروة بن مسعودﷺ ، وخففت الهمزة للضرورة، والمؤتمه التي قُتل زوجها، ولها أولاد أيتام، وأيتمت فهي مؤتِم. والجمجمة:الرأس، الغمغمه: أصوات الأبطال في الحرب. النهيت: نوع من صياح الأسد، والهمهمة:صوت في الصدر. السيرة جـ٤/٢٨،٢٧.

(2) السيرة جـ٤/٣٩. يريد أن لسانه سوف يصلح ما قاله وهو مشرك، عندما بارى الشيطان في الضلالة، واتبعه وأهلك نفسه، أو قد صَدَق لحمي وعظامي وقلبي أنك أنت النذير البشير، وسوف أزجر عنك كل من هجاك أو نال منك. وقد سبق ذكرها في الاعتذار.

(3) السيرة جـ٤/٤٣.

أَشَــاقَتْكَ هِنْــدٌ أَمْ أَتَــاكَ سُــؤَالُهَا ... كَــذَاكَ النَّــوَى أَسْــبَابُهَا وَانْفِتَالُهَــا[1]

وَقَدْ أَرَّقَتْ فِي رَأْسِ حِــصْنٍ مُمَنَّــعٍ ... بِنَجْرَانَ يَــسْرِي بَعْــدَ لَيْــلٍ خَيَالُهَــا[2]

وَعَاذِلَــةٍ هَبَّــتْ بِلَيْــلٍ تَلُــومُنِي ... وَتَعْــذِلُنِي بِاللَّيْــلِ ضَــلَّ ضَــلاَلُهَا[3]

وَتَزْعُمُ أَنِّــي إِنْ أَطَعْــتُ عَــشِيرَتِي ... سَــأَرْدَى وَهَــلْ يُــرْدِينِ إِلاَّ زِيَالُهَــا[4]

فَإِنِّي لَمِــنْ قَــوْمٍ إِذَا جَــدَّ جِــدُّهُمْ ... عَلَى أَيِّ حَــالٍ أَصْــبَحَ الْيَــوْمَ حَالُهَــا

وَإِنِّي لَحَــامٍ مِــنْ وَرَاءِ عَــشِيرَتِي ... إِذَا كَانَ مِنْ تَحْتِ الْعَــوَالِي مَجَالُهَــا[5]

وَصَارَتْ بِأَيْــدِيهَا الــسُّيُوفُ كَأَنَّهَــا ... مَخَــارِيقُ وِلْــدَانٍ وَمِنْهَــا ظِلاَلُهَــا[6]

وَإِنِّــي لأَقْلِــي الحَاسِــدِينَ وَفِعْلَهُــمْ ... عَلَــى اللهِ رِزْقِــي نَفْــسُهَا وَعِيَالُهَــا[7]

وَإِنَ كَلاَمَ الْمَرْءِ فِــي غَيْــرِ كُنْهِــهِ ... لَكَالنَّبْلِ تَهْوِي لَــيْسَ فِيهَــا نِــصَالُهَا[8]

فَإِنْ كُنْتِ قَدْ تَابَعْــتِ دِيــنَ مُحَمَّــدٍ ... وَعَطَّفَــتِ الأَرْحَــامَ مِنْــكِ حِبَالُهَــا

فَكُونِي عَلَى أَعْلَى سَــحِيقٍ بِهَــضْبَةٍ ... مُلَمْلَمَــةٍ غَبْــرَاءَ يَــبْسٍ بِلاَلُهَــا[9]

وقال أنس بن زُنَيْمٍ الدِّيلي يعتذر إلى رسول اللهﷺ مما كان قال فيهم عمرو بن سالم الخزاعي، الذي ذهب يستغيث النبيﷺ عندما قام رجال من بني بكر بقتل رجال من خزاعة ونقضوا العهد:

---

(1) "أتاك" ويروى "نآك" ومعناه بَعُدَ عنك، والنأى : البعد، وانفتالها : يروى بالفاء الموحدة، ومعناه تقلبها من حالة إلى حالة، ويروى في مكانه "وانتقالها" بالقاف.

(2) أرقت : أزالت النوم، ونجران : بلد قرب اليمن شمالها، ويسري : يسير ليلاً.

(3) هبت : استيقظت من نومها، وضل ضلالها : دعاء عليها بالضلال.

(4) أردي – بفتح الدال، من باب رضى يرضي – أي : أهلك، وزيالها : ذهابها.

(5) العوالي : جمع عالية، وهي أعلى الرمح.

(6) مخاريق : جمع مخراق، وهو منديل يمسكه الصبي بيده ويضرب به، شبه السيوف به.

(7) أقلى : أبغض، والقلى – بكسر القاف – البغض، وقد قلاه يقليه وقلاه يقلوه وفي التنزيل:﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى:٣].

(8) "في غير كنهه" أي في غير حقيقته، وكنه الشيء : حقيقته وما هو عليه، والنصال : حديد السهام.

(9) السحيق : البعيد، والهضبة : الكدية العالية، والململمة : المستديرة، والغبراء : التي علاها الغبار، واليبس : اليابس.ويروى : وقطعت الأرحام منك حبالُها .

أَنْتَ الَّذِي تُهْدَى مَعَدٌّ بِأَمْرِهِ ... بَلِ اللهُ يَهْدِيهِمْ وَقَالَ لَكَ اشْهَدِ

وَمَا حَمَلَتْ مِنْ نَاقَةٍ فَوْقَ رَحْلِهَا ... أَبَرَّ وَأَوْفَى ذِمَّةً مِنْ مُحَمَّدِ[1]

أَحَثَّ عَلَى خَيْرٍ وَأَسْبَغَ نَائِلاً ... إِذَا رَاحَ كَالسَّيْفِ الصَّقِيلِ المُهَنَّدِ[2]

وَأَكسَى لِبُرْدِ الْخَالِ قَبْلَ ابْتِذَالِهِ ... وَأَعْطَى لِرَأْسِ السَّابِقِ المُتَجَرِّدِ[3]

تَعَلَّمْ رَسُولَ اللهِ أَنَّكَ مُدْرِكِي ... وَأَنَّ وَعِيدًا مِنْكَ كَالأَخْذِ بِاليَدِ[4]

تَعَلَّمْ رَسُولَ اللهِ أَنَّكَ قَادِرٌ ... عَلَى كُلِّ صِرْمٍ مُتْهِمِينَ وَمُنْجِدِ[5]

تَعَلَّمْ بِأَنَّ الرَّكْبَ رَكْبَ عُوَيْمِرٍ ... هُمُ الْكَاذِبُونَ المُخْلِفُو كُلِّ مَوْعِدِ

وَنَبَّؤْا رَسُولَ اللهِ أَنِّي هَجَوْتُهُ ... فَلاَ حَمَلَتْ سَوطِي إِلَيَّ يَدِي

سِوَى أَنَّنِي قَدْ قُلْتُ وَيْلُ أُمِّ فِتْيَةٍ ... أُصِيبُوا بِنَحْسٍ لاَ بِطَلْقٍ وَأَسْعَدُ[6]

أَصَابَهُمُ مِنْ لَمْ يَكُنْ لِدِمَائِهِمْ ... كِفَاءَ فَعَزَّتْ عَبْرَتِي وَتَبَلَّدِي[7]

فَإِنَّكَ قَدْ أَخْفَرْتَ إِنْ كُنْتَ سَاعِيًا ... بِعَبْدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ وَابْنَةِ مَهْوَدِ[8]

ذُؤَيْبٌ وَكُلْثُومٌ وَسَلْمَى تَتَابَعُوا ... جَمِيعًا فَإِلاَّ تَدْمَعِ الْعَيْنُ أَكْمَدِ[9]

وَسَلْمَى لَيْسَ حَيٌّ كَمِثْلِهِ ... وَإِخْوَتُهُ وَهَلْ مُلُوكٌ كَأَعْبُدِ

فَإِنِّي لاَ دِينًا فَتَقْتُ وَلاَ دَمًا ... هَرَقْتُ تَبَيَّنَ عَالِمَ الْحَقِّ وَأَقْصِدِ

---

(1) الذمة : بكسر الذال، وتشديد الميم : العهد.

(2) أحث: أسرع، وأشد حثًا للناس واستنهاضًا لهمتهم، وأسبغ: أكمل وأضفى، والنائل: العطاء، والمهند: الصارم.

(3) الخال : ضرب من برود اليمن، وابتذاله : استعماله حتى يبتذل، والسابق ههنا : الفرس، والمتجرد : أراد به الذي يسبق الخيل.

(4) تعلم : معناه اعلم، والوعيد : التهديد.

(5) صرم – بكسر فسكون – البيوت المجتمعة، ومتهمين : أي يسكنون تهامة، والمنجد : الذي يسكن نجدا، وأراد بتهامة المنخفض من الأرض وبنجد المرتفع منها.

(6) "طلق" يقال: يوم طلق؛ إذا لم يكن فيه حر ولا برد ولا شيء يؤذي، وكذلك قولهم : ليلة طلقة.

(7) كفاء : أراد نظيرًا أو مكافئًا، وعزت : اشتدت حتى غلبتني، ومنه قوله تعالى : ﴿وعزني في الخطاب﴾، والعبرة : الدمعة، وتبلدي : تحيري، ويروى "تجلدي"، وهو الصبر.

(8) أخفرت : نقضت العهد.

(9) أكمد : هو من الكمد، وهو الحزن.

وكان عباس بن مرداس السُّلَمي مشركاً وأسلم يوم الفتح، وبعث رسول اللهﷺ خالد بن الوليد في جُند حول مكة، يدعو الناس إلى الإسلام، فقال عباس بن مرداس مخاطبًا رسول الله ومادحًا خالدًا:[1]

فإن تك قد أمّرت في القوم خالدًا وقدَّمتـه فإنـه قد تقدَّما
بجندٍ هَدَاهُ الله أنت أميرُهُ نصيب به في الحق من كان أظلما

وظهر خطر آخر بعد فتح مكة، فقد جمع مالك بن عوف النصري هوازن بني نصر، وجُشَم، وسعد، ورجال من بني هلال، وأجمع السير إلى رسول اللهﷺ وجعل مع الرجال أموالهم ونساءهم وأبناءهم ليقاتلوا عنهم ولا يفروا، وكان فيهم الشاعر والفارس دُرَيْد بن الصمة، وقد أسن فحملوه في شجار (محمل يشبه الهودج مكشوف الظهر)، يتبركون به ويستشرونه، وقد أنكر على مالك بن عوف أنه حمل مع الجيش النساء والأولاد والأموال، فقال دريد آسفًا : [2]

يا ليتني فيها جَذَع أخبُّ فيها وأضَعْ
أقودُ وطفاءَ الزَّمَعْ كأنَّها شاةٌ صَدَعْ

وقال دريد لمالك هذا يوم لم أشهده، ولم يفتني، وقال:[3]

وهل أنا إلا من غزيّةَ إن غوت غويت وإن ترشد غزيَّة أَرشِد

وانتصر المسلمون في حنين، وفر مالك بن عوف ورجال معه، وتركوا وراءهم أولادهم، ونساءهم وأموالهم، وقُتل دَريدُ بن الصمة.

وقال بجير بن زهير بن أبي سُلْمَى في يوم حُنَيْن يعيرهم بالفرار ويفخر بانتصار المسلمين :

---

(1) السيرة جـ٤/٥٣ وقال بن هشام قالها يوم حنين.

(2) السيرة جـ٤/٦٧.

(3) الأصمعيات، دار المعارف ص١١٢، وتاريخ الحكم في الإسلام، الدكتور محمود عكاشة، مؤسسة المختار ص٦١.

لَـــوْلاَ الإِلَـــهُ وَعَبْـــدُهُ وَلَّيْـــتُمُ ... حِينَ اسْـتَخَفَّ الرُّعْـبُ كُـلَّ جَبَـانِ[1]
بِـــالجِزْعِ يَـــوْمَ حَبَالَنَـــا أَقْرَانُنَـــا ... وَسَـــوَابِحٌ يَكْبُـــونَ لِلأَذْقَـــانِ[2]
مِنْ بَيْنِ سَـاعٍ ثَوْبُـهُ فِـي كَفِّـهِ ... وَمُقَطَّـــرٍ بِـــسَنَابِكٍ وَلَبَـــانِ[3]
فَـــاللهُ أَكْرَمَنَـــا وَأَظْهَـــرَ دِينَنَـــا ... وَأَعزَّنَـــا بِعِبَـــادَةِ الـــرَّحْمَنِ
واللهِ أَهْلَكَهُـــمْ وَفَـــرَّقَ جَمْعَهُـــمْ ... وَأَذَلَّهُـــمْ بِعِبَـــادَةِ الـــشَّيْطَانِ

وتوجه النبيﷺ نحو الطائف، وكانت آخر معاقل المشركين، وقد تحصنوا في حصونهم، فحاصرهم النبيﷺ في حنين – فقال كعب بن مالك حين أجمع رسول اللهﷺ إلى الطائف :

قَضَيْنَا مِـنْ تِهَامَـةَ كُـلَّ رَيْـبٍ ... وَخَيْبَـرَ ثُـمَّ أَجْمَمْنَـا الـسُّيُوفَا[4]
نُخَبِّرُهَـا وَلَـوْ نَطَقَـتْ لَقَالَـتْ ... قَـــوَاطِعُهُنَّ دَوْسًـــا أَوْ ثَقِيفَـــا
فَلَسْتُ لِحَاضِـنٍ إِنْ لَـمْ تَرَوْهَـا ... بِـــسَاحَةِ دَارِكُـــمْ مِنَّـــا أُلُوفَـــا[5]
وَنَنْتَـــزِعُ الْعُـــرُوشَ بِـــبَطْنِ وَجٍّ ... وَنُـــصْبِحُ دُورَكُـــمْ مِـــنْكُمْ خُلُوفَـــا[6]
وَيَـــأْتِيكُمْ لَنَـــا سَـــرْعَانُ خَيْـــلٍ ... يُغَـــادِرُ خَلْفَـــهُ جَمْعًـــا كَثِيفَـــا[7]
إِذَا نَزَلُـــوا بِـــسَاحَتِكُمْ سَـــمِعْتُمْ ... لَهَـــا مِمَّـــا أَنَـــاخَ بِهَـــا رَجِيفَـــا[8]

---

(1) استخف : دعاهم إلى الخفة وطاشت به حلومهم، والرعب : الفزع والخوف، و"كل جبان" هكذا وقع في بعض النسخ، ووقع في نسختين أخريين "كل جنان" والجنان : القلب.

(2) الجزع : ما انعطف من الوادي، وحبا : اعترض، يقال : حبا الشيء، إذا اعترض، والسوابح: هي الخيل كأنها تسبح في الماء لسهولة سيرها، ويكبون : يخرون ويسقطون، والأذقان : جمع ذقن، كسبب وأسباب.

(3) مقطر : مرمي على قطره، يريد واقعًا على جنبه، والسنابك : جمع سنبك، وهو طرف مقدم الحافر، واللبان – بفتح اللام – الصدر.

(4) الحاضن : المرأة التي تحضن ولدها، وساحة الدار : وسطها، ويقال : الساحة الفناء.

(5) العروش ههنا : سقف البيوت، وجّ : موضع، والخلوف : الغائبون هنا.

(6) السرعان : المتقدمون السابقون، وكثيفًا : أراد كثيرًا، وأصله الملتف بعضه ببعض، ويروى في مكانه "كشيفًا" بالشين المعجمة في مكان الثاء – وهو الظاهر.

(7) الرجيف : هو الصوت الشديد مع زلزال، وهو من الرجفة، ويروى "وجيفا" بالواو في مكان الراء – وهو السريع، يريد تسمعون صوته بسرعة.

(8) القواضب : السيوف، والمرهفات : المحددة أو القاطعة، والمصطلون بها : المباشرون لها، يريد أعداءهم الذين يضربون بها.

بِأَيْـــدِيهِمْ قَوَاضِـــبُ مُرْهَفَـــاتٌ ... يُـــزِرْنَ الْمُـــصْطَلِينَ بِهَـــا الْحُتُوفَـــا[1]

كَأَمْثَـــالِ العقَـــائِقِ أَخْلَـــصَتْهَا ... قُيُـــونُ الْهِنْـــدِ لَـــمْ تُـــضْرَبْ كَتِيفَـــا[2]

تَخَـــالُ جَدِيَّـــةَ الأَبْطَـــالِ فِيهَـــا ... غَـــدَاةَ الزَّحْـــفِ جَادِيًّـــا مَـــدُوفَا[3]

أَجَـــدَّهُمُ أَلَـــيْسَ لَهُـــمْ نَـــصِيحٌ ... مِـــنَ الأَقْـــوَامِ كَـــانَ بِنَـــا عَرِيفَـــا[4]

يُخَبِّـــرُهُمْ بِأَنَّـــا قَـــدْ جَمَعْنَـــا ... عِتَـــاقَ الْخَيْـــلِ والنُّجُـــبَ الطُّرُوفَـــا[5]

وَأَنَّـــا قَـــدْ أَتَيْنَـــاهُمْ بِزَحْـــفٍ ... يُحِـــيطُ بِـــسُورِ حِـــصْنِهِمُ صُـــفُوفَا

رَئِيـــسُهُمُ النَّبِـــيُّ وَكَـــانَ صُـــلْبًا ... نَقِـــيَّ الْقَلْـــبِ مُـــصْطَبِرًا عَزُوفَـــا[6]

رَشِـــيدَ الأَمْـــرِ ذَا حُكْـــمٍ وَعِلْـــمٍ ... وَحِلْـــمٍ لَـــمْ يَكُـــنْ نَزِقًـــا خَفِيفَـــا[7]

نُطِيـــعُ نَبِيَّنَـــا وَنُطِيـــعُ رَبًّـــا ... هُـــوَ الـــرَّحْمَنُ كَـــانَ بِنَـــا رَؤُوفَـــا

فَإِنْ تُلْقُـــوا إِلَيْنَـــا الـــسِّلْمَ نَقْبَـــلْ ... وَنَجْعَلَكُـــمْ لَنَـــا عَـــضُدًا وَرِيفَـــا[8]

وَإِنْ تَـــأْبَوْا نُجَاهِـــدْكُمْ وَنَـــصْبِرُ ... وَلاَ يَـــكُ أَمْرُنَـــا رَعِـــشًا ضَـــعِيفَا[9]

مُجَالِـــدُ مَـــا بَقِينَـــا أَوْ تُنِيبُـــوا ... إِلَـــى الإِسْـــلاَمِ إِذْعَانًـــا مُـــضِيفَا[10]

نُجَاهِـــدُ لاَ نُبَـــالِي مَـــنْ لَقِينَـــا ... أَأَهْلَكْنَـــا الـــتِّلاَدَ أَمِ الطَّرِيفَـــا[11]

وَكَمْ مِـــنْ مَعْـــشَرٍ أَلَبُـــوا عَلَيْنَـــا ... صَـــمِيمَ الجَـــذْمِ مِـــنْهُمْ وَالْحَلِيفَـــا[12]

---

(1) العقائق : جمع عقيقة، وهي هنا شعاع البرق، والكتيف – بالتاء المثناة – جمع كتيفة، وهي صفائح الحديد التي تضرب للأبواب وغيرها.

(2) الجدية : الطريقة من الدم، و"غداة الزحف" أي دنو بعض.

(3) تهامة : ما انخفض من أرض الحجاز، والريب : الشك، وأجممنا : أرحنا.

(4) العريف ههنا : العارف.

(5) النجب : جمع نجيب، وهو العتيق الكريم، والطروف : جمع طرف – بكسر فسكون – وهو الكريم من الخيل أيضًا.

(6) العزوف عن الشيء : الصابر عليه المنصرف عنه، وأراد أنه عزوف عن كل ما يشين الرجال.

(7) النزق – مثل الفرح – الكثير الطيش.

(8) الريف : الموضع المخصب على الماء.

(9) الرعش : المتقلب غير الثابت.

(10) الإذعان : الانقياد في ذل، والمضيف : الذي يشفق منه ويخاف.

(11) التليد : المال القديم، والطريف : المال المحدث.

(12) ألبوا علينا : جمعوا علينا الناس، والجذم – بكسر فسكون – الأصل.

أَتَوْنَـــا لاَ يَـــرَوْنَ لَهُـــمْ لِقَـــاءَ فَجَـــدَّعْنَا الْمَـــسَامِعَ وَالأُنُوفَـــا[1]

بِكُـــلِّ مُهَنَّـــدٍ لَـــيْنٍ صَـــقِيلٍ نَـــسُوقُهُمُ بِهَـــا سَـــوْقًا عَنِيفًـــا[2]
لأَمْـــرِ اللهِ وَالإِسْـــلاَمِ حَتَّـــى يَقُـــومَ الـــدِّينُ مُعْتَـــدِلاً حَنِيفَـــا
وَتُنْـــسَى الَّـــلاتُ وَالْعُـــزَّى وَوَدٌّ وَنَـــسْلُبُهَا الْقَلاَئِـــدَ وَالـــشُّنُوفَا[3]
فَأَمْـــسَوْا قَـــدْ أَقَـــرُّوا وَاطْمَـــأَنُّوا وَمَـــنْ لاَ يَمْتَنِـــعْ يَقْبَـــلْ خُـــسُوفَا[4]

لم يستهل الشاعر قصيدته بمقدمة طللية أو غزلية أو خمرية، بل دخل إلى الموضوع الرئيس، فذكر انتصارات المسلمين على قبائل العرب في تهامة ومكة وخيبر وحنين، وحدد الهدف القادم، وهو قبيلة دوْس أو ثقيف، وثقيف بطن من هوازن، وقدم أبناء عمومتهم في حنين، ودارت الدائرة عليهم، فقد أقبل عليهم جيش عظيم مدجج بالسلاح مشتاق إلى لقائهم ورئيسهم النبيﷺ، وهو رسول الله ذو رأي حكيم وعلم، ونحن في طاعة الله تعالى ونبيه ﷺ، وليس أمامكم إلا أن تسلموا فتكونوا لنا عونًا وساعدًا على أعداء الإسلام، فإن أبيتم جاهدناكم وصبرنا على حربكم حتى تذعنوا بالطاعة.

وليست أول من لاقينا، وقد هزمنا من هم أشد منكم قوة ومنعة، وسوف نسوقكم إلى أمر الله والإسلام حتى يكون الدين لله، وسوف تزهق عبادة الباطل اللات والعزّى وودّ، فإن امتنعتم عن الدخول في ديننا سقيناكم ذلاً ومهانة، وصبرت الطائف للنبيﷺ أيامًا في حصونها، فانصرف عنهم، فأتوه طائعين ودخلوا في الدين.

** ** ** **

---

(1) جدعنا : قطعنا، وأكثر استعمال هذا اللفظ في قطع الآنف خاصة.

(2) لين – بفتح فسكون – مخفف لين – بتشديد الياء مكسورة – وعنيف : ليس فيه رفق.

(3) الشنوف : جمع شنف، وهو القرط الذي يلبس في الأذن.

(4) الخسوف ههنا : الذل والمهانة.

الغـــزل

الغزل : ما يوصف به النساء من حسن وجمال وغرام بهن، والتودد إليهن، والإعجـاب والشغف بهن، وعرف بأنه اللهو مع النساء في الشعر، أو رقيق الشعر في النساء، ويسمى غزلاً ونسيباً وتشبيهاً، والنسيب: الرقيق منه المُتغزَّل به في النساء، والتـشبيب: التغـزل بالمرأة ووصف حسنها.

وقد ظهر هذا الفن في الجاهلية، وكان موضوع مقدمة القصيدة، فالشاعر يبدأ القصيدة بالوقوف على الأطلال والبكاء على بقايا الديار، ويتذكر ذكرياته مع الحبيبة وأيام الـصبا، ويصف جمالها ومشيتها، وقد يصف بعض مفاتن جسدها وما يعجبه منها، ويصرح بـذلك وقد يجاوز في وصفه الحسي فيصف المفاتن من جسمها وصفاً صريحاً، وقد كان الوصـف في الجاهلية حسياً يصف الشاعر معالم الجسد وحركتهما.

وعد هذا تقليداً في المقدمة الغزلية التي يستهل فيها الشاعر قصيدته بالحديث عن امرأة يحبها فيصفها، ويتحسر على ذكرياته معها وفراقها، ويتوجـع ويـشكو بعـدها وهجرهـا وجفائها وتمنعها، ويطلب من رفيقه أن يشاركه معاناته، ويستعطف سـامعه، ويـدعوه أن يسعفه بالبكاء معه على ديار الحبيب.

وظلت هذه المقدمات الغزلية تقليداً في عصر النبوة وما بعده حتـى العـصر الحـديث، فظهرت اتجاهات حديثة تدعوا إلي التخلص منها، وقد ثار عليها بعـض شـعراء الدولـة العباسية فسخروا ممن يبكون على الربع الدارس وهو وقوف الشاعر على بقايـا الـديار فيستذكر ذكرياته بها، فما ضرهم لو أنهم جلسوا، وتركوا الربع وليلـى جانبـاً؟! ولكـنهم استبدلوا المقدمة الطللية التي بكى الشاعر فيها ديار الحبيب بالمقدمـة الخمريـة، وظلـت المقدمة افتتاحية في القصيدة العربية، ووقع الاختلاف في مضمنها فقط فهي بكـاء علـى أطلال الديار الدارسة وذكريات الحبيب، أو مقدمة خمرية خالصة موضوعها الخمر فقط، أو رثائية تنعى فقيد.

ولم يتجاوز الغزل في شعر شعراء الإسلام في عصر النبوة مقدمة القصيدة، فـالظروف التي واكبت إنتاج هذه القصائد لا تناسبها القصائد الغزلية، فالدعوة الإسلامية كانـت فـي مواجهة أعدائها، وقد جنَّد شعراء الإسلام أنفسهم في جيوشها للدفاع عنها، فتركوا الغـزل ونافحوا بشعرهم عن الله ورسوله ودينهم والمسلمين، وليست هنالك قـصائد غزليـة بـل أبيات عرضت في مقدمات بعض القصائد الطويلة، وليس عن قصد بل تقليـد لمـا عليـه مقدمات القصائد التي ابتدأها الجاهليون.

والمرأة التي ذكرت في قصيدة كعب"بانت سعاد"ليست إلا رمزاً لحيرة الشاعر واضطراب

وجدانه وحاجته إلي الدفء العاطفي، فقد حرمته وعذبته وأخلفت وعدها وصدته، ثم تجاوز سعاد إلي الحديث عن الرحلة الشاقة إلي الأرض التي نزلت بها بعد أن هجرته[1].

وأطال كعب في الحديث عن رحلة السفر والناقة التي قطعت الرحلة ، ووصف الناقة وصفاً حسياً دقيقاً، وتناول المعاناة والظروف القاسية التي خاضت غمارها للوصول إلي المكان، بيد أن الناقة بعد أن قطع الرحلة الشاقة لم تصل به إلي الأرض التي تسكن بها سعاد التي ابتدأ بها القصيدة بل حملته إلي المكان الذي يسكن فيه رسولﷺ، ولم يعد يذكر سعاد بعد المقدمة بل ختم القصيدة بنهاية الرحلة إلي رسول اللهﷺ، فسعاد رمز للمعاناة النفسية والحيرة، والظروف التي واجهها في السفر رمز لما وقع في نفسه وهو في طريقه إلي رسول اللهﷺ، وعاقبة اللقاء به ورد فعله، والناقة كانت معبراً أو مركبة عبر بها من الشرك إلي الإيمان، وكانت هذه الرحلة التي قطعها إلي الإيمان ثقيلة على نفسه وشاقة.

ولا تشك المرأة في مقدمات حسان قيمة كبيرة، فكان يذكرها عرضاً وتقليداً،ويتركها دون أن يشتكي حبها أو هجرها ولا يألم لفراقها، فيدعها غير آسف عليها ويدخل في موضوع قصيدة ولا يقف معها طويلاً في المقدمة ويتخلص منها في عجالة، قال في مقدمة القصيدة التي قالها في فتح مكة:

عفت ذاتُ الأصابع فالجَواء إلي عذراء منزلها خلاء

ثم يقول بعد أن بكى ديار الشام : ذات الأصابع ، والجواء وعذراء:

فدع هذا ولكن من لطيفٍ يؤرقني إذا ذهب العشاءُ

شعثاءَ التي قد تيَّمتــه فليس لقلبه منهَا شفاءُ

فطيف الحبيب يؤرق الشاعر فيذهب نومه، ويتذكر شعثاء التي استولت على قلبه، وذللته وذهبت به كل مذهب، وشعثاء امرأة مجهولة، قيل هى بنت سلام بن مشكم، قيل هي امرأة من خزاعة، وقيل لا يريد امرأة بعينها، وليست هي المرأة الوحيدة التي ذكرها بل هنالك "مىّ " قال حسان في مقدمة يرثي بها من قتل يوم أحد:

يا مىّ قومي فاندبنَّ بسُحْرَة شجْو النوَائح

وجاء كر "أم مالك" و "أم الوليد" وغيرهن ..

وقال حسان في رده على ابن الزبعري ، غير معتبط بباء الديار والحبيب:

فدع الديار واُذْكُر كل فريدة بيضاء آنسة الحديث كَعَابِ

أي: اترك بكاء الديار وذكر المرأة الناعمة البيضاء الحيية الناهدة، وتكلم عما فعله

---

(1) ارجع إلي شرح القصيدة في موضوع الاعتذار ونص المقدمة .

المشركون برسول الله ﷺ.

ويكاد الشعراء يتفقون في وصف المرأة الحسي، فيصفون منها الطول والعنق، والوجه والأسنان والخسر والردف أو العجز، ويصفون حديثها ومشيتها وتمنعها .

وقد أثر الإسلام في الشعراء، فتركوا مفاتن الجسد وما فيه خروج عن الدين، فوصفوا الخُلق والحياء والدين والعفة، وتحفظوا في الحديث عن المؤمنات الحرائر العفيفات، وقد تحول الغزل في عصر النبوة من الوصف الحسي الصريح لجسد المرأة وسلوكها شبقاً إليها إلي مدح دينها وخلقها وحيائها وشرف أرومتها ونسبها وحسبها، وظهر تيار الغزل العفيف النفس من الحبيب وطيف الحبيب الذي يستبد بخيال المحب، فالحبيب يعيش مع روح حبيبه، ويتجاوز في حبه وثورة عاطفته جسد المرأة ويتجافى عن اللذة الحسية والشهوة، ويهيم في عالم الروح.

وقد مدح شعراء الإسلام ما توصف به المرأة من خلق حسن وحسن صَنيع في قصائد كاملة ومن ذلك القصيدة التي مدح بها حسان رضى الله عنه السيدة عائشة يعتذر فيها عما قيل عنه أنه خاض في الحديث عنها، فوصفها بالعفة وكمال العقل. روى مسلم عن مسروق قال : دخلت على عائشة وعندها حسان بن ثابت ينشدها شعرًا يشبب بأبيات له فقال :[1]

حَصَانَ رَزَانَ ما تُزَنُّ بريبةٍ وتصبحُ غَرْثَى من لُحُومِ الغوافِلِ

وزاد البخاري أنها قالت : لكنك لست كذلك.

قال مسروق : فقلت لها : لم تأذنين له أن يدخل عليك وقد قال الله تعالى: ﴿**وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾[النور:١١] فقالت : وأي عذاب أشد من العمى. قالت له : إنه كان ينافح – أو يهاجي – عن رسول الله ﷺ.[2]

وذلك أن حسان قد خاض في حديث الإفك. وقال عروة بن الزبير : كانت عائشة تكره أن يُسَبْ عندها حسان، وتقول إنه الذي قال:[3]

فإن أبى ووالده وعِرضي لعرْضِ محمّدٍ منكم وِقاءُ

---

(1) الحديث بلفظ مسلم، كتاب الفضائل، فضائل حسان بن ثابت رضى الله عنه، ورواه البخاري.
حصان : محصنة عفيفة، رزان : كاملة العقل ومذكرهما : محصن، ورزين، ما تزنّ : ماتتهم، اتهمت به خيرًا أو شرًا، غرثى : جائعة، ورجل غرثان، ومعناه : لا تغتاب الناس، شرح النووى جـ١٦/٤٦، ٤٧
وزاد البخاري أنها قالت له : لكنك لست كذلك، قال مسروق فقلت لها لما تأذنين له أن يدخل عليك.

(2) صحيح البخاري، باب حديث الإفك.

(3) فتح الباري ٤٩٦/٧.

ولا يحمل ما امتدحه حسان من خلق وما استحسنه فيها على معنى الغزل ومفهومه عند الشعراء، فقصيدته حسان في السيدة عائشة من باب المدح، بيد أنها سميت تشبيبًا(غزلاً)؛لأنها قيلت في مدح الشاعر حُسن خُلق السيدة عائشة، وهو في عرف القدماء تشبيب وفي اصطلاح بعض المحدثين مدح. وأجاز العلماء الغزل العفيف الذي يخلو من الفحش، ووصف الجسد وصفًا صريحًا. قال العجاج : دخلت المدينة فقصدت إلى المسجد النبيﷺ، فإذا بأبي هريرة قد أكب الناس عليه يسألونه، فقلت : أفرجوا لي عن وجهه، فأفرج عنه. فقلت له : إني إنما أقول [يسأله عن حكمه] :

طاف الخَيَالانِ فهاجَا سَقَماً ... خيالُ أَرْوَى وخيال تكتُما

تُريك وجهًا ضاحكًا ومعْصماً ... وساعدًا عبلاً وكعبًا أدْرما

فما تقول فيه ؟ قال : قد كان رسول اللهﷺ يُنْشَد مثلَ هذا في المسجد فلا ينكره.[1]

فقد كانت الشعراء يفتتحون القصائد بمقدمات غزلية أو طليلة، وقد كان عرفًا في الشعر، فيدخلون منها إلى غرض القصيدة، وقد كان النبيﷺ يسكت عن هذه المقدمات تجوزًا حتى استطاعوا أن يتحرروا مما فيها من تصريح، فكنوا ثم سخروا منها، فتركها بعضهم، وكان بعضهم يتعفف منها، فتركوا المقدمة الخمرية بعدما حرمت الخمر، وقد كان الشعراء حديثي عهد بالجاهلية، وكانت تقليدًا فاشيًا في الشعر العربي، ومعلمًا فيه[2].

ولم يتوسع شعراء الإسلام في عصر النبوة في فن الغزل، ولم يقع كثيرًا في شعرهم تورعًا وحياء، ولأن العصر النبوي كانت تستحوذ عليه هموم الدعوة والجهاد من أجلها، والصراع بين الإيمان والكفر وفن الغزل ينمو في سلام وسكينة وترف وملذات ومجالس طرب، وعصر النبوة يعلو على ذلك.

وما جاء منه في هذا العصر وقع في صدور القصائد أو مقدمتها، ولم يك موضوع القصيدة، وقد ترك الشعراء ما كان عليه الجاهلون وعفوا، وقد ظهر لون آخر من الغزل فيه تعفف وتحفظ ويعبر عن تجربة صادقة وحب طاهر لا تشوبه شهوة وليس فيه ذله، وليس الحب بمحرم فهو مما لا قَسْم للإنسان فيه.

ونحمد الله تعالى أن قسمنا فيه حب الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وصالحي المؤمنين.

---

(1) العقد الفريد جـ٥/٢٨٨.

(2) جاءت المقدمة غزلية وطللية في بعض قصائد حسان رضى الله عنه التي قالها في الإسلام، وابتدأ بها كعب بن زهير في القصيدة التي اعتذر فيها وأسلم.